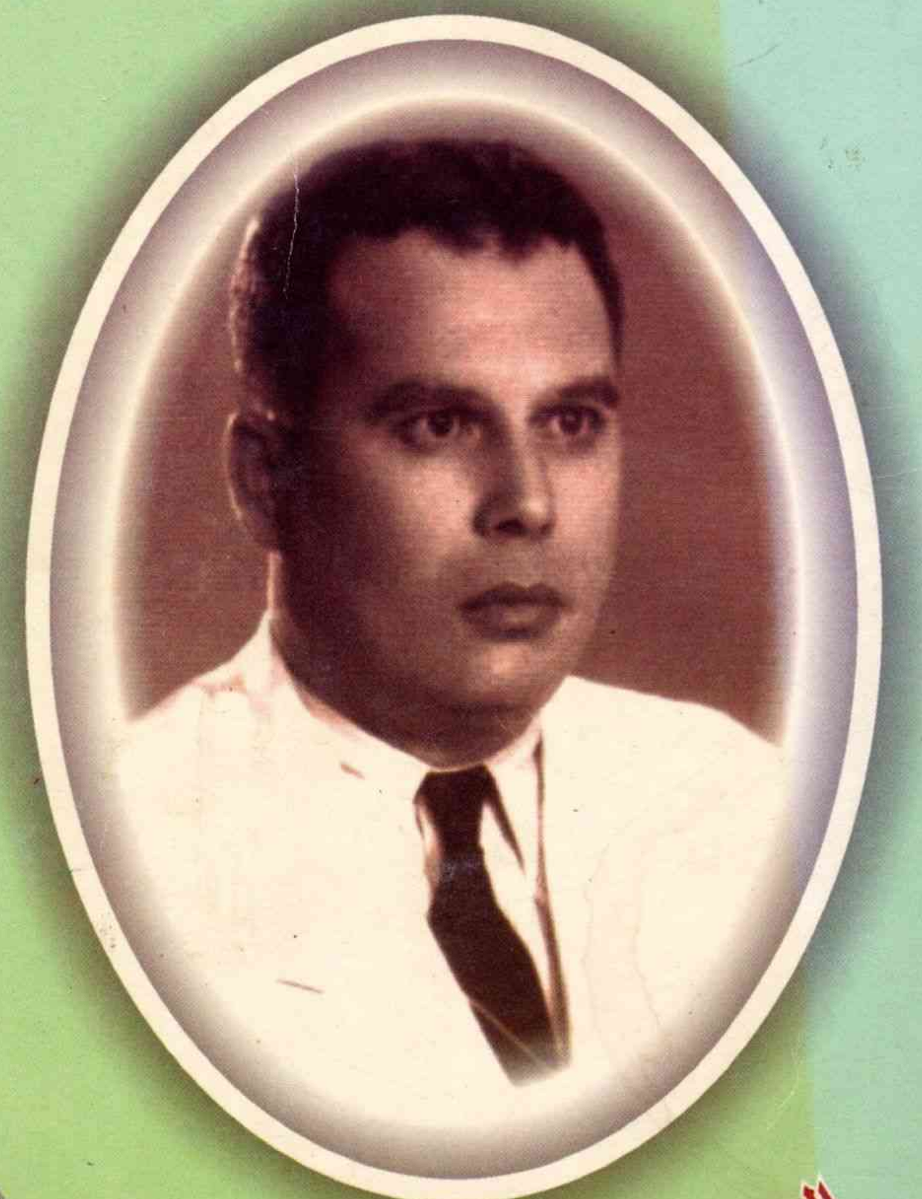
مذكرات

فخري الفخري

١٩٠٨ - ١٩٩٥



الوزير وأمين العاصمة في العهد الملكي

أعدها وقدم لها وعلق عليها

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

اهداء الى السيد طلعت النقيب المحترم

عائلة المرحوم فخري الفخري

مذكرات

فخري الفخري

١٩٠٨ ـ ١٩٩٥

الوزير وأمين العاصمة في العهد الملكي

أعدها وقدم لها وعلق عليها

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف



بين يدي هذا الكتاب

قد يكون هذا الكتاب مبعث دهشة بعض القراء الذين اعتادوا أن يقرأوا في كتب المذكرات حكايات سياسية ، أو أحاديث خاصة، ترضي فضولهم لمعرفة (أسرار) حقبة ما، مهما كانت تلك (الأسرار) عادية، وتتفق مع رغبتهم في الوقوف على تفاصيل غير معروفة لأحداث مهما تضاءلت أهميتها الفعلية، فلأمثال هؤلاء أقول أن شيئاً من هذا لن يجدونه في هذا الكتاب، ليس لأن مؤلفه لم يكن شاهداً حقيقياً على عصره، بل مساهماً في أحداث ذلك العصر، ولكن لأنه – رحمه الله– اختار أن يتناول في مذكراته، أو قل ذكرياته، موضوعات لا تعلق لها مباشر بلعبة الحكم، ولكنها أكثر منها فاعلية في بناء العراق الحديث، فمع أنه شغل موقع أمين العاصمة لسنوات عديدة، بل شغل موقعاً وزارياً، فكان من ثم قريباً من أحاديث ساسة ذلك العهد ، مطلعاً على خفاياهم وكثير من أسرارهم، إلاّ أن ولاءه العلمي، بصفته مهندساً رائداً جعلته يميل إلى كتابة تاريخ المشاريع الهندسية التي تولاها، أو عاصرها، أكثر من ميله إلى كتابة تاريخ الوزارات التي شهد تأليفها ثم سقوطها، ومعنياً بدراسة تطور العراق الحضاري، أكثر من عنايته بالتغيرات السياسية التي كانت تعصف به بين حين وآخر.

لقد كان السيد (فخري الفخري) طليعة حقيقية لفئة من (التكنوقراط) الذين عُنوا بتحديث العراق في النصف الأول من القرن العشرين، والزاوية التي اختارها لهذا التحديث تتفق مع اختصاصه الذي

ظل وفياً له، وهو الهندسة المدنية، فكان من أوائل المهندسين الذين اضطلعوا بتأسيس المشاريع الهندسية الحديثة في العراق، كالطرق المعبَّدة والشوارع الفسيحة والجسور والقناطر. كما كان له الفضل في تأسيس عدد من المؤسسات المهمة، منها أول مديرية للمجاري في بغداد، لتقوم، وللمرة الأولى أيضاً، بحل مشكلة المياه الثقيلة في العاصمة التي ظلّت دون مثل هذه المرفق قروناً عديدة. هذا فضلاً عن تأسيسه، وعدد من زملائه، أول جمعية للمهندسين في العراق، ووضعه عدداً من الدراسات الرائدة عن مشكلة السكن في العراق، ومشاكل الخدمات العامة فيه، فضلا عن وضعه التصميم الأساسي الأول لمدينة بغداد مستعينا ببعض بيوت الخبرة العالمية عهد ذاك، وغير ذلك كثير.

لم يكن فخري الفخري إذن سياسيا بحسب مفهوم السياسة التقليدي في تلك الحقبة، بل حينما أختير وزيرا للمواصلات والأشغال سنة ١٩٥٤، جرى ذلك – على حد قوله– لأنه لم يكن" ذا ميول سياسية معينة"، لكنه كان وطنيا متحمسا لخدمة وطنه والارتقاء به، شأنه شأن كثيرين من الفنيين الرواد والموظفين الأكفاء والعلماء النابهين الذين لم يذكرهم التاريخ إلا لماما مع أنهم هم الذين شيدوا بناء الدولة العصرية في العراق بعد قرون من التردي والتخلف. وسيرى القارئ لهذه الذكريات كم هي الصعوبات الفنية والمالية والاجتماعية التي واجهها هؤلاء الرواد وهم يعملون بصمت من أجل تحقيق رسالتهم النبيلة، ومدى ما كانوا يحسون به من مسؤولية تجاه قضية وطنهم، وسباقهم المستمر مع الزمن من أجل تحديث الحياة في هذا الوطن ليحتل موقعه في عالم سريع الخطى نحو التقدم.

ولد السيد فخري جميل الفخري في محلة جامع جمشيد إحدى محلات مدينة الموصل القديمة[1]، سنة ١٩٠٨، من أسرة اشتهرت بعراقة نسبها وبتوليها نقابة الأشراف مدة طويلة بلغت نحو تسعة قرون عدداً، وكان عدد من رجال هذه الأسرة قد اشتهروا بعلمهم، فتولوا من ثم مناصب شرعية مهمة، ترددت بين القضاء والإفتاء والتدريس ، كما كان لبعضهم مؤلفات جمة في التفسير والأدب والفقه والتاريخ وغير ذلك، وقد تولى أبوه وظائف قضائية عدة منها أنه أصبح نائباً لرئيس محكمة الاستئناف في الموصل، ونائباً في المجلس النيابي.

في مثل تلك البيئة المثقفة نشأ فخري، فكان أن تلقى تعليماً جيداً بحسب مستويات التعليم في ذلك العصر، إذ باشر تعليمه الأول في بعض كتاتيب الموصل، حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئاً من القرآن الكريم في كتاب يتخذ من مسجد المكاوي مقراً له، ثم إلتحق، من بعد ذلك، بالمدارس النظامية، فدخل في سلك تلاميذ إحدى مدارس الموصل الابتدائية القليلة، وكانت قد أنشئت في أواخر عهد الدولة العثمانية، باسم (رهبر ترقي) ، وهي من المدارس التي كانت تدرس مناهجها باللغة التركية، ثم انقلبت إلى العربية، بعد الحرب العالمية الأولى، بفضل همة المدرسين الموصليين الذين تولوها. ولم تمض إلاّ مدة حتى نقل فخري إلى مدرسة أخرى تدعى (شمس المعارف). وفي سنة ١٩٢١أسس أفراد، منهم رجال من أسرة الفخري، مدرسة في مبنى الجامع الكبير سميت بالمدرسة الإسلامية كان الغرض من تأسيسها هو " وطنياً ودينياً" على حد تعبيره، فانتقل هو إليها، حيث درس اللغة العربية وآدابها والعلوم الدينية من فقه وعقائد وتجويد وتفسير للقرآن الكريم وعلوم الحديث، فضلاً عن التاريخ

---

[1] ورد ذلك في نسخة من العقد المبرم بين الطالب فخري الفخري ووزارة المعارف لضمه إلى البعثة الدراسية في ١ آب سنة ١٩٢٦.

والجغرافيا والرياضيات والحكمة، بيد أن ضعف مناهج المدرسة كان يتجلى بعدم تدريسها للغة الانكليزية، مما أدى إلى خلق مشكلة حقيقية أمام خريجيها الذين كانوا ينوون الالتحاق بدراسة رسمية أعلى، وتخرج فخري في المدرسة الاسلامية سنة ١٩٢٢ وبذل مجهوداً خاصاً في تعلم اللغة التي لم يدرسها من قبل، وبالفعل فقد آتى مجهوده أكله، إذ تمكن بعدها من الإلتحاق بالمدرسة الثانوية ، ثم الانتقال إلى بغداد حيث أدى امتحاناً وزارياً شاملاً ، هو الأول من نوعه عامذاك، في المدرسة الثانوية (الإعدادية المركزية فيما بعد) ، وبذا أنهى الدراسة الثانوية سنة ١٩٢٦.

ونتيجة لتفوقه الدراسي، فقد ضُم فخري إلى بعثة وزارة المعارف سنة١٩٢٦ لمواصلة الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت. وكعادة بعض الأسر التي تبدي طموحاً متميزاً لتعليم أبنائها، فقد شجعت أسرة الفخري ولدها للسفر إلى لبنان بهدف الالتحاق بمدرسة برمانا الصيفية، لضمان تعلم الانكليزية على أيدي مدرسين أكفاء، وكان الالتحاق بهذه المدرسة يمثل حطوة مهمة للراغبين في مواصلة دراستهم في الجامعة الأمريكية في بيروت فضلاً عن الجامعات الأوربية والأمريكية، واختار الشاب فخري أن يدرس الهندسة المدنية، وفي هذه الجامعة قضى أطيب سني عمره على حد تعبيره، حيث تعرَّف على (الحياة الجامعية) والتقى بأساتذة ذوي خبرة في اختصاصاتهم، بيد أنه لاحظ أن الجامعة لا تولي في مناهجها الجانب التطبيقي، وإنما تهتم بالعلوم الرياضية النظرية فحسب، وهو ما يؤدي بخريجيها إلى نقص في الخبرة المطلوبة، وضعف واضح في وضع العلم موضعه من التطبيق. وهكذا ولدت لديه فكرة السفر إلى بريطانيا للإلتحاق بإحدى جامعاتها، ومواصلة الدراسة هناك، وبعد جهود بذلها في إقناع وزارة المعارف العراقية، تمكن من تحقيق رغبته، فسافر سنة ١٩٢٨ على ظهر باخرة إلى مرسيليا في

فرنسا، ومنها إلى دوفر في بريطانيا، ومنـــها إلـــى برمنكـــهام ليلتحـــق بجامعتها متخصصا بعلم الهندسة المدنية، فكان بذلـــك أول طـــالب بعثـــة لدراسة الهندسة في الجامعة المذكورة، وبذا فقد صار طليعـــة لعـــدد مـــن الطلبة العراقيين الذين اختاروا الدراسة فيها، كان أولـــهم السـيد ضيـــاء جعفر(الوزير فيما بعد) إذ ربطت الصداقة بين الشابين المغتربين، ووصلت بينهما مقاعد الدراسة، فضلا عن مشاعر البعد عن الأهل والوطن[٢]، وفـــي سنة ١٩٣٢ تخرج في الجامعة، حاصلا على شهادة (بكلوريوس علـــوم) في الهندسة المدنية.

وتنفيذا للعقد المبرم بينه وبين وزارة المعارف، فقد عاد إلى وطنـه ليعين في مديرية الأشغال العامة، بعنوان(نائب مهندس) ، في وقـــت لـــم يكن في العراق غير خمسة عشر مهندسا فقط، وباشر عمله فـــي منطقـــة الأشغال الشمالية في ١١ أيلول ١٩٣٢. وعند دمج مديرية الري بمديريـــة الأشغال، نقل إلى شعبة ري وأشغال الموصل، في ٣١ تشرين الأول مـــن سنة ١٩٣٤. ثم أنه رقي، بسبب ما أظهره من كفاءة وهمة، إلى وظيفـــة (معاون مهندس شعبة الري والأشغال المركزية في الموصل) ولكنه نقـــل، بسبب فك مديرية الري عن الأشغال، الى البصرة، حيث شـــغل وظيفـــة (معاون مهندس المنطقة الجنوبية للأشغال في البصـــرة) وذلـــك فـــي ٢٨ نيسان من سنة ١٩٣٦. وفي ٢ حزيران من العام نفسه رقي إلى وظيفـــة (مهندس)، ولكنه لـــم يلبـــث أن نقلـــت خدماتـــه إلـــى وزارة الإقتصـــاد والمواصلات في ٢١ كانون الأول من ذلـــك العـــام بعنـــوان (رئيـــس مهندسين)، حيث شغل وظيفة (مميز الأمور الفنية) فيها. وفي ٧ نيســـان سنة ١٩٤٠ نقلت خدماته مرة أخرى إلى مديرية الأشغال العامـــة، حيـــث

---

[٢] كتابنا: ضياء جعفر، سيرة ومذكرات ، بغداد ٢٠٠١، ص ١٧.

عمل رئيساً للمهندسين في مركز المديرية، وبعد أيام قليلة، أعيرت خدماته إلى أمانة العاصمة بعنوانه نفسه، ويروي الفخري سبب اختياره للعمل في الأمانة بقوله:

" [اختارني] أرشد العمري، الذي كان يشغل منصب أمين العاصمة، وكان يعمل بمعيته عدد من الأسطوات الذين منحوا لقب مهندسين بالممارسة، وقد تعرض العمري لإنتقادات كثيرة ومحاصرة من الشخصيات العراقية، مفادها: لو أصبحت رئيساً للوزراء أو لمجلس الأعيان، من سيحل محلك؟، وقد تحقق ذلك فعلاً. ومما زاد في قناعة العمري أنه لابد من إيجاد البديل حادث سقوط (الجملون) بقاعة الملك فيصل الثاني(قاعة الشعب) أثناء التشييد، وتعرضه إلى هجوم في مجلس النواب، واتهامه بالتقصير والتبذير، فتأكد له أن ما حدث مسألة فنية لا يستطيع (الأسطوات) معالجتها، فبدأ بالبحث عني كمهندس، وعندما إلتقاني قال لي: أنني أبحث عن واحد سلس، مثقف، شفتك أنت زين!، وعرض علي راتباً مغرياً، وكان غير مقيد بقانون الخدمة المدنية، ووافقت، فعملت سبع سنين كرئيس مهندسين.."[٣].

وأثبت في عمله الجديد من الجدارة ما جعل رؤساؤه يختارونه (وكيلاً لأمين العاصمة) وهو منصب يعادل (أمين بغداد بالوكالة) في وقتنا هذا، إضافة إلى كونه رئيساً لمهندسيها.

بيد أن إنشغاله في العمل لم ينسه رسالته العلمية في إعداد ملاكات هندسية تفيد منها البلاد، فسعى، متعاونا مع عدد من زملائه خريجي الجامعات البريطانية، وهم الدكتور ضياء جعفر، ومحمد علي صائب، ونيازي فتو، وأحمد عدنان حافظ، إلى تأسيس مدرسة للهندسة يقبل فيها

---

[٣] الفخري في حديث له مع محرر جريدة (العراق) العدد ٥٢٦٣، ١٨ حزيران ١٩٩٣.

خريجو الدراسة المتوسطة،وأعدوا لها منهجاً خاصاً يجمع بين الجانبين العملي والنظري، وقد تم لهم أخيراً إقناع وزارة المواصلات والأشغال بأن تشرف على هذه المدرسة، واستمر التدريس قائماً فيها حتى تأسيس كلية الهندسة[٤].

وفي ١٣ كانون الأول سنة ١٩٤٧ صدرت الإرادة الملكية بتعيينه مديراً عاماً للأشغال، وكان ذلك بمساعٍ بذلها صديقه القديم في جامعة برمنكهام الدكتور ضياء جعفر، فلبث يؤدي عمله فيها حتى تأسيس مجلس الإعمار، الذي أنيطت به مهمة تخطيط المشاريع الكبرى في العراق وتنفيذها، فأُختير ليتولى رآسة الهيئة الفنية الثانية في المجلس المذكور في ٢٦ أيار من سنة ١٩٥٢[٥]، إضافة إلى توليه مديرية الأشغال العامة. ثم أنه نقل في العام التالي إلى ملاك وزارة الإعمار الدائم بوظيفة المدير العام للهيئة الفنية الثانية، وبرز دوره في أثناء ذلك في كثير من الأعمال الهندسية التي قام بها المجلس والوزارة، ومنها دوره في إنقاذ بغداد من كارثة محققة حينما حاصرتها مياه الفيضان سنة ١٩٥٤.

وفي ٢٩ نيسان ١٩٥٤ أختير وزيرا للمواصلات والأشغال في وزارة أرشد العمري، وفي ١٧ حزيران من العام نفسه، استقالت الوزارة[٦]، فعين هو أمينا للعاصمة في ٩ حزيران سنة ١٩٥٤ واستمر في

---

[٤] ضياء جعفر سيرة ومذكرات ص ٢٥.

[٥] وزارة المواصلات والأشغال، مميزية الأمور المالية والإدارة الذاتية، أمر وزاري، برقم ٤٢٦١ في ١٩٥٢/٥/٢٧(محفوظ في الأرشيف الشخصي للفخري).

[٦] استقال السيد فخري الفخري من منصبه الوزاري قبيل استقالة وزارة أرشد العمري، وفيما يأتي نص الإستقالة

" فخامة رئيس الوزراء المحترم

أرجو تفضل فخامتكم بالموافقة على عرض اعفائي من منصب وزارة المواصلات والأشغال على المقام السامي للتكرم بقبوله. ويسرني أن أنوه بهذه المناسبة بما لقيته من لدن فخامتكم من معاضدة وتشجيع، وبما حظيت به من قبل حضرات الزملاء=

فعين هو أميناً للعاصمة في ٩ حزيران سنة ١٩٥٤ واستمر في منصبه هذا حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

وبعد أيام من قيام الثورة، وجد الفخري نفسه معتقلاً مع رهط من المسؤولين، فكان أول المتهمين الذين جرى التحقيق معهم، ولكن دون أن يمثل أمام المحكمة العسكرية الخاصة، التي شكلت خصيصاً للتحقيق مع أقطاب العهد السابق،وقد اكتفت اللجنة التحقيقية بتوجيه بضعة أسئلة عادية، أجاب عنها بوضوح، ولما لم تجد لديها ما يستدعي المضي في التحقيق، أطلق سراحه، بعد أن أحيل على التقاعد.

=أصحاب المعالي الوزراء من تعاون ومؤازرة خلال مدة اشتراكي بالمسؤولية، مما كان له أكبر الأثر في تمكيني من الاضطلاع بالمهمة الملقاة على عاتقي كوزير للمواصلات والأشغال، ولذا أنتهز هذه الفرصة لتقديم جزيل شكري وامتناني لكل ذلك مشفوعا بعظيم احترامي الخالص لفخامتكم. فخري الفخري". وقد قبلت الاستقالة. ينظر عبد الرزاق الحسني: تاريخ الوزارات العراقية، صيدا ١٩٦٨، ج٩ ص ١٠١. وفي حديث له إلى محرر جريدة العراق (وقد أشير إليه سابقا) ـنه تقدم باستقالته 'لى رئيس الوزراء لأنه وجد من الصعوبة الانسجام مع زملائه من الوزراء . وذكر عبد الرزاق الحسني: تاريخ الوزارات العراقية، صيدا ١٩٦٨، ج٩ ص ، ١٠١. في تفسيره استقالة الفخري أنه كان " يشغل منصب أمين العاصمة براتب زهيد بالقياس إلى راتب الوزير، فلما ألف السيد العمري وزارته الثانية في ٢٩ نيسان، أدخله في وزارته كوزير للمواصلات والأشغال، ولما قاربت أيام هذه الوزارة نهايتها، تقدم السيد الفخري بكتاب استقالته... وبعد يومين صدرت الإرادة الملكية بتعيين السيد فخري الفخري أمينا للعاصمة براتب وزير، أي بثلاثة أمثال راتبه قبل الوزارة، هكذا يكون التلاعب بالقانون!". ولدى الرجوع إلى دفتر خدمة الفخري، وخلاصة رسمية بخدماته (مطبوعة على الآلة الكاتبة ومحفوظة في آرشيفه الشخصي) تبين أن راتبه قبل توليه الوزارة هو ٧٥ دينارا، وأنه بلغ حينما أستوزر ١٢٠ دينارا ، وبذا فلا تبلغ الزيادة " ثلاثة أمثال راتبه قبل الوزارة" ، وإنما أقل من الضعف الواحد.

عمل الفخري بعد تقاعده في مكتب قريبه السيد حلمي حقي المفتي الهندسي، ثم ما لبث في سنة ١٩٧١ أن أسس له مكتباً مستقلاً بعنوان" مكتب فخر الدين الفخري- مهندسون استشاريون" اتخذ من عمارة فاطمة المطلة على ساحة التحرير مقراً له[٧]، وقد اضطلع هذا المكتب بمهام استشارية هندسية ذات شأن وبخاصة في السبعينات ، حين شهد العراق نهوضاً عمرانياً واسعاً وقيام عدد كبير من المشاريع في مجال الهندسة المدنية. من ذلك مثلاً: تصميم وإشراف على إنشاء دور سكنية مختلفة، ووضع تصاميم لمخازن لبعض الوزارات، ووضع تصاميم إنشاء السوق العصري لبلدية الموصل، ويحتوي على دكاكين ومخازن وعمارات، ووضع تصاميم كاملة لمباني معمل الخشب المضغوط لشركة أخشاب الشمال في الموصل، بما فيها بناية المعمل وبناية الإدارة وتصاميم أسس المكائن والمعدات، ولعل أهم تلك الأعمال التعاون مع مؤسسة المهندسين الاستشاريين بوسفورد بافري في إنشاء جسري تكريت وشمالي بغداد، والتعاون مع مؤسسة رندل بالمر وتريتون في مشروعي إنشاء جسر ١٧ تموز في باب المعظم ببغداد، وطريق كركوك- كويسنجق، وغير ذلك[٨].

ويلخص السيد فخري الفخري دوره في إنشاء العديد من المشاريع النافعة التي شهدها العراق في خلال مدة توليه وظائفه الهندسية، وبخاصة عند شغله مديرية الأشغال العامة، فأمانة العاصمة، بقوله:

" بحكم ترؤسي لكل المناصب الهندسية الآنفة الذكر فمن البديهي أن أكون مسؤولا عن تنفيذ العديد من المشاريع الهندسية المهمة، ويكاد أن

---

[٧] نقابة المهندسين، صندوق تقاعد المهندسين، استمارة ممارسة المهنة الهندسية الخاصة بالسيد فخر الدين جميل الفخري، العدد ٤٨٣٢/٢٤ في ١٩٧١/١٢/٢٠.

[٨] نقابة المهندسين، صندوق تقاعد المهندسين، مذكرة من المهندس فخر الدين الفخري مرفقة باستمارة ممارسة المهنة المذكورة سابقا.

لا يكون هنالك مشروع هندسي، ولا سيما فيما يتعلـق بإنشـاء الطـرق والجسور والمباني العامة وتخطيط المدن والمجاري إلا وهو مقترن باسمي بصورة من الصور، إلا أني سوف لا أعددها ولا أذكرها، وإنما سـأقتصر على تلك التي تتميز بصفة وطبيعة خاصة، وتلـك التـي أوجدتـها أنـا، وحرصت على تنفيذها، وهي :

١- جسر الموصل الحديدي. فقد كان هـذا المشـروع مـن المشاريع الرائدة، وعد من المشاريع الجسيمة في وقتـه، ولا يضاهيه إلا جسر الفلوجة وسدة الهندية، إلا أنه يختلف عنهما في كونه نفذ بوسائط محدودة.

٢- فتح شارع الخلفاء، وكان اسمه شارع الملكة عالية، ثم بدل وسمي شارع الجمهورية . وهذا [الشارع] مـن تصميمـي، وفتح بوجه لم يسبق ان فتح شارع بهذا العرض قبلـه فـي منطقة مزدحمة بالسكان، ومكلفة.. فحل هذا الشارع – إلـى درجة كبيرة– أزمة المرور الخانقة، ومـول بقـرض مـن المصارف ومجلس الإعمار، لأن ميزانية الأمانة وارداتها لم تكن تتحمله، وسدت كلفته من بيع الفضلات[٩].

٣- وضع التصميم الأساسي لمدينة بغداد. لأول مرة يوضـع تصميم أساس شامل مدروس دراسة علمية لمدينة بغداد، وقـد لاحقته إلى طبق معظمه فلم يبق حبرا على ورق كالتصـاميم التي أقدمت عليها مدن أخرى.

٤- تأسيس مصلحة للمجاري. لأول مـرة تؤسـس مصلحـة المجاري التي تحتاجها مدينة بغداد، وبتمويـل مـن أمانـة

---

[٩] أي فضلات الأراضي على جاني الشارع.

العاصمة بإعطائها سلفة، بناء على اقتراحي وحصولي على موافقة مجلس الوزراء، وقد عينت أول رئيس لها، ودعوت إلى أول مناقصة من مناقصاتها التي تشمل القسم الكائن بين باب الشرقي إلى معسكر الرشيد، مع مراكز التصفية وغير ذلك[١٠].

٥- عمل أول دراسة علمية لمشكلة الطرق، والوقوف على سر فشل الطرق في السابق، فقد أصررت على أن لا أقدم على دعوة مناقصة كبيرة لإنشاء الطرق إلا بعد إجراء هذه الدراسة، فوافق مجلس الإعمار، واستخدمت مختبر التربة العائد لشركة ومبي لإجراء هذه الدراسة من البصرة إلى بغداد، وبعد أن وقفنا على سبب الفشل وطبيعة التربة، أعددنا المواصفات بموجب ذلك.

٦- مكافحة فيضان ١٩٥٤، فعندما أحدق الفيضان ببغداد، واستحوذت الحيرة على المسؤولين في كيفية تعلية السداد، استدعيت إلى مجلس الوزراء ليلتها، واقترحت أخذ التربة من المسافة العليا للسدة من جهة المدينة وإلقاءها على الحافة العليا من جهة مياه الفيضان التي كانت قد شكلت بحيرة خارج السدة، بواسطة (المدرجة الرافعة)، وقد قمت شخصيا بتنفيذ العملية. وعلى إثرها قرر مجلس الوزراء عدم إخلاء

---

[١٠] يذكر الفخري في حديث له مع محرر جريدة (العراق)، تقدمت الإشارة إليه " إن عبد الكريم قاسم عندما تولى السلطة غير بعض الأماكن [أي أماكن التصفية المخصصة لمشروع المجاري] لناحية أمنية، إذ قيل له: يمكن واحد يمشي فيها ويصطادك. وصدقها الرجل فغير أماكنها!".

بغداد (الرصافة) وسلامة المدينة، وقد نوهت بذلك جريـــدة لواء الإستقلال، العدد ١٨٥٦ الصادر في ٢١ نيسان ١٩٥٤.

٧- تأسيس جمعية المهندسين العراقية. شاركت فـــي تأســيس جمعية المهندسين، وحصلنا على موافقـــة [وزارة] الداخليــة على ذلك في سنة ١٩٣٨، وانتخبت أول رئيس لها وبقيـــت رئيسها بصورة متواصلة إلى ١٩٥١/٤/١٩، وفـــي عـــهدي حصلت على موافقة وزارة المالية علـــى تمليكـــها [الأرض] التي ابتنت عليها بنايتها في السعدون، وحصلت على موافقــة الداخلية لجمع التبرعات لإنشاء هـــذه البنايـــة. وبجـــهودي، وساعدني في ذلك الدكتور ضياء جعفر، جمعنـــا التبرعـــات اللازمة بأقصر مدة، وأكملت البناية في سنة ١٩٤٨. وعلـــى الرغم من قلة أعضاء الجمعية لقلة المهندسين آنذاك اشتركت الجمعية في مؤتمر المهندسين الثالث الذي عقد في دمشـــق، وكنت على رأس الوفد الذي اشترك في المؤتمر، وقدمت أنـــا شخصيا بحثا في موضوع" أزمة السكن في بغداد وعلاجـــها"، وقبلت معظم مقترحاتي فيه كمقررات للجنة المسكن الصحي، ورأست لجنة المسكن الصحي والإقتصادي"[١١].

ومن نافلة القول أن هذه المشاريع لم تكن كل مـــا أنجـــزه هـــذا المهندس العراقي النابه، وإن كانت أبرز ما اعتز به من أعمال لأســـباب مختلفة، ففي ملفات أمانة بغداد (أمانة العاصمة سابقا) المئات من الوثـــائق الرسمية التي تشير إلى أنه كان وراء جميع ما أنجز فـــي بغـــداد، إبـــان السنوات الأخيرة التي سبقت ثورة تموز ١٩٥٨، مـــن مشـــاريع تطويـــر

---

[١١] أوراق شخصية في آرشيف السيد فخري الفخري.

وتأسيس لكثير من الأعمال الخدمية النافعة، وكثير من تلك المشاريع ظل يؤدي دوره – بالصورة التي خطط لها – إلى مدد طويلة تالية.ولا شك في أن لجهوده المستمرة الدور الأول في تحديث وجه بغداد وتيسير الخدمات فيها على نحو لم تكن تعرفه هذه المدينة من قبل.

وإذا كان الفخري قد أجمل فيما نقلناه عنه الحديث عن بعض إنجازاته، وفصل القول عن جانب منها في ذكرياته هذه، فلابد لنا أن نلقي ضوءا أكثر تفصيلا على جانب من تلك الإنجازات مما أشار إليه دون أن يعطه ما يستحقه من اهتمام، فمشروع التصميم الأساسي لمدينة بغداد مثلا، ما كان ليجد مكانه في التطبيق لولا جهوده الشخصية، صحيح أن أسس التصميم نفسه وضعه عام ١٩٥٦ استشاري بريطاني من أصل ايطالي،هو Minoprio ومساعداه Spencely و P. W. Macfarlane إلا أن الفخري كان يدرك "أن مصممي المدن عندما ينجزون تصاميمهم تخرج كالسجادة فلا يمكن تنفيذها" لذا فقد اضطر إلى التدخل بخبرته الواسعة في هذا التصميم حتى أنه غير كثير من خطوطه العامة ليغدو أكثر واقعية وملائمة لخصائص العمران وتطوره المستقبلي في بغداد. يقول " تدخلت في الصغيرة والكبيرة، وأضفت إليها شارع الجمهورية الذي كنا أعددنا الخرائط الخاصة به قبل وضع التصميم الأساسي فأدخلناه، واقترحت على الوزارة القائمة آنذاك إنشاء مركزين أحدهما مدني مخصص لسكان بغداد، والثاني للحكومة ومقره كرادة مريم ويقع ضمنه البرلمان، ولهذا الغرض استملكت الأراضي الشاسعة ، واقترضت من وزارة المالية مبالغ كبيرة دفعت لأصحاب الدور التي استملكت بشكل عادل..".وكان مما جرى استملاكه عدد كبير من الدور التي تقرر انشاء الشوارع الجديدة على أرضها، ومنها مثلا شارع باب المراد في الكاظمية وشارع أبي نواس والشارع المقابل لفندق سميراميس (دخل في أرض جسر السنك الحالي)

بامتداد يصل إلى جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وشارع آخر يقابل سينما الحمراء(علاء الدين فيما بعد) ليصل إلى شارع غازي. فضلا عن اقتراح استملاك أراض واسعة تتوسط شارع الملكة عالية (شارع الخلفاء) وشارع الأمين وشارع غازي، لإنشاء حديقة عامة فيها، وانشاء حديقة أخرى في الكاظمية، واستملاك أراض أخرى على جانبي شارع الكيلاني يمتد إلى مسافات متفاوتة في العمق شمالا وجنوبا لإنشاء المركز المدني المقترح (وهو الذس أقيمت عليه مباني أمانة بغداد واسالة الماء بعد عدة عقود من السنين).

وعلى الرغم من ضخامة المشروع، وحرص الفخري على إيجاد مساحات واسعة للسكن في مدينة آخذة بالنمو المطرد، إلا أنه كان يدرك ، في الوقت نفسه، أهمية الحفاظ على البيئة الزراعية المحيطة ببغداد من أن يبددها العمران، فتفقد المدينة الرئة التي تنقي أجواءها من التلويث البيئي المنتظر. لذا فقد اهتم اهتماما واسعا بالإبقاء على عدد كبير من بساتين النخيل المحيطة ببغداد، وحرص على عدم اقتلاع هذه الشجرة المباركة بكل سبيل، حتى كانت" مشكلة النخيل" كما سماها هو، واحدة من أبرز المشاكل التي أثارت نزاعا بينه وبين مؤسسات أخرى، وفي هذا يقول" لم يكن القانون معي في عدم قلع النخيل وتحويل المساحات المزروعة إلى أرض سكنية، فقررت تخصيص مساحات من تلك الأراضي بحجة أنها حدائق عامة، ولابد من عدم إتلاف الأشجار أو قلعها، ومن بينها النخيل طبعا، وكنموذج لهذه المناطق ما تجده في أطراف مدينة الكاظمية، إذ ظلت أشجارها باسقة ونخيلها عامرا حتى الآن"[١٢].

---

[١٢] فخري الفخري : حديث أدلى به إلى محرر جريدة (العراق)،، العدد ٥٢٦٣، ١٨ حزيران ١٩٩٣

وفي تقرير رسمي يصف أهمية هذا المشروع بقوله" لقد عنينا ، أكثر ما عنينا، منذ اليوم الأول، بإعداد تصميم لنمو بغداد العمراني، بحيث تغدو بمقتضاه في المستقبل القريب من أجمل وأكبر مدن الشرق الأوسط وأحسنها تنظيما".

وردا على بعض المتشككين بأهمية المشروع، يقول" وقد تم إعداد هذا التصميم، ولكن قليلاً من الناس من يعرف ماهيته ومدى أهميته..إنه خريطة كاملة لما يجب أن تكون عليه مدينة بغداد بعد خمس عشر سنة أو عشرين سنة.. وهذا التصميم يحدد مواقع دور السكنى والحدائق والمتنزهات والمدارس والمدينة الجامعية والمصانع والمعامل والجسور ودور الحكومة والمركز المدني وغير ذلك.. وهو ليس حبرا على ورق بل هو مشروع بدئ العمل به فعلا بالمدينة الجامعية[١٣] والمركز المدني شوع الاستملاك لأغراض إنشائهما"[١٤]

كما عني أيضا بمشكلة توفير السكن المناسب لذوي الدخل المحدود، وهي مشكلة أخذت تطل برأسها حينذاك، وإن لم تبلغ حدا خطيرا، فكان الفخري ينظر إليها بعين المستقبل فيرى ضرورة العمل على حلها تباعا قبل أن تستفحل. ففي دراسته التي تقدم بها غلى مؤتمر المهندسين العرب الثالث في دمشق سنة ١٩٤٧ بعنوان " أزمة السكن في بغداد وعلاجها" تناول الأسباب التاريخية لأزمة السكن في هذه المدينة، مقسما إياها إلى مجموعتين من العوامل، عوامل طبيعية تتلخص في ارتفاع المستوى الثقافي والاجتماعي بعد الحرب العالمية الأولى مما خلق الرغبة والتطلع لسكنى دور عصرية، وانقسام الأسرة الكبيرة التي تشترك

---

[١٣] يقصد بالمدينة الجامعية منشآت جامعة بغداد في الجادرية.

[١٤] تقرير رسمي مرفوع إلى " أصحاب السعادة رئيس وأعضاء اللجنة المحترمين" مطبوع على الآلة الكاتبة، في آرشيف الفخري الشخصي.

في مسكن واحد إلى أسر عدة لكل منها مسكنها الخاص، وفي ازدياد عدد سكان بغداد، وإزالة وهدم مساكن عديدة في المدينة القديمة لتيسير النقل والمواصلات ولتحسين الوضع الصحي، أما المجموعة الأخرى من العوامل، فقد أجملها في حصول نقص بالغ في عدد الدور المنشأة بسبب قيام الحرب العالمية الثانية، وفي قلة المواد الإنشائية، وارتفاع أسعار الأرض والمواد الإنشائية والعمل، وكانت مقترحاته تتلخص في تأليف الشركات التجارية للأراضي والبناء، وتيسير الأراضي الوقفية والأميرية، وإصدار التشريعات التي تساعد على البناء، وتخفيض أسعار المواد الإنشائية، وتوسيع المساحة الصالحة للبناء بتوصيل الطرق المبلطة وتوريد الماء والكهرباء إلى أراض خالية نائية، وإنشاء جمعيات السكن التي هي "ثمرة من الثمار الطيبة التي أتى بها التعاون بين أفراد الشعب والحكومة لحل أزمة السكن في البلاد الناهضة"، وذلك مثل جمعيات سكن العمال، وجمعيات سكن تعاونية وغير ذلك"[١٥].

وفي سنة ١٩٥٣ تقدم الفخري، وكان يومذاك رئيسا للهيئة الفنية الثانية في وزارة الإعمار، بدراسة مفصلة إلى المجلس، طالب فيها بإنشاء دور للموظفين، بوصفهم من ذوي الدخل المحدود. وقال في دراسته " إن مشكلة دور الموظفين ما هي إلا جزء من المشكلة الأساسية العامة، وهي أزمة السكن، وإن كان الموظف وذوي الدخل المحدود هم أضعف فرائسها. إن مما لا شك فيه أن شدة هذه الأزمة تختلف درجاتها من لواء إلى آخر، وقد تكون الأزمة في مدينة ما من المدن العراقية أشد حدة من سواها، لكن المعالجة أينما وجدت الحاجة لها يجب أن تكون على كل حال معالجة أساسية ، ويجب أن تتناول الموضوع الأساسي وهو أزمة السكنى

---

[١٥] المؤتمر الهندسي الثالث، دمشق ٨-١١ أيلول ١٩٤٧، مجموعة أبحاث المؤتمر، لجنة المسكن الصحي رقم ١٠.

بصورة عامة لتكون فعالة ومثمرة فتشمل الموظف وغير الموظف أينما كان". ورأى أن تأسيس مجلس الإعمار، الذي يستطيع بمقتضى قوانينه أن يقرض مالا لمختلف المؤسسات بفائدة قليلة، يمثل " ظرفا مثاليا ملائما لحلها (أي حل مشكلة السكن) ومساعدا على استخدام عناصر جديدة في الميدان كالأفراد أنفسهم والجمعيات والهيئات واستغلال قابليات هذه الجهات إلى أقصى الحدود في حل هذه المشكلة المستعصية، وذلك عن طريق إقراض مجلس الإعمار البنك العقاري مبلغا من المال بين ١٠٠٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠٠٠ بفائدة قليلة ، ولنقل بين ½ % و ١% لغرض إقراضها بدوره إلى الجهات التالية:

١- الأفراد لإنشاء دور لأنفسهم
٢- جمعيات السكن بمختلف أنماطها
٣- شركات البناء
٤- المؤسسات شبه الحكومية
٥- أصحاب المصانع والمعامل والمزارع وسواهم لإنشاء دور لعمالهم

لتتكاتف بمجموعها على حل هذه المشكلة المستعصية"

وقد انتهت الدراسة إلى وضع عدة مقترحات لحل هذه المشكلة، يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١- أن يكون البنك العقاري الواسطة (وهو بالفعل كذلك) التي تقوم عن الجهة الرسمية بإقراض وإسداء المساعدات لمختلف الأفراد والهيئات المعلومة من شركات بناء وجمعيات سكنى ومؤسسات، على أن يجري اقراضه من مجلس الإعمار مبلغا مناسبا وبشروط تتفاوت من حيث السهولة وتتناسب مع أهداف المشاريع المقام بها من قبل مختلف الهيئات.

٢- أن تتقلص فعالية الدوائر الحكومية في إنشاء الدور إلى أدنى حد ممكن وأن يعتمد على النشاط الذس يبذله الأفراد ومختلف الهيئات المارة الذكر بمساعدة البنك العقاري ماليا، على أن تقدم الحكومة الاعفاءات من بعض الرسوم والضرائب وتوزيع بعض الأراضي الأميرية والوقفية بأثمان مناسبة وسن القوانين المشجعة..

٣- إن قيام البنك العقاري بإقراض مبالغ بفائدة قليلة قد ساعد ويساعد إلى حد كبير على تنشيط التشبث الفردي، وهو عامل أصلي في إنشاء الدور ويجب تشجيعه لما يمتاز به من مزايا طيبة من شأنها أن تضمن انطباق الدار على الحاجة وموافقتها لذوق شاغل الدار من حيث الطراز وانجازها بكلفة قليلة لحرص الفرد على ماله .

وفضلا عن ذلك، فقد دعا الفخري في دراسته، ربما لأول مرة ، إلى طرق جديدة غير معهودة عهد ذاك في البناء، مثل استخدام طريقة تصنيع البناء، واستعمال الدور الجاهزة، أو بعض أقسام هذه الدور.فكانت تلك أول دعوة علمية لاستخدام طريقة (البناء الجاهز) كما عرفت بعد عدة عقود من السنين.

وكانت الطرق أكثر هموم الفخري، ذلك أن العراق كان في حاجة مطردة من الطرق الحديثة المعبدة بعد أن افتقدتها البلاد في العهود الماضية، ولم يكن ما هو موجود منها كاف فعلا لسد تلك الحاجة، نظرا لارتفاع كلف إنشاء هذا النوع من المشاريع فضلا عن عدم توفر الخبرات الفنية الكافية. ولذا فقد أعد دراسة استندت إلى معطيات مختبر التربة العائد إلى شركة (ومبي)، إحدى الشركات الأجنبية العاملة في العراق آنذاك، حول" الطرق المتبعة حاليا في إنشاء الطرق في العراق ونتائجها"،

وقد وصفت تلك الدراسة طبيعة الأرضية السفلى في العراق، واقترحت أنواع التبليط فيها بحسب تنوع التربة، كلسية، أو طينية، وبحسب نوع ما تجري عليه من مركبات وأثقال، فثمة تبليط بالسيالي (القير السائل) وثان بالأسفلت، وثالث بالأسفلت المخلوط بالرمل أو الحصى، وآخر بالكونكريت المسلح[16]، فكانت هذه الدراسة أول تأسيس علمي لتعبيد الطرق في العراق، بعد أن كان الأمر يجري في السابق اعتمادا على تجارب محلية تعوزها الدقة العلمية.

لقد كان (فخري الفخري) رائدا في معظم ما قام به أعمال، أراد بها نفع مواطنيه، والارتقاء بوطنه، ولم يصرفه شاغل عن العمل الدائب في هذا السبيل، كما لم يحبط اعتقاله وإحالته على التقاعد سنة ١٩٥٨ همته عن الاستمرار في عمله الهندسي بكل نشاط ودأب، فلم يغادر العراق، ولم ينعزل عن زملائه، ولم يبخل على أحد بخبرته، ولم يدع لليأس مجالا إلى قلبه، بل لبث مكتبه الهندسي الاستشاري موئلا للعديد من المهندسين المحنكين، والمهندسين الشباب، على حد سواء، فكان بذلك أنموذجا حيا لهمة لا تعرف الفتور، وصبر لا تحده الحدود، وإخلاص للمهنة، وحب للوطن.

وفي اليوم العاشر من شهر حزيران سنة ١٩٩٥ تجمهر الناس، في موقف كئيب، ليلقوا النظرة الأخيرة على جثمان ذلك المهندس الذي توفي في ذلك اليوم، بعد عمر ناهز السابعة والثمانين عاما، وأكثرهم لا يعلم ما كان لهذا الرجل من دور بارز في تحديث بغداد ومنحها سمات وجهها العصري الجديد.

---

[16] مذكرة حول الطرق المتبعة حاليا في إنشاء الطرق في العراق ونتائجها، لإطلاع الراغبين من المتعهدين. محفوظة في أرشيفه الشخصي.

كان الفخري – رحمه الله- قد سجل في أخريات حياته مذكراته عما شاهده من أحداث، وشارك به من أعمال، في أثناء حياته العملية في مجال الهندسة المدنية، ثم أضاف إليها فيما بعد ذكرياته عن الحياة في مدينته الموصل كما عاشها في طفولته وصباه، وتتبعاته في تاريخ أسرته وهي إحدى أكثر الأسر قدما وشرفا في مدينته، فغدت هذه المذكرات ضامة لفوائد متنوعة من التاريخ والتراث ، فضلا عن حكايتها لجوانب مهمة، أكثرها نسي، من قصة تطور العراق المعاصر، وتسجيلها لجهود الرجال المخلصين الذين أسهموا في بنائه، وكانوا الرواد الأوائل لكثير من مجالات نموه وتقدمه.

وقد أسعفني الحظ أن أطلع على هذه المذكرات، لدى أسرته في بغداد، فوجدتها حرية بالنشر، وأستأذنت أسرته في ذلك فأذنت، بل أمدتني بمحتويات آرشيفه الشخصي، وهو يضم مجموعة كبيرة من الوثائق والمذكرات الرسمية والتقارير الفنية والصور التذكارية، فكان هذا التراث الشخصي حافزا لي على المضي في العمل، وبخاصة عند كتابة الدراسة الخاصة بحياة صاحب هذه المذكرات ، ولكني لم أشأ التوسع في التعليق على النص الذي كتبه بقلمه، إلا بما هو ضروري، فجميع ما يراه القارئ الكريم من تعليقات موضحة هو لي، وعلي تقع تبعته.

ولابد لي أخيرا أن أتقدم بالشكر إلى أسرة السيد فخري الفخري، على ما أسدته من عون، وما أظهرته من حرص على تراثه الشخصي .

وليس لي من بعد ذلك إلا أن أستنزل شآبيب الرحمة والغفران على روح الفخري نفسه، جزاء ما قام به من عمل، وما أبداه من إخلاص، والله من وراء القصد.

عماد عبد السلام رؤوف

٣٠ تموز ٢٠٠١

المذكرات

أسرتنا

إن أول من قدم الموصل من أجدادنا هو السيد محمد أبو البركات سنة ٤٣٠ هـ من الكوفة. وتوجد عدة آراء حول سبب مجيئه من الكوفة إلى الموصل، وأكثرها قبولا أن سكان الموصل كانوا من المسيحيين بينما كانت الحكومة مسلمة، وأرادت السلطات الحكومية ايجاد توازن في الديانات لطبقات سكان الموصل فاستقدم إليها. والسيد محمد أبو البركات هو ابن زيد ضياء الدين أمير الكوفة، وزيد ضياء الدين هو ابن النقيب الرئيس أحمد[1] أمير الكوفة أيضا. ونقلا عن النسابة محمد بن عبد الحميد: ان الرئيس أحمد حج بالحجيج سنين متوالية، وكان كريما جوادا، وهب في يوم واحد أربعة وعشرين فرسا، نقلا عن الشريف محمد بن عبد السميع الهاشمي النسابة[2]. وهو أعني الخليفة بوصية منه، ولد سنة ٤١١ هـ وتوفي سنة ٤٧٠ هـ، ودفن إلى جانب أحمد بن حنبل[3]، وهو ابن الأمير الكبير محمد الأشتر (محمد أبو الحسن) أمير الكوفة ونقيبها، وأمير الحج.

---

[1] كذا في الأصل، وفي بحر الأنساب الذي ينقل منه، الورقة ٦٢ (كمال الشرف محمد أبو طاهر الملقب برطبية، ذو المفاخر - رحمه الله تعالى - ولي نقابة الموصل وديار بكر ، أمه ست الشرف بنت أحمد بن محمد المدني الهاشمي، خاله شجاع الدين ، كان في سفر، وقد وعد أصحابه يوم يصل إلى المدينة يأتي إليهم برطب، فأبطأ عليهم، فلقب برطبية).

[2] هذه النقول من بحر النساب أيضا.

[3] قبره ببغداد في مقابر باب حرب في الشمال الغربي من قصبة الكاظمية، وهي التي ... فت بقاياها في العهود المتأخرة بمقبرة (الهبنة).

لُقّب بالأشتر لضربة في وجهه ضربه بها غلام الزيدي، ومدحه أبو الطيب المتنبي بقصيدة، جاء فيها[4]:

مرتميات بنا إلى ابــــن عبيـــــــد الله غيطانُـــها وفَدْفَدُهـــــا
إلى فتى يُصدر الرّماح وقـــد أنهلَها فـــي القلـــوب موردهـــا
لـــه أيـــادٍ إلــــيَّ ســـــابقةٌ أعـــدّ منـــــها ولا أُعدّدُهـــــا
يُعطي فـــلا مَطْلـــةٌ يكدّرُهـــا بـــــها ولا مَنّـــــةٌ يُنكِدُهـــــا
خير قريـــــش أبـــا وأمجَدُهـــا أكثرهـــا نـــــائلاً وأجودُهـــــا
أطعنـــها بالقَنـــاة أضربَـــــهُا بالسيف جحجاحـــها مســـوّدها
أفرَسُـــها فارســـاً وأطولُـــــها باعـــاً ومغوارهـــا وســــيدها
تاجُ لؤيٍ بـــن غـــالب وبِـــه سما لــــها فرعُـــها ومَحْتِدهـــا
شمسُ ضحاها هـــلالُ ليلتـــها دُرُ تقاصيرهـــــا زبَرْجدُهـــــا
يا ليتَ بي ضربةً أُتيـــح لـــها كمـــا أتيحـــت لـــه مُحمَّدُهـــا
أثر فيها وفـــي الحديـــد ومـــا أثّـــر فـــي وجهـــه مـــهندها
فـــاغتبطت إذ رأت تزينــــها بمثلـــه والجـــراح تحســـــدها
وأيقـــن النـــاس أن زارعـــها بالمكر في قلبـــه ســـيحصدها
أصبـــح حســـاده وأنفســــهم يحذرهـــا خوفـــه ويصعدهـــا
تبكي على الأنصل الغمـــد وإذا أنذرهـــــا أنــــه يجردهــــا
لعلمـــها أنـــها تصـــير دمـــا وأنـــه فـــي الرقـــاب يغمدهـــا
أطلقها فـــالعدو مـــن جـــزع يذمـــها والصديـــق يحمدهـــا
تنقدح النـــار مـــن مضاربـــها وصب ماء الرقـــاب يخمدهـــا
إذا أضـــل الـــهمام مهجتـــــه يومـــا فأطرافـــهن تنشـــــدها
قد أجمعت هذه الخليقـــة لـــي أنك يـــا بـــن النبـــي أوحدهـــا
وانك بـــالأمس كنـــت محتلمـــا شـــيخ معـــد وأنـــت أمردهـــا

---

[4] الديوان بشرح ناصيف اليازجي ص ٣-٧.

وكـم وكـم نِعمـة مُجلّلـة | ربَّيتـها كـان منـك مولدهـا
وكم كم حاجـةٍ سـمحت بـها | أقـرَبُ منـي إلـىَّ موعدهـا
ومَكرُمات مشت علـى قدم الـ | ـبر إلـى منزلي تُرَدِّدُهـا
أقرُّ جِلـدي بـها علـي فـلا | أقدِر حتـى الممـات أجحَدُهـا
فعـد بـها لا عدمتـها أبـدا | خير صلات الكريـم أعودهـا

كان الأمير محمد كريما شجاعا فاضلا عالما ذا مروءة. قال السيد عبد الحميد النسابة: كان من ذوي الأقدار المعظمة، حج بالناس من سنة ٣٤٤ إلى ٣٤٩ وتوفي سنة ٣٥٠هـ.

والقصيدة منشورة في ديوان إلى الطيب المتنبي (١-٢) (ص٢٩٤) بشرح أبي البقاء العكبري المسمى (بالتبيان في شرح الديوان).

وقصة الضربة أن محمدا الأشتر كان قد خرج لتأديب قوم من العرب في الغرب من الكوفة، وهو شاب دون العشرين من العمر، فقتل منهم جماعة، وجرح في وجهه فاكسبته الضربة حسنا في وجهه، وتمنى أبو الطيب مثل ضربته.

ومحمد الأشتر هو ابن عبيد الله الثالث بن علي المحدث أبي الحسن بن عبد الله الثاني (أمه أم سلمة بنت عبد الله بن الحسين الأصغر) ابن الزوج الصالح علي أبي الحسن، وكان الامام الرضا يقول للواردين من الكوفة: كيف تركتم الصالح علي بن عبيد الله ؟ وهو يعني ابن (عبيد الله الاعرج) الذي تنتمي إليه كافة سادات الموصل. ويقول السيد العالم محمد بن الحسين بن عبد الحميد النسابة: كان عبيد الله من ذوي الأقدار والرئاسة، وسبب عرجه أن أبا مسلم الخرساني كان قد دعاه إلى الأمر قبل استخلاف أبي العباس السفاح، فأبى، وألح، فسقط عبد الله متراجعا من سطح دار كان عليها لم تكن محاطة بجدران ستائر. فلما أفضى الأمر إلى السفاح أقطعه ضيعة بالمدائن يقال لها (بندشير)، تغل في كل سنة ثمانين

ألف دينار كان عبيد الله يفرقها في أهله الضعفاء بالحجاز ولا يمسك درهما. وكان أهل العراق يقولون السماء [لله] والارض لبني عبيد الله.
وعبيد الله الأعرج هو ابن الحسين الأصغر ابن سيد التابعين الامام الهمام علي زين العابدين ابن سيد الشهداء وأحد ريحانتي فخر الأنبياء سيدنا الحسين رضي الله عنه، السبط، ابن ليث المشارق والمغارب، أسد الله الغالب، أمير المؤمنين علي (كرم الله وجهه) بن أبي طالب، وابن زوجه الزهراء البتول سيدة النساء فاطمة (عليها السلام) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيما تقدم تتبعنا تسلسل آباء واجداد أول من قدم إلى الموصل من أجداد السادات الموصليين، وهو السيد محمد ابو البركات، مع بعض أخبارهم، صعودا حتى وصلنا إلى المنبع الاصلي وهو سيد الشهداء الحسين بن فاطمة الزهراء بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزوجة الامام علي كرم الله وجهه.

والآن نحاول ان نتتبع تسلسل ذريته من بعد مجيئه إلى الموصل نزولا إلى يومنا هذا فنقول:

محمد أبو البركات[*] . هو أبو
محمد كمال الشرف. أبو
طاهر ذي المفاخر. أبو
زيد ضياء الدين. أبو
محمد شرف الدين. أبو
زيد ضياء الدين . أبو

---

[*] بحر الأنساب الورقة ٥٤.

محمد مجد الدين نقيب الاشراف صاحب المنزلة الرفيعة عند الخليفة المستنصر[6] (أمه [خديجة][7] حفيدة علي بن الحسن حيدرة العلوي النسابة)، وهو أبو

زيد ضياء الدين (الولي النقيب المرتضى الأعظم ملك السادات والنقباء تاج آل رسول الله (ص)، تولى نقابة الاشراف في الموصل وأعمالها وديار بكر، وأمه بنت الوزير ابن الأثير الموصلي[8].

شرف الدين (أبو إبراهيم عز الدين) السيد العالم الفاضل ملك ملوك السادات والنقباء المرتضى الأعظم (٦٤٥- ٧٢٥).

إبراهيم (أبو اسحق) عز الدين المولى النقيب الطاهر، ملك السادات والنقباء المرتضى الأعظم، نقيب الأشراف بالموصل وديار بكر، مولده ٦٦٥ – وتوفي ٧٠٨ بالموصل، ودفن في مشهد عون الدين.

أحمد محي الدين (نقيب الموصل وديار بكر كافة) مولده الكريم سنة ٧٠٧ وتوفي ٧٦٤ ودفن في مقام الامام عون الدين عند جده النقيب شرف الدين[9].

عبيد الله (أبي المحامد) نصير الدين مولده سنة ٧١٦ هـ وتوفي في سنة ٨٠٢هـ، النقيب الطاهر نقيب الموصل وديار بكر. كان زاهدا عالما عائدا كريما حليما فاضلا صاحب المنزلة الرفيعة عند الملوك

---

[6] الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور المستنصر بن الظاهر، تولى الخلافة سنة ٦٢٣ وتوفي سنة ٦٤٠هـ.

[7] الزيادة من بحر الأنساب، وعمدة الطالب ص ٣٢٤.

[8] هو نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، ضياء الدين، ولد سنة ٥٥٨هـ، واستوزره الملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي في مملكة دمشق، وتوفي في بغداد سنة ٦٣٧هـ.

[9] بحر الأنساب الورقة ٥٠.

والسلاطين والخاصة والعامة، ولما وصل الأمير (تيمور خان) والد الأمير شاه رخ إلى الموصل سنة ٧٤٦، وكان غرضه خراب الموصل وأخذ من فيها، تشفع بأهل الموصل، فقبل الأمير شفاعته، وأطلق أهل الموصل لأجل خاطره، وأنعم عليه [مالا] جزيلا، وقام قدامه وأقعده معه على فراشه، وأعطاه عشرة الآف كبكي[10] لأجل عمارة النبي يونس. وهو أبو حسن ركن الدين (ابو محمد) نقيب الموصل وحصن كيفا وديار بكر، المولى النقيب الطاهر الأعظم الامام العلامة. وهو الذي أعد نسبنا سنة ٨١٥ هـ، ومولده سنة ٧٩٥. له منزلة عظيمة عند الملوك والسلاطين خصوصا عند الملك سلطان الشرق الأمير (زاد شاه رخ) ثم عند المولى الملك سلطان حصن كيفا[11].

---

[10] في بحر الأنساب (تنكة شاروخية).

[11] في بحر الأنساب الورقة ٤٨ ترجمة للحسن ركن الدين مؤلفه يظهر أنها أضيفت الى الكتاب من بعده، نصها" المولى السيد العالم العامل، الفاضل الكامل، ملك السادة الأشراف، خلاصة آل عبد مناف، المرتضى الأعظم، الكبير القدر، الرفيع الذكر.. صاحب المنزلة الرفيعة عند الملوك والسلاطين ، خصوصا عند المالك الشرق تاج الملوك ميرزا شاه روخ بهادر تغمده الله برحمته، فنال منه العناية العظيمة، وكذلك حصل له العزة العظيمة عند السلطان جهان شاه رحمه الله ، ثم عند المرحوم المغفور المبرور الشهيد الملك الكامل، ثم عند المرحوم السعيد جهانكير بهادر نور الله مرقده، ثم عند السلطان الأعظم، مالك رقاب الأمم ، سلطان سلاطين العرب والعجم، المرحوم حسن بك قدس الله روحه. ولي نقابة الموصل وديار بكر ، وسار السيرة الحميدة وله تصانيف كثيرة في الشعر وغيره، .. مولده الكريم يوم السبت أول جمادى الأول قبل الظهر سنة خمس وتسعين وسبعمائة بالموصل، وتوفى إلى ربه وشفاعة جده يوم السادس عشر من رمضان الواقع في سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة، ودفن في تربة والده المرحوم السعيد في جوار الإمام عون الدين رضي الله عنه".

لقد بينت -فيما سبق- أني طالعت كتاب بحر الأنساب، فاتضح لي أن جدنا حسن ركن الدين كان متضلعا بعلم الأنساب والشعوب[12].

وقد بدأ كتابه بشرح مبادئ علم الانساب شرحا يدل على تضلعه من هذا الباب، فإن لم يكن نسابة فإنه واسع الأطلاع في علم الأنساب. لقد شرح في مقدمته[13] طريقة العرب في تقسيم الشعوب إلى طبقات عشر: هي (١) جذم النسب (٢) الجمهور (٣) الشعوب (٤) القبيلة (٥) العماير (٦) البطون (٧) الأفخاذ (٨) العشاير (وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء). (٩) الفصايل (١٠) العشيرة (وهم رهط الرجل وأسرته بمنزلة أصابع القدم). وهناك تقسيم آخر متبع مبنى على أساس من أربع طبقات: خندفي، وقيسي ونزارى، ويمنى. ولذلك فإننا عندما نستند إلى بحر الانساب الذي أعده جدنا الأقدم حسن ركن الدين إنما نركن إلى مرجع أعده [ذو] اختصاص متضلع ومطلع، وليس ذلك فحسب، وإنما من صنع فاضل عالم هو من صلب القوم، ومطلع تمام الاطلاع على ارتباطات وتشعبات العوائل التي يتألف القوم منها، ولذلك يسعني القول بأنه لا يمكن أن تتوفو الدقة في أي نسب آخر لم يعد مثل هذا الاعداد.

وحسن ركن الدين هو أبو:

محمد نصير الدين، والاخير هو الجد الذي تجتمع عنده كافة أفخاذ السادات الموصليين، ولد بالحصن في ٨٤٥[14]، [وتوفي في أواسط] وهو أبو:

---

[12] ذكر في بحر الأنساب أن له كتابا آخر في علم النسب، عنوانه" اللؤلؤ المصرفي في مناقب آل نبي".

[13] الأوراق ٥-٨.

[14] بحر الأنساب الورقة ٤٦.

عبد الغفار أبو جعفر، العالم الفاضل الصالح العابد الزاهد صـــاحب المنزلة العظيمة عند الملوك والسلاطين، مولده الكريم سنة ٨٨١ وهو أبو [محمد] شمس الدين الباهر، وكان عالما زاهدا عابدا صالحـا صـاحب المنزلة العظيمة عند الملوك والسلاطين، مولده سنة ٩٢٢ هـــــ، ودفـن جوار الأمام محمد الباهر -عليه وعلي جده أفضل الصلوات. وفي شـمس الدين الباهر يتصل السادات العبيديون بالسادات الفخريين، فـهما إذن أولاد عم، فشمس الدين هو أبو داود جد العبيديين[٥١]، وفي نفس الوقت هو أبـــو فخر الدين الكبير الذي تنسب إليه السادات الفخريين.

وشمس الدين الباهر الذي نجتمع، نحن والعبيديون به، هـــو أبــو مساعد فخر الدين الكبير. والآخير هو الجد الذي تنتســب إليــه الأســرة الفخرية، وكان أديبا وشاعرا كاملا وكاتبا عارفا. مولـــده الكريـم سـنة ٩٨٨هـــ. وهو أبو السيد يحيى.

السيد يحيى: نقيب الموصل صاحب الخصائل الحميدة والفضـــائل العديدة، وكان جوادا سليم الصدر عظيم القدر. مولـــده الشـريف ١٠٤٣ وتوفى ١١٠٦ ودفن في جوار مرقد الامام عبد الرحمن، وهو أبـو فخـر الدين الصغير.

فخر الدين الصغير: كان رحمه الله نقيبـا فـي الموصـل زاهـدا متورعا، متضلعا بالعلوم العقلية والنقلية والمعارف الشـــعرية والأدبيـة،

---

[٥١] لتوضيح ما أورده المؤلف رحمه الله نقول: إن داود هذا لــه ابراهيـم، وللأخـير إسماعيل، ولإسماعيل علي، ولعلي خليل البصير ودرويش، فالبصير هو أبو عبيـد الله وهو الذي عرفت ذريته بآل العبيدي، ومنهم من عرف بـــآل حـافظ، وأمـا درويش فله محمد، ولمحمد إسماعيل، وللأخير ذرية عرفت بآل الأعرجـــي، وآل القاضي، فهؤلاء جميعا أولاد عمومة لآل الفخري الذي سيتكلم عنهم المؤلف فيمـا يأتي.

حسن الخط بأنواعه، صاحب الأخلاق المرضية، والنفس الزكية، والمرتبة العلية عند الوزراء والأكابر، مولده الكريم سنة ١٠٨٣هـ وتوفي سنة ١١٣٢.[١٦] وهو أبو كل من:

السيد حامد افندي مولده الكريم ١١١٨.

والسيد عبد الله[١٧] كاتب ديوان الانشاء مولده ١١١٦ وتوفي ١١٨٨.

والسيد يحيى افندي[١٨] أبي الفتاوى مولده ١١١٢ ووفاته في سنة ١١٨٧.

---

[١٦] ترجم له عصام الدين عثمان العمري في الروض النضر ج١ ص ٢٥٥، وأثبت له أبياتا تدل على شاعريته، وأضاف محمد أمين العمري في ترجمته له (منهل الأولياء ج١ ص ٢٣٩) أن له" معرفة واطلاع كلي على المعقول والمنقول" ، وذكر المرادي (سلك الدرر ج٤ ص ٢٣٣) أنه" كان يتعاطى الشعر والإنشاء بالتركية والفارسية، وله شعر جامع في الكتب والمجامع".

[١٧] هو العلامة الأديب عبد الله الفخري الموصلي، ولد في الموصل، وبها نشأ ودرس على كبار شيوخها، أسند إليه الحاج حسين باشا الجليلي ديوان الإنساء، ثم انتقل من الموصل إلى بغداد، والتحق بواليها أحمد باشا فقربه وأكرمه، وفي عهد خلفه سليمان باشا الأول (أبي ليلة) أسند إليه ديوان الإنشاء ببغداد، فلبث يتولاه حتى وفاته. وله مؤلفات قيمة، منها (شرح رسالة البهاء العاملي) و(سوانح القريحة في شرح الصفيحة) في الاسطرلاب، و(حاشية على الجغميني) و(مجموعته الأدبية). ينظر منهل الأولياء ج١ ص ٢٤١و ياسين العمري: غاية المرام ٣٥٥- ٣٥٧ والروض النضر ج١ ص ٢٦٢ وزبدة الآثار الجلية ص ٩٣ والبغدادي: هدية العارفين ج١ ص ٤٨٤ والصائغ: تاريخ الموصل ج٢ ص ١٨٧ وغير ذلك.

[١٨] هو العلامة يحيى أفندي المفتي، ولد في الموصل ، ودرس – مثل أخيه- على كبار شيوخها، وحج، فالتقى بعلماء الشام والحرمين، واتسع جاهه، فكثرت صدقاته. ترجم له محمد أمين العمري (منهل الأولياء ج١ ص ٢٤٠) فكان مما قال" كان الزهد شعاره، والعفاف دثاره، والتقوى رأس ماله، ومكارم الأخلاق كسبه، في لين عريكة، وشفقة وافرة، ومحافظة على السنن الشرعية، مع مخالطة الملوك ومجانبة=

والسيد عابد.

أما السيد حامد أفندي فهو جد أسرتي الأقدم مباشرة، وأولاده كل من نعمان بك الذي انحدرنا منه. وهو واخوته أحمد أفندي[19] وسليمان أفندي كانوا قد سافروا جميعا إلى بغداد إلى عمهم عبد الله افندي كاتب ديوان الانشاء، وعاد أحمد افندي مفتيا لمدينة الموصل، وهو الذي ترجم إلى اللغة العربية من اللغة التركية بتكليف من سعد الله بك[20] بن حسين باشا الجليلي كتاب (جامع الأنوار في مناقب الأبرار الأخيار) لمؤلفه المعروف بنظمي زاده مرتضى أفندي في أحوال الأولياء[21]، وعلى منواله كلف أمين العمري بتأليف كتابه (منهل الأولياء)[22]

= كل ما يريب". وكانت الفتوى قد وجهت إليه سنة ١١٤٣، ثم أخذت منه، ثم أعيدت إليه. ينظر المرادي (سلك الدرر ج٤ ص ٢٣٣) والعمري (الروض النضر ج١ ص ٢٥٧).

[19] ترجم له ياسين العمري (غاية المرام ص ٣٥٧) فذكر أنه سافر إلى بغداد في زمن تولي عمه عبد الله الفخري ديوان الإنشاء، ثم عاد إلى الموصل، وولي الإفتاء فيها سنة ١٢٠٣، ولبث كذلك حتى وفاته سنة ١٢١٩هـ. وذكر محمد أمين العمري (منهل الأولياء ج١ ص ٢٤٦) أنه ولي نيابة الفتوى بعد وفاة أبيه السيد يحيى، ثم تولى الإفتاء سنة ١٢٠٢. وقال" له شعر لطيف لا يحضر منه شيئ، وله الباع الطويل في الفارسية نثرا ونظما".

[20] تولى سعد الله باشا الموصل من سنة ١٢٢٥- ١٢٢٧.

[21] حققه حميد مجيد هدو، باشرافنا، ونال به درجة الماجستير، من معهد التاريخ العربي ببغداد سنة ١٩٩٥.

[22] وعنوانه الكامل(منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء) ، وقد حققه سعيد الديوه جي، (مطبعة الجمهور، الموصل، ج١ ، ١٩٦٧، وج٢، ١٩٦٨).

زار أحمد افندي المذكور أعلاه قبر جده الامام علي البطل، ومدحه بقصيدة منها[23]:

أتينا نجوب البيد حثا على السير نؤم اغتراف الماء من ذلك البحر

لوينا عنان اليعملات لمشــــهد به قد ثوى كنز المكــارم والفخر

ونعمان بك بن السيد حامد الفخري، وهو الــذي -كمــا ســبق أن ذكرنا- قد انحدرنا منه ، كان قد سافر إلى بغداد واتصل بخدمة الوزيـــر سليمان باشا[24] إلى أن مات، ثم اتصل بخدمة الوزير علي باشـــا وتمــت نعمته، وكان له مقام في كل أدب، وفيه شجاعة وبراعة[25].

أما أخوه سليمان بك أفندي فكان من أجل أدباء عصره، سافر إلـــى بغداد أيضا واتصل بخدمة الوزير سليمان الثاني[26]، وتقدم عنده وولاه على أوقاف الحرمين في الموصل، ولهذا الفاضل شعر رائق[27] :

بك الموصل الحدباء باهت بلادها وكم ذا أياد منك أرعــت ورادها

وان تكثر الحساد فهذا عنــادهــا حلفت بمــن سوى السماء وشادها

ومن مرج البحرين يلتقيان

وهكذا أخوه حامد أفندي.

[وبالجملة] فقد طبقت شهرتهم الآفاق، فمعارفهم وعلومهم موسوعية، فإلى جانب التضلع بعلوم اللغة شعرا ونـــثرا، وعلــوم القــرآن والديــن والشرائع، كان يحيى افندي أبي الفتاوى له خبرة واســـعة بالاســطرلاب

---

[23] ذكر هذه الحادثة ياسين العمري (غاية المرام ص ٣٥٧).

[24] هو سليمان باشا المشهور بأبي ليلة، والي بغداد من ١١٦٢ إلى ١١٧٥هـ.

[25] هذه الترجمة منقولة من غاية المرام ص ٣٦١.

[26] هو سليمان باشا المعروف بـ(بيوك) أي الكبير، والي بغـــداد مــن ١١٩٣ إلـــى ١٢١٧هـ.

[27] غاية المرام ص ٣٦٠.

والربع المجيب. وكذلك عبد الله افندي كاتب ديوان الانشاء كان هو أيضا بارعا في الاسطرلاب. ولقد اطلعت على كتابه (سوانح القريحة في شرح الصفيحة) فأكبرت معلوماته[28]، كما وقد شرح رسالة بهاء [الدين] العاملي في علم الهيئة. وله تصانيف أخرى مذكورة في الكتب التي ترجمت لحياته وهي عديدة.

وليحيى أفندي كتاب كبير في الإفتاء اسمه فتاوى يحيى أفندي، منه نسخة موجودة في خزانة الشيخ محمد نوري الفخري[29]، وأما شعره ونثره فالكتب المذكورة في صحيفة المصادر كشمامة العنبر،والمرادي[30]، والعلم السامي[31]، وغاية المرام[32]، والموصل في العهد العثماني[33] للدكتور عماد عبد السلام، والروض النضر[34]، ومنهل الأولياء[35]، طافحة بها ولا حاجة

---

[28] من هذا الكتاب أربع نسخ في مكتبة الأوقاف ببغداد ، نسختان منهما بخط مؤلفه، كتب أولاهما سنة ١١٤٩هـ، والأخرى سنة ١١٧٠هـ. وقد حقق الكتاب وعلق عليه الدكتور صباح محمود محمد، وصدر عن مركز إحياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ، بغداد بلا تاريخ.

[29] وثمة نسخ أخرى منه في بعض خزائن الموصل. ينظر داود الجلبي: مخطوطات الموصل ص ٦٣ و ٢٣٩.

[30] سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ج٤ ص ٢٣٣.

[31] رؤوف الغلامي: العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي ، الموصل ١٩٤٢، ص١٨، و٢٩٩.

[32] ياسين العمري: غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص ٢٤٥

[33] النجف ١٩٧٥، ص٢٦٠ و ٥١١ و ٥١٤.

[34] عصام الدين عثمان العمري: الروض النضر في ترجمة أدباء العصر، بتحقيق سليم النعيمي ، بغداد ص١٩٧٤، صج١ ص ٢٥٧-٢٦١

[35] محمد أمين العمري: منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في سادات الموصل الحدباء، بتحقيق سعيد الديوه جي ، الموصل ١٩٦٨، ج١ ص ٢٣٩.

لذكرها وتكرارها. ولبث يحيى أفندي في الافتاء زهاء أربعين سنة واشتهر كثيرا، حتى أن نادر شاه عندما أراد غزو الموصل وجه كتابه ورسالة له لا لغيره لعظم قدره. والوالي حسين باشا الجليلي[٣٦] كلفه باعداد الجواب عليها، واتذكر أنه كان شديدا. أقول لا حاجة لتكرار ما ذكر في كتب الآخرين، إنما أريد أن أروي أن هذا الشخص الكريم لم يمنعه وقار العلم والمنزلة الدينية من أن يتصف بظرف الشعراء، فعندما طلب منه معاصره العلامة مؤلف شمامة العنبر تزويده باحدى قصائده ليزين بها مؤلفه واختار هو واحدة منها، بعث بها في اليوم الثاني بلغزين كما يروي محمد الغلامي نفسه.

في لغز (ماشة):

انظر من كون الأكوانا	وخلق الاشياء والألوانا
ألغز في كل الأمور فهوما	قلب هشام يحمل النيرانا

وفي لغز هدهد

ما اسم ذي روح غدا مستطرا	في الذكر يتلى ذكره بلا مرا
كان سفرا للنبي المرسل	مع ذاك فهو في عداد المهمل
فهو كأمرين وفيه وحده	حروفه اثنان بل أربعة
نصف أسمه تسع لدى كل الامم	وان عكست الرسم عشر في العجم
نظمته ملغزا للأدبا	من حله منهم ينال الطربا

وكتاب أو رسالة نادر شاه إلى يحيى افندي وجوابه عليها منشور في كتاب الدكتور عماد عبد السلام رؤوف(الموصل في العهد العثماني)[٣٧].

---

[٣٦] تولى الموصل ثماني مرات أولها سنة ١١٤٣ وآخرها ١١٧١-١١٧٢هـ، وهو بطل صمودها في اثناء حصار نادرشاه لها سنة ١١٥٦هـ.

[٣٧] الصفحات ٥١١-٥١٧.

أما أخوه عبد الله افندي (كاتب ديوان الانشــاء) -فكمــا سـبق أن ذكرت- عاصر أربعة ولاة في بغداد، وكان يحظى بثقتــهم واحترامــهم، وكان شاعرا عظيما وناثرا حلو الشخصية، ومآثره موجودة في المصـادر التي بينتها آنفا عند الكلام عن أخيه يحيى افندي، وبما أنه هو أيضا عايش غزو نادر شاه فقد ذكر أنه[38] قدم أولا إلى بغداد، وإن لم يتحرش بــها، إذ دفعه عنها ببراعة واليها أحمد باشا[39]، إذ قال له طالما في نيتــك غـزو الموصل فاذهب إلى هناك أولا، فإن نجحت فاني أسلمك بغداد بدون قتـال! وهكذا صرفه عن بغداد وعلم مصيره. ذلك أن عبدالله افندي كان على علم بكل تفاصيل الحادث إذ كان هو وابن عمه السيد خليل البصير[40] يتبـادلان الأراجيز أولا بأول، وهذه كلها موجودة في الروض النضر، ومن شــعره هذا النموذج، وهو من جملة قصيدة يمدح بها الوالي أحمد باشا، وكالعــادة فإنه أفرد قسما منها للتفاخر بنسبه إذ قال[41]:

وانا من العرب الكرام ذوي العلا	وفينا الهدى والمجد والعلم والشعر
وما ضم حب المال قط صدورنا	فأموالنا عبد وأعراضنا حــــر
أبى المجد الا أن نعيش بعـــزة	فإن لم يكن عزا فمختارنـــا القبر
وانا لفينا نخــوة عربيــــــة	وإنا لنا جد بــــه ينتهــي الفخر

---

[38] يريد نادر شاه.

[39] هو والي بغداد أحمد باشا بن واليها حسن باشا، تولاها من ١١٣٦ إلى ١١٤٧هـ.

[40] هو الأديب الشاعر خليل بن علي البصير، عرف بلقبه هذا لفقده نعمة البصر منـذ مبتدأ حياته، وعرف بالحافظ لحفظه القرآن كله، كان بارعا في الشعر في اللغـات الثلاث، العربية والتركية والفارسية، وله صلات واسعة مع مثقفي عصره، ومنـهم الصدر الأعظم محمد راغب باشا، وقد أهدى له منظومة من نظمه فــي أحـوال حروف الجر نشرناها في مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد ٢٥، السنة ١٩٧٤.

[41] ينظر الروض النضر ج١ ص ٢٩٣.

وقد ذكره صاحب معجم المؤلفين[42] فقال "أديب، فلكي، متكلم".

واما من نثره فرسالته التي كتبها من طرف والي بغداد سليمان باشا إلى شريف مكة سعيد بن مساعد بن الشريف مسعود بن ادريس معزيا بوفاة والده سنة ١١٤٠ ومهنئا بنفس الوقت بجلوسه مكانه، وهي منشورة بالروض النضر أيضا[43]. ومن نماذج نثره ما تخلل أرجوزته وأبياتها من نثر.

إن جميع الشعراء والمؤلفين الذين مدحوا وترجموا لأخيه يحيى أفندي أبى الفتاوى قد مدحوا وترجموا لعبد الله الفخري، وزيادة على ذلك فإن الشيخ كاظم الأزري قد مدح ورثى عبد الله الفخري وابنه أسعد افندي الفخري الذي حل مكانه في المنصب بعد تقاعده[44] .

كان لعبد الله أفندي الفخري ولدان، غير أسعد، هما فخر الدين وحسن وكلاهما توفيا في طاعون بغداد سنة ١١٨٧.

لقد دفن بعض أجدادنا الذين سكنوا في بغداد في [مقبرة] الشيخ عبد القادر الكيلاني، والبعض الآخر في مقبرة الشيخ جنيد. وقد زار والدي سنة ١٩٢٨م، عندما كان في المجلس النيابي نائبا عن مدينة الموصل، قبورهم في الشيخ عبد القادر الكيلاني.

وقد عثرت على قصيدة للسيد علي درويش في مدح عبد الله الفخري في (غاية المرام) هذا نصها:

لا تذهب العمر بين اللهو واللعب	ولا تذر ينقصني بالاكل والشرب
واترك منادمة الغيد الحسان ولا	تضيع الوقت في الأعواد والطرب

---

[42] هو عمر رضا كحالة، ينظر ج ٦ ص ١٠١.

[43] الروض النضر ج١ ص ٣٣٧-٣٤٤.

[44] في ص ٤٨٢ من مجموعة عبد الله الفخري الخطية (تاريخ الأدب العربي في العراق ج٢ ص ٢٨٣).

ولا تحلن إلا في ذرى شرف ولا ترم إلا أرفع الرتب

ولا تقيمن في حضن وساكنه يظل من دولة الأوغاد في الكرب

لا تركنن إلى خل وصاحبه واركب متون المذاكي الأنيق النجب

جب السباسب واجعل قوت يومك في مزاود العزم نبت الشيح والعشب

ولا تذل لمخلوق على طمع ولا تمدن الا كف مستلب

إلى أن قال:

عليك بالسيد الفخري حسبك في أفعاله فهو من عند الاله حبي

كنز الدقائق مفتاح المغالق كشا ف المعاني أساس الفضل والأدب

حبر امام همام سيد سند سعد شريف وفخر السادة القرب

بحر السماء احياء العلوم ومن في بابه يرتجى كشف لمنتسب

شمس المعارف عبد الله من جمع الـ علوم طرا بما يربو على الكتب

الفاظه درر أفعاله غرر في جبهته الدهر والأزمان والحقب

لقد أخذنا الحديث جانبا للتكلم على أبناء الأعمام وغير ذلك من الموضوعات، ولنعد إلى ما كان ما قد وقفنا عنده من ذكر الأجداد فقد كنا قد توقفنا عند جدنا نعمان بك وهو أبو سليم بك.

وأتذكر أحد أبناء سليم بك[٤٥]. وهم عم والدي، الحاج أمين أفندي، وأتذكر داره الفخمة التي قسمت فيما بعد بين ورثته إلى عدة دور، وكانت قائمة إلى وقت قريب إلى أن قطعه أحد مشاريع فتح الشوارع في الموصل، ولسوف أقصر الكلام على سليم بك ومن هم من بعده، فقد كان سليم بك آمر الفرقة الجبلية (البغالة)

وسليم بك هو أبو يونس أفندي جدي، ولا أتذكره بل لم أره، ولم يره حتى والدي إذا كان في سن الطفولة حين مات والده، وعمره إذ ذاك

[٤٥] هو سليم بك بن نعمان بن حامد، وله من العقب أحمد وداود وعبد الله وحسين وحسن وأمين وعلي ويونس، والأخير هو أبو جميل والد المؤلف.

لا يتجاوز السنتين، وعمي ،شقيقه، كان في سن الثانية عشـــرة. ويونـــس افندي على ما علمت كان رئيس بلدية الموصل[٤٦]، وهو أبو والدي الحـــاج جميل أفندي وشقيقه الحاج توفيق أفندي، وتقلب والدي في العهد العثمـــاني بالوظائف من باش كاتب في المحكمة حتى صار نائب رئيـــس محكمـــة الاستئناف. وفي العهد الوطني كان عضوا في مجلـــس البلديـــة والادارة ونائبا في المجلس النيابي.

الحياة الاجتماعية والمعاشية

لقد كانت حياتنا في عهد دراستي الابتدائية خليطا من حياة الريـــف والحضر، ومع اننا كنا نسكن بيوتا مشيدة بمواد انشائية ثابتة، إلا أن دورنا هذه كانت لا تخلو من الحيوانات التي تعيش معنا في قسم من الدار، قلـــت أنواعها أو كثرت حسب سعة الدار واليسار الذي تتمتع به العائلة، وذلـــك لارتباط حياتنا واقتصادياتنا بالزراعة. ومهما كانت الدار صغيرة والعائلـــة ضعيفة ماليا فهي لا تخلو من نوع أو أكثر من الحيوانات أو الدواجن، ففي الأقل تجد فيها عددا من الدجاج يعيش على فضلات الطعام، ربما وجـــدت فيها معزى لتعطيهم الحليب أو بقرة. وكثيرا من البيوت قد تجد فيها نوعـــا من الخيول للركوب، أو وسائط نقل كالحمير والبغال ، تبعا لمهنة صـــاحب البيت ومركزه المالي والاجتماعي. فإن كانت العائلة تشتغل بالزراعة تجـــد فيها الحمير والبغال، وان كانت تعتمد في دخلها على طاحونة تشكل قسـما من الدار، فإنك تجد فيها البغل أو الكديش، وان كـــانت العائلـــة تشـــتغل بالزراعة بصفة ملاكين فتجد كل هذه الأنواع من الحيوانات وما يلحقها من مخازن للعلف. وبما أن عائلتي كانت من العوائل المالكة للقرى، وتعتمـــد

---

[٤٦] تولاها من سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م إلى سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٨م.

على الزراعة في مواردها، فإني أعد دارنا[٤٧] نموذجـــا جيــدا مـــن دور الموسرين من مالكي القرى وممتهني الزراعة ولذلك فسأصفه بالتفصيل.

لقد كان تخطيط الدور في ذلك العهد من النوع المفتوح سواء كبرت الدار أو صغرت، أي يتوسط الدار الفناء أو الحوش، وتتـــوزع الغـرف والمرافق حوله، وكلها تفتح أبوابها عليه. أما دارنا فكانت تتألف من ثلاثـة اقسام (١) القسم الخارجي أو (الديوه خانه) حيث نعقد مجالسنا اليومية وفي المناسبات ونستقبل ضيوفنا من القرى التي نملكها- هم وحيواناتهم- التـي يستعملونها للركوب والوصول فيها إلى المدينة، لعدم توفر آنذاك وســائط النقل الاخرى كالسيارات وغير ذلك.

(٢) القسم الداخلي والمعد للحريم أي نسائنا والخدم من الاناث.

(٣) قسم المطبخ. حيث يعد الأكل. وقد يحتوي هذا القسم على مخازن لحفظ المحروقات كالحطب والجلة[٤٨] والبعرور والفحم وغير ذلك، إذ لــم يكـن النفط ومشتقاته متوفر آنذاك، ومن المعتاد أن يكون المطبخ بعيدا نوعا ما عن محل سكنانا وتواجدنا لتجنب الروائح. وكثيرا ما يكون قسم المطبخ قد أضيف إلى الدار فيما بعد بشراء دار مجاورة صغـــيرة ملاصقــة للـدار الأصيلة، فيترك المطبخ الداخلي المبنى مع الدار الأصليـــة وينقـل إلـى المطبخ الأوسع المضاف.

---

[٤٧] إن الدار التي يصفه المؤلف هي المعروفة بقصر الحاج جميل الفخري، وتقع فـي محلة الشفاء (الخاتونية سابقا) تسلسل ٣٩٤، وقد بيعت بإزالة الشيوع في محكمـة صلح الموصل سنة ١٩٥٤.

[٤٨] الجلة في مصطلح العراقيين : روث الحيوان يعمل على شــكل أقـراص وتجفـف لتحفظ إلى عين الحاجة إليها وقودا.

أما القسم الخارجي (الديوه خانه)[49] فيتألف من أحد أطرافـــه مـــن غرفتين كبيرتين أحداهما عميقة لتكون بـــاردة فـــي الصيـــف والاخـــرى بمستوى أرضية الدار، وأمامها رواق (طارمة)، ويقابلــــها فـــي النهايـــة الاخرى غرفة المجلس ، وهي مرتفعة أيضا بثلاث درجات عن مســـتوى الفناء لأنها مبنية فوق اسطبل شتوي وفيه نوافذ بارتفاع الدرجات للتهويـــة، ويقابل هذه الغرفة غرفة نسميها (القهوة جاغي)[50]، واعتقد معناه المدفئـــة التي تعمل فيها القهوة، وبين هاتين الغرفتين (الذين هما في مستوى واحـــد فوق الاسطبل والمخازن) ايوان تفتح أبواب الغرفتيـــن المتقـــابلتين عليـــه وينزل منه عن طريق الدرجات الثلاث إلى الفناء أو الحوش.

ان باب الحوش واسع ومرتفع بحيث يتسع لجمل محمل يدخل منـــه إلى الدار، إذ كانت الغلال تنقل من القرى إلينا بواسطة الجمـــال، فتدخـــل الجمال بحملها إلى الحوش حيث تفرغ حمولتها، وتنقـــل إلـــى المخـــازن بانتظار نقلها فيما بعد، وفي الوقت المناسب، إلى السوق .هذا مع العلم أنـــه كانت لدينا عنابر ومخازن أخرى في القرى ،وسأفصل ذلك عند البحـــث عن القرى.

وفي جانب الحوش، في المسافة الفاصلة بين مجموعتي الغـــرف، وبمحاذاة باب الحوش، اسطبلات صيفية، وهي عبارة عن معالف تظللـــها طارمة عميقة ومرتفعة. وتتسع هذه الطارمة أو الاسطبل الصيفي لعشـــرة من الخيل أو أكثر، وفي احدى نهايتي هـــذا الاســـطبل الصيفـــي يوجـــد مرحاض لضيوفنا من القرى، وكذلك للرجال أو (الأزلام) الدائمين الذيـــن يشتغلون في اعداد القهوة والحراسة وغير ذلك. وثمة الدرج المؤدي إلـــى سطح الطارمة فوق المرحاض. وبجانبه بئر لاستخراج الماء منه لســـقي

---

[49] كلمة فارسية، تعني القاعة المخصصة للجلوس وقبول الضيوف من الرجال.

[50] أوجاغ، كلمة تركية، بمعنى موقد، فيكون المعنى (موقد القهوة).

الخيل ووضوء القرويين الذين هم في ضيافتنا،لأن الماء الصالح للشـــرب يؤتى به من النهر بواسطة السقاء ويكلف كثيرا، ووجه البئر يطـل علـى الحوش. ويلاحظ في هذا البئر –سواء في دارنا أو في غيره –هو قربـه للمرحاض، ولا أعلم ما إذا كانت مواد تبطين البئر كافية لمنع رشح ميـاه المرحاض إليه. على أي حال ، فإننا لم نشم رائحة كريهة أو نلاحظ شيئا. ولكم شاهدت قرب البئر من المرحاض في كثير من البيوت، بـل تجدهـا الآن في بعض البيوت الحديثة، حيث تجد بدلا من البئر المطبخ، فيقـابل بابه باب المرحاض، وحبذا لو انتبه المهندسـون أو المعمـاريون إليـها فيضحون بالفراغ الموجود تحت الدرج عادة ولا يستغلونه لانشاء مرحاض هناك يقابل باب المطبخ.

وكنا نستغل لجوء الأهل وقت بالظهيرة بـالصيف إلـى الراحـة والنوم، فنركب هذه الخيول غير المسرجة ونذهب بها إلى الشط لسـقيها، وبعد أن نخرج من بين البيوت الى الأراضي والمناطق المفتوحة الخاليـة فنجري بها ، وهكذا تعلمنا ركوب الخيل بأنفسنا وليس بطريقة فنية، وكثيرا ما سقطنا من على ظهورها ولكن كنا صغارا فلم نتأذ.

أما في النهاية الثانية من الاسطبل الصيفـي أو الطارمـة فتـأتي (تسريحة) تنزل بنا إلى الاسطبلات الشتوية التي تقع تحـت الغـرف، أي غرفة المجلس المرتفعة والايوان السابق ذكرهما. وهذا القسم مخصـص للخيول، وفي نهاية هذا الاسطبل يوجد مخزن للشعير فيه بـاب صغـير لاخراج الشعير منه عندما نقرر ارساله إلى السوق للبيع عندمـا يتحسـن السعر. أما ادخال الشعير فيكون من فتحة داخل غرفة (القـهوة جـاغى) الآنفة الذكر وفي أرضيتها ، والحمال يحمل الفردة التي يجلبـها الجمـل ويصعد بها الدرجات القليلة ويصبها في هذه الفتحة الواقعة فـي أرضيـة القهوة جاغي والتي تسدها أشياش حديدية متقاطعة لكيلا يسقط فيها أحـد،

ويغطيها باب خشن مربع يوضع في سوية أرضية الغرفة لا يعرقل المشي ويمنع سقوط اشياء أو جمرات نار من المدفئة التي ليست قريبة. وواضح ان أرضية القهوة جاغي تشكل سقف مخزن الشعير.

ومن هذا الاسطبل توجد (تسريحة) اخرى تؤدي إلى اسطبل آخر للبغال وللحمير (حساويات) وكنا نستعمل البغال لسوق فدان كان عندنا في مدينة الموصل نفسها لزراعة ما لدينا من أراض زراعية فضلا عن القرى، أما(الحساويات) البيضاوات فكان لدينا منها اثنتان، وهما مخصصتان للركوب فقط. وفي نهاية هذا الاسطبل الأخير يوجد مخزن للتبن، وكان التبن يسقط فيها من الحوش من خلال شباك مربع أفقي في الحوش ليس له قضبان حديد، لأن سقف هذا الاسطبل الأخير ومخزن التبن هو قسم من الحوش (الفناء الخارجي). وبما ان الفتحة خالية من القضبان الحديد خلافا لمخزن الشعير، فكانت فرصة لنا للعب إذ كنا نسقط أنفسنا-نحن الصغار- منها ونقع على التبن فلا يلحقنا أي اذى . وكانت مفاتيح مخازن الشعير الذي نعطيه مرة واحدة في النهار -على ما اتذكر- بيدي إذ كنت مولعا بهذه الأمور، وكنت أقوم بها من دون اخوتي نيابة عن والدي. وكنت أمسك حساباته المتعلقة بالغلال وبيعها وبيع القطن والشلب ومحاسبة الرعاة وغير ذلك. وبما ان القرويين يهمهم طعام حيواناتهم أكثر من أنفسهم وخاصة أفراد قبيلة (الكركرية)[10]، وكنا نملك قريتين أهلها من هذه القبيلة، وهم قبيلة يلبس رجالها لبس العرب ويتزيون بزيهم، أي العقال والعباءة، ولكنهم يتكلمون اللغة الكردية، وهم شجعان للغاية، وحتى قبيلة شمر التي كانت تهابها كل القبائل العربية كانت تحسب لهم حسابا. وكانت

---

[10] عشيرة نزحت من أعالي الفرات، وانتشرت في نواحي الموصل، وبخاصة في ناحية زمار من قضاء تلعفر. ينظر يونس إبراهيم السامرائي: القبائل العراقية (بغداد١٩٨٩)ص ٥٦٤.

خيولهم من الأنواع الأصيلة الجيّدة، لذلك كان عليهم ان يكسبوا رضائي لأزيد الكيّل لخيلهم، فكانوا كلما يأتون إلى الموصل حيث ينزلون في ضيافتنا يقدّمون لي هدايا من مثل خناجر ولاّدية و(قَمْجيّات)[٢٠] من الجلد المَجدول وغير ذلك. وهذه القبيلة تسكن قريتين من قُرانا، هما (كِهْريز) و(تل موسى) قريباً من (تل جَكْنه) و (عين زاله)، ولا تهمهم الزراعة كثيراً، بل كانت معظم أراضيهم غير مزروعة يتركونها مراعٍ لأغنامهم، وكانوا يذهبون بقطعان خرفانهم إلى حلب لبيعها. وحيث أننا لا نستوفي أي ايرادات عن الأغنام التي يملكها الفلاح فإن استفادتنا منهم جد قليلة. وكل ما كانوا يزرعونه لم يكن يكفي ولا يزيد عن حاجتهم من حبوب الذرة. وعبثا حاولنا تعليمهم زراعة القطن والشلب، وهما حاصلان يدران واردا جيدا، ويلائمهما الهواء البارد نسبيا في هذه المنطقة مع توفر الماء لنمو هذين الحاصلين. وفي الحقيقة فإننا لم نكن راغبين في شراء حصص في هذه القرى، لكنهم توسلوا إلينا كي نشتري حصصا منها، وفي الحقيقة أنهم أرادوا أن نكون مرجعا لهم في الموصل كبقية أهل القرى كما سيرد البحث عنه فيما بعد، فوافقنا.

وعدا هذه الحيوانات ، فقد كانت لدينا بقرة، يأخذها راع إلى المراعي ويعود بها ، والبقرة تعرف طريقها إلى دار صاحبها في المساء، وعند حلبها في المساء يعطوها شيئا من الطعام والنخالة.

ولا أتذكر أننا عنينا بتربية الدجاج في دارنا هذه، ربما لسهولة جلب البيض من القرية، بخلاف الحليب الذي يجب استعماله بعد حلبه بوقت قصير، وربما كان السبب هو أن الدجاج كثير الأوساخ .

---

[٢٠] القمجي، لفظة تركية، تعني سوط طويل بقبضة طويلة، يستخدمها أصحاب العربات التي تجرها الخيول في تحريض حيواناتهم على الجري.

وكان لدينا زوج واحد من البغال، نستعملها للحــــرث والزراعـــة، ورغم أن زراعتنا الرئيسية كانت في القرى، حيث نملك عدة فُدن ، إلاّ اننا كنا نملك أيضاً أراضٍ زراعية في مدينة الموصل نفسها،ومن الحَيْف عدم استغلالها، اضافة إلى أننا نحتاج إلى كمية من التبن لخيولنا التي نسـتعملها نحن للركوب، ولخيول ضيوفنا من أهل القرى. ونقل التبن من القرى ليس بالأمر السهل -كالشعير- وذلك للكمية الكبيرة المطلوبة منه، خاصـــة وأن قرانا تبعد بأربعين كيلومتراً عن الموصل، فارتأينا أن يكون لدينا واحد في الموصل أيضاً لهذين السببين.

وقد أصبح الفدان هذا ليس مفيدا فحسب، بل مصدر تسلية لجميعنـــا بما في ذلك الوالد الذي قلَّت زياراته إلى القرى لتقدمه في الســـن. وكـــان يسوق هذا الفدان رجل صالح من القرى المجاورة، ولصلاحه فقد طلـــب مني أن أعلِّمه قراءة القرآن، فتمكنت -والحمد لله -من إقرائه جزء (عَـمَّ) وجزء(تبارك)، فصار فَرِحاً بذلك وأخذ يصلّي ويردد سور هذين الجزأين. وقد وجد صعوبة في لفظ حرف (الغين)، فكان يلفظ كلمـــة غَنَـم (قَنَـم)، فألححت عليه بتعديل اللفظ، وكان يحاول ذلك دون جدوى، وذات مرة عاد من الأراضي الزراعية يغمره فرح عظيم، إذ تمكـــن مـــن تعديـل لفـظ الحرف! وقص علي كيف استطاع ذلك، فقال أنه بينما هو يأكل لقمة مـــن الخبز ويردد مع نفسه الحرف، والكلمات التي تحتويه كـــالغنم، إذ يخـــرج صحيحا في هذه المرة، فصار يعيد تكرار الكلمات إلى أن حضر، وعـــاد إلى الدار لئلا ينسى كيف حصل ذلك، وهكذا تعدل لفظه!.

وفي صباح أحد الأيام من رمضان، وقد تصادف مجيئه في أواخـــر الصيف، كنا نائمين على السطوح، فإذا بنا نسمع طرقات على باب الحوش الخارجي، فتسلقنا ستائر السطح لنسمع الفلاح ، وكان أسمه أحمد، ينـــادي بأعلى صوته، ويكرر الطرق على الباب الكبير، ويستصرخ رجالنـــا لأن

يفتحوا الباب له سريعا، لأنه قد سلب ونهب، فتراكضنا كلنا لنتحرى الأمر، فقص علينا قصته، قائلا أنه بينما هو يسير مع بغاله نحو الارض الزراعية، وبعد أن تجاوز سور المدينة (والسور كان موجودا في ذلك الوقت) صادفه أثنان من الخيالة، وصاروا يسألونه عن شغله، وكان يخبرهم ويجيبهم على كل سؤال. وفي هذه الأثناء أفلت البغل من الفلاح فساعداه على مسكه واعادته إليه، فاطمأن لهم. وعند وصوله إلى الأرض الزراعية أنزل البذر من على ظهر أحد البغلين للبدء بالعمل، فودعاه وذهبا إلى سبيلهما، فقام الفلاح باعداد العدة للمباشرة بابذار البذر،وإذا بالخيالين قد عادا إليه وكلاهما مسلح، فاستسلم إليهما، وشدوا وثاق يديه ورجليه، وعصبا عينيه، ودحرجاه إلى قعر واد قريب، وأخذا البغلين. وقال الفلاح انه- وهو معصوب العينين ومربوط الرجلين واليدين- أصاخ لسماع رنين الجرس،أو (الجنجل)[٢٣] الذي كان في رقبة البغل ليتبين الجهة التي يتجهان إليها ،ثم أنه أخذ يحاول فك يديه، ويقرأ الآيات التي يحفظها و(يندب) أجدادنا -على قوله- وإذا بالحبل الذي يربط يديه قد ارتخى، كذلك الذي يربط الرجلين، والخرقة التي تعصب عينيه. فأسرع راجعا إلى البيت. وقال انه علم من رنين الجنجل أنهما اتجها باتجاه طريق تلعفر وأسكي موصل. وكان عندنا عبد أسود قوي البنية ، فاعتلى احدى أفراسنا، ولم ينتظر حتى يسرجها، واستصحب معه (زلمة) آخر من (زلمنا)، هو محمد الأعفري، وأصله من تلعفر، وعليه ملامح رجولة بادية، وان كان ليس بشجاعة عبد الله العبد الأسود. وأسرعا إلى الجهة التي وصفها الفلاح، وما أن أصبح الصباح حتى ذهب والدي إلى الشرطة وأخبرهم بالحادث، فاتصلوا بالمخافر التي تقع بذلك الاتجاه. وأخبرنا عبد الله انه حوالي الظهر، لمح هو ومرافقه، الخيالين يتجهان نحو نهر دجلة لسقي دوابهم

---

[٢٣] كلمة تعني الجرس الصغير.

ومعهما بغلهم، فرافقهما عبد الله وهو راكب فرسه ،غير متظـــاهر بأنـــه يلاحقهما، ولكنه أوصى رفيقه أن يتجه إلى تل قريب وينادي النجدة. ومـــا أن صاح الأعفري بالكلمـــة المعروفـــة هنـــاك (هـــاي هـــوار) ،ولـــوح (بيشماغه)[44] الملفوف على العصا التي يحملها، حتى احتشد أهـــل القـــرى وهم يعرفونا تمام المعرفة لأن المكان قريب من قرانا التي نملكها في تلـك المنطقة، وأحاطوا بقاطعي الطريق فكتفوهما وقادوهمـــا إلـــى الموصـــل وسلموهما إلى الشرطة. وظهر فيما بعد أنهما كانا قد سلبا أحـــد التجـــار الجوالة قبل أن يتعرضاا إلى فلاحنا، واستلبا الخامات والأقمشة التي كـــان يحملها ليتاجر بها في القرى، وكسرا احدى يديه، فحكموا عليهما بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر سنة، قضيا منها سبع سنين. ثم علمنا أنهما تمكنـــا من فك قيودهما ورميا الحارس البريطاني أو المراقب الذي كان يشـــرف عليهما في حفرة البالوعة!.

ان حادثة ملاحقة عبد الله العبد لهؤلاء اللصوص، أو بالأحرى قطاع الطرق، وقبضه عليهم، وهو غير مسلح وفي اليوم نفسه - وانـــا نفســـي شاهدتها لأنها وقعت في الموصل- تعد فريدة من نوعها.

أما الحادثة الثالثة فبطلها عبد الله أيضا، وكنت قد سمعتها من والدي، وكان والدي يستخدمه في أمور شتى، فبعضـــها كخـــادم أو قـــل معيـــن، وبعضها كجمال، لأننا كنا أيضا نحتفظ بنحو خمسة وعشرين جملا لنقـــل حاصلاتنا من القرى، وبعضا كنـــاطور فـــي موســـم الحصـــاد وجمـــع الحاصلات. وكان والدي قد استخدمه في احدى السنين ناطورا أو حارســـا لبيادر القرية، ولم تكن هنالك في ذلك الوقت مكائن زراعية كالدراســـات

---

[44] اليشماغ، كلمة تركية، أصلها (ياشماق)، وهي عند العراقيين تقابل كلمة (الكوفية) غطاء الرأس المعروف عند العرب.

والحاصدات وغيرها ولذلك فقد كانت عملية تصفية الغلال تأخذ وقتا طويلا اذ كانت تتم يدويا وباستعمال آليات بدائية كالجرجر للتقطيع والمذراة للذراوة، أي فصل الحبوب عن التبن بهبوب الرياح، لتتكون حبا أو كومات من الحبوب الصافية الخالصة من القش والتبن. وتبقى هذه الكومات أياما في العراء في أرصف البيادر قبل نقلها إلى المخازن، وتكون عرضة للسرقة ان لم تحرس. وكان والدي قد عينه حارسا في قريتنا(جكان) التي أصبحت الآن تحت مياه خزان سد الموصل[**] . فبينما كان هو مضطجعا أو نصف نائم داهمه لصوص الغلال ومعهم بغال قد نهبوها أيضا من أماكن أخرى، ولكثرة عددهم وعدم تسلحه تظاهر بالنوم، فجاء أحد اللصوص وسلط خنجرا على جبهته بينما اشتغل الباقون في تحميل البغال بالغلال الصافية. وبعد أن ملؤوا أكياسهم بكل ما تمكنوا من حمله انصرفوا. كل هذا وعبد الله العبد مستمر بالتظاهر بالنوم ،حتى إذا بعدوا عن المكان سائرين باتجاه قرية مجاورة، قام عبد الله من مكانه ودخل القصر العائد لنا القريب من البيادر وركب فرسه وأخذ بندقية ولحقهم دون أن يخبر أحدا في القصر أو يطلب معونة رجل آخر من رجالاتنا، ولحقهم وصار يتضارب معهم إلى أن هزمهم وتركوا البغال التي كانوا قد نهبوها من أماكن اخرى مع حمولتها من الغلال التي تعود إلينا.

عجبا أتوجد الآن هكذا شجاعة؟ وهل توجد هكذا تضحية واخلاص من مستخدم إلى مخدومه، الشجاعة خصلة شخصية ولكن الاخلاص والتضحية لشأن السيد هي مسألة اخرى. هل أقول ان الناس الآن قد تبدلوا أم أن معاملتنا لخدمنا كأفراد من عوائلنا، معاملة طيبة وفوق العادة، هي التي أدت إلى إخلاصهم لنا، فقد اخلصوا لنا من كل قلوبهم، فزوجة عبد الله العبد مثلا كانت مربيتي، وهي ولدت في بيتنا، وأمها ووالدها كانا قد

[**] كانت هذه القرية تابعة لناحية ألقوش في لواء الموصل عهد ذاك.

تزوجا في بيتنا وولدوا أولادهم عندنا، وبقوا في بيتنا، وفي خدمتنا، إلى ان ماتوا. وعبد الله نفسه كان قد أنجب من زوجته بنتا واحدة فقط، وبقيت هذه البنت عندنا. ولما تزوجت هي الأخرى وغادرتنا إلى بيت زوجها احتفلنا بزفافها كأحد بناتنا. كان جميع خدمنا تجدهم موجودين عندنا لعشرات السنين، فهم يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا، ونحن نبادلهم الفرح والحزن ونعاملهم معاملة أفراد العائلة، وحتى في حالة انقراضنا ينتقلون مع ذرياتنا ولا يفارقونا إلا في حالة تكوين عائلة مستقلة في مناسبة سارة مماثلة.

ان لعبد الله العبد مواقف عديدة مماثلة لما سبق ذكرها لكنني اكتفيت بهاتين الواقعتين. وكانت لدينا حاشية كبيرة من الرجال والنساء أمثال عبد الله العبد للقيام بشتى الخدمات التي تتطلبها نشاطاتنا الزراعية لسعتها، فهي تنتشر في سبع قرى نملك ثلاث منها بالكامل، وقد غمرت هذه الثلاث تحت ماء خزان سد الموصل المشيد حديثا. ونملك الثلث من قريتين اخريين مجاورتين للثلاث الآنفة الذكر، ونملك النصف في الجانب الآخر من دجلة في قريتين أخريين يسكنهما اناس من قبائل (الكركرية)، أما القرى الاخرى فيسكن في ثلاثة منها فلاحون من القبائل اليزيدية، واثنتان منها عرب مسلمون[٥٦] . وبما ان الكركرية واليزيدية كانوا يتكلمون اللغة الكردية فقد اقتضى الأمر أن يتعلم والدي اللغة الكردية وكذلك أخي الاكبر.

ان الحاشية تتكون من فلاحين وحراس ووكلاء وحرفيون وبما ان واجبهم عدا الفلاحة والزراعة المحافظة على مياه السقي والري من تعدي

---

[٥٦] لم يذكر المؤلف من أسماء هذه القرى غير (جنكان)، وأسماء القرى الأخرى التي كانت تعد من أملاك أبيه هي: مشرفة، البقاق، عنزة، دير هال، وهي في ناحية ألقوش، وكهريز، تلموس وهما في ناحية زمار التابعة للواء الموصل.

القرى المجاورة على حقوقنا فيها، وحراسة الغلال، فإني أضع عبد الله العبد في القمة بين كل هؤلاء، وربما لأنه بالفعل أشجع الكل، وكذلك لأنه زوج مربيتي التي تعلقت بها،رحمهما الله هي وزوجها وأسكنهما فسيح جناته.

بعد أن فرغت من وصف القسم الخارجي من الدار أي (الديوه خانه) أعود لوصف القسم الداخلي أي قسم الحريم، وهو يشمل على صفين من الغرف، الصف الواحد في مستوى الحوش وقد خصص للمستخدمين الاناث من الداية أي المرضعة والاطفال والمسؤولين من الإناث عن التنظيف والطبخ، والكلر(غرفة لمخزن بعض المؤن اليومية)، وغرفة المطبخ والمحروقات قبل أن يشيد الحوش الثالث للطبخ، لان قسم المطبخ قد أضيف فيما بعد إذ اشتريت دار مجاورة لدارنا فخصصت لبناء المطبخ عليها. وفوق هذا الصف توجد غرف فوقانية لنا ولضيوفنا.

وفي الصف المقابل يوجد صف، أو بالأحرى غرفتان كبيرتان بينهما ايوان، مرتفعتان عن مستوى الحوش، شيدتا فوق السراديب. والسرداب الواحد أو الرهره كان قد خصص لاستراحتنا ونومنا في الصيف لأنه أكثر برودة. ولم تكن آنذاك وسائط للتبريد غير المروحة اليدوية، فكانت في هذه السراديب تفي بالحاجة وتوفر الراحة في النهار. أما في الليل فالنوم فوق السطوح.

أما النصف الثاني من السرداب في هذا الضلع الذي تحتله الغرف المرتفعة فقد خصص لحفظ المؤن لسنة كاملة، وهو على عدة مستويات، ينزل من سرداب إلى سرداب آخر في مستوى أخفض بدرجات. وهذه السراديب التي ينزل إليها تمتد تحت قسم من الحوش، وتفاوت المستويات هو لغرض الحصول على البرودة الاكثر، فالحبوب كالبرغل وغيرها والبقول والأرز كانت تحفظ بالكوارات وهي عبارة عن شبه صوامع

صغيرة معمولة من الطين ارتفاعها حوالي متر ونصف، مفتوحة من فوق لملئها. وتوجد فتحة في جانبها بالقرب من القاعدة لتفريغها، ولهذه الكوارات أيضا أحجام مختلفة أكبرها كما -بينت- يرتفع إلى متر ونصف، وهي توضع في السرداب الأصلي. أما الدهن واللحم المكبوس والبصل وغير ذلك فتخزن في السراديب الأكثر انخفاضا، والدهن واللحم المكبوس كان يحفظ بسدود (أو ما يعرف في بغداد بالبستوكة ولكن من حجم كبير) التي تصنع محليا من الطين المفخور والمطلى بمادة خضراء تجعله غير نفاذ.

وبيوت الفلاحين الكبار الذين يملكون قرى وزراعة واسعة وعندهم اغنام يخزنون الدهن في هذه السدود لاستعمالهم ولتسويق ما يزيد عن حاجتهم في الوقت المناسب، وكان اللحم يكبس أيضا لضيافة الضيوف من فلاحي القرى التي نملكها والتي علينا اطعامهم عندما يأتون إلى المدينة، اذ ان اللحوم تندر في الشتاء ويغلي سعرها، وهي تكبس على -ما أتذكر- بهذه السدود بالملح المذاب بقليل من الماء، وتوضع في هذه السدود في طبقات تفصل بينها قطع منظفة من الحصى الخشن المسطح فيحفظها الملح من الفساد.

وكثيرا ما تمس الحاجة إلى استعمال حتى السرداب المعد للنوم كلا أو قسما لخزن الشلب عندما يكون الحاصل وافرا وذلك بصورة وقتية إلى ان يتم تسويقه.

أما الضلعان الآخران من الحوش فكانا مشيدين على شكل أروقة بطابقين موزعة فيهما الدرج أو السلالم للطوابق العليا والسطوح والبئر أو كرسي الحب والنقط لماء الشرب وغير ذلك من مرافق. ولم تحتو هذه الدور على حمامات فالعائلة تذهب إلى الحمامات العامة في واحد من أيام الأسبوع، وإذا اقتضى الاستحمام لأي سبب كان، في غير ذلك اليوم، فكان

يجري تسخين الماء في قدر ويغتسل في احدى الغرف أو الأماكن الاخرى.

إن حوش الحريم في بيتنا كان مزدوجا، فهو في الحقيقة داران متلاصقان يدخل إليهما من الحوش الخارجي من باب واحدة، ثم يفترقان إلى بابين في نهاية المدخل، يفضي كل منهما إلى دار. والاتصال بين الدارين من هذين البابين، وكذلك للمكالمة السريعة من طريق بئر محفور على الخط الفاصل بين الدارين له بابان يفتح كل باب منهما على أحدى الدارين.

إن مشتملات الدار الثانية. والتي تعود لبيت عمي، مشابهة إلى حد كبير لدار والدي التي سبق وصفها. وكان عمي ووالدي أخوان مثاليان لم أر في حياتي أخوين متحابين مثلهما، مشتركين في الضراء والسراء. وكان عمي أكبر من والدي سنا، وكانا يتبادلان الاحترام والمحبة إلى درجة كبيرة. فإذا غاب والدي في القرى يحضر عمي إلى دارنا في العشاء ويشاركنا الطعام على مائدتنا وهكذا يفعل والدي، وكان كل منهما مخول بالتصرف بأموال أخيه وكأنها أمواله، فكان عمي عندما يدعى للتبرع، وكثيرا ما كانت الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى وفي أثنائها تستدعي الأغنياء لتقديم العون لها، من أموال نقدية أو غلال أو حيوانات كالبغال للجيش. وكان لا يتردد في التبرع عن نفسه وعن والدي دون مشورة الآخر ويقبلها والدي بكل ترحاب، وهكذا كان والدي يفعل عندما يكون هو المدعو للتبرع فيقبلها عمي بكل ترحاب أيضا.. والشيء الوحيد الذي انفرد به عمي هو التزام الأعشار في منطقة (تل عفر) أو (قول) تلعفر. فقد استدعى الوالي عمي للمزايدة على أعشار (قول)، أو منطقة تلعفر في سنة من السنين، وكانت الدولة العثمانية تعطي جمع أعشار المزروعات بالالتزام. وشعر الوالي إن التجار أو الذين يتزايدون

عادة على هذه الأعشار، قد اتفقوا فيما بينهم فتوقفوا عن الزيادة فلم تبلغ المبلغ الذي كان الوالي يتأمله، لذلك أرسل على عمي لان يكسر المبلغ الذي بلغه، ويزيد. ورغم تمنعه عن الدخول في هكذا مزايدات لأنها ليست من صميم نشاطاتنا، فقد ألح الوالي عليه، فلا يوجد غيرنا من يستطيع الاضطلاع بذلك، إذ كنا نعد من الأغنياء، ويحسب التجار لنا ألف حساب، فاضطر عمي للموافقة وبالفعل رست التزامات هذه الاعشار عليه وعادت عليه بربح كبير، واعتقد أن سبب عدم مشاركة والدي هذه المسألة، ان والدي كان موظفا، ولابد أن تكون القوانين آنذاك لا تسمح للموظفين بالمزايدة على أموال الحكومة ولذلك فلم يشترك والدي لا سرا ولا علنا بهذه الصفقة. إن (القول)، وارجو ان يكون لفظي صحيحا لهذه الكلمة التركية التي تعني المنطقة، تشمل مجموعة من القرى تعد بالعشرات.

لقد راعى عمي التسامح والعدل في جمع هذه الأعشار، خلافا للذين سبقوه، ومع ذلك فقد درت أرباحا طائلة. وكان لهذا التسامح والعدل الذي لم ينله القرويون ممن سبقه من الملتزمين أثر في أن نكسب احترامهم وحبهم، وصار الأغوات من أهالي تلعفر يضيفونا ونضيفهم، كما ذكرت عند كتابتي عن سفري إلى بيروت للدراسة، ولو لم تكن بيننا أية معاملات تجارية أو زراعية.

لقد انعكس هذا الحب والاحترام لأهالي تل عفر لعائلتنا في قضية هامة، حيث حصل استفتاء دولي في أول الحكم الوطني على منطقة الموصل، وما إذا كانت تتبع تركيا أو تبقى تابعة للعراق، فارسلت الحكومة ممثلين من بغداد، ولكن أحد من هؤلاء الممثلين لم يجرؤ ويرتاح للذهاب إلى تلعفر إلا بعد ان استصحبوا والدي معهم ليكون وجها لهم ولتنجح مهمتهم.

وكذلك عندما بدأت الحكومة الوطنية تعين اداريين كقائممقامين وغير ذلك لمختلف الوحدات الادارية، كان أول واحد رشح لقضاء تلعفر هو والدي، ولكنه اعتذر ولم يرغب في الوظيفة ولم تفد الإغراءات التي قدمها له الحاكم السياسي البريطاني إذ ذاك لقبوله التوظف بوعده باعطائه اجازات بقدر ما يريد، لأنه اعتذر بان أشغاله لا تسمح له بقبول وظيفة وخاصة وأن اخاه قد توفي حديثا وعليه العناية بامور عائلته أيضا. ومن جملة الإغراءات وعده برفع راتبه إلى الحد الذي هو يعينه أو يرضى به.

وما دمت قد فرغت من وصف دورنا في مدينة الموصل لابد من وصف ما كان لدينا من قصور في قرانا، فقد كان لنا قصران في أهم قريتين من قرانا، فقد وهما جكان ومشرقة، وتشرف الأولى على نهر دجلة، والثانية على نهر البقاق. ويختلف مخطط القصر في هذه القرى عن دورنا في مدينة الموصل بطبيعة الحال، فكل قصر من هذه القصور يقوم على أرض مستطيلة واسعة المساحة، وفي الطابق الأرضي من هذه الارض وعلى أضلاعها الاربعة تتوزع الاسطبلات المغلقة والمفتوحة والمخازن للغلال لايواء الحيوانات من بغال وخيول لزراعتنا الخاصة عدا الزراعة التي يقوم بها الفلاحون ونأخذ منهم الطابوق. وفي هذه الاسطبلات غرف لفلاحينا أي المرابعين الذين يقومون بزراعتنا الخاصة. وعادة تكون هذه الغرف في زوايا هذا المستطيل، وتتجمع المخازن المعدة لخزن الغلال في أحد الاضلاع الاربعة، وتقوم في الطابق الأعلى من هذه المخازن غرفتان بينهما ايوان وذلك لاستقبالنا نحن عندما نذهب إلى القرية من وقت لآخر، وكذلك لايواء وكلائنا المقيمين بصورة دائمية في القرية.

أمور الزراعة وادارتها

كانت الزراعة في ذلك الوقت المورد المهم الذي يعتمد عليه في الرزق، هي وما يتفرع عنها أو يلحق بها من تربية المواشي والاغنام. وتعد عائلتنا من نماذج العوائل الفلاحية الكبيرة، ولذلك فما أصفه من شؤون ادارة عائلتنا لأمور زراعية يصح -إلى درجة كبيرة- على ادارة أمثالنا من العوائل الفلاحية الكبيرة.

كنا نملك نحن بالاشتراك مع عائلة عمنا ثلاث قرى بالكامل، احداها تشرف على نهر البقاق، واثنان على نهر دجلة مباشرة، ولذلك فقسم من أراضينا سيحية وقسم ديمية تعتمد على المطر، والسيحية لا يعلوها الماء بصورة طبيعية، كما انه ليس لدينا مضخات ميكانيكية في ذلك الوقت لنضح الماء إليها من النهرين المذكورين، بل كان لدينا سد غاطس على نهر البقاق فيرفع الماء مقدار مترين إلى ثلاثة.وقد بنينا هذا السد الغاطس من أموالنا ، وركبنا على سواقيه طواحين أو أرحاء تشتغل بفعل الماء الجاري، وتعطي هذه الطواحين أو الأرحاء في ذلك الوقت واردا جيدا. وقد اعتدنا أن نعطيها بالالتزام لمن يستأجرها لسنة أو أكثر، وهو الذي يديرها ويتعامل مع أصحاب الحبوب المطلوب طحنها مباشرة. وهذه الأرحاء ليست مصدرا للمال فقط بل كانت ضمانة قانونية، عند الحاجة، لجريان الماء في النهر، أي نهر البقاق، ذلك لأنه توجد قرى أكثر قربا من منبعه من قرانا، وكثيرا ما يلجأ أصحاب تلك القرى لزرع محاصيل صيفية وشتوية تحتاج إلى الماء ولا تعتمد على المطر، فيتكلف اصحابها جهدا أقل من الجهد الذي نبذله نحن لرفع مستوى الماء في النهر ليعلو أراضينا، وكثيرا ما كانوا يحجزون الماء عن سدنا بواسطة سداد من الحطب وغير ذلك. ونظام الأرحاء هو أحد السبل القانونية لارغام مثل هؤلاء المتجاوزين على عدم حجز كل الماء، حيث يجب ان يجري إليها

لضمان اشتغالها فيرغم أصحاب تلك القرى قانونـــا، إذا اقتضــى الأمــر مقاضاتهم، للسماح بقسم من الماء ليجري إلى ما تحت الجدار حتى يصــل أرحائنا وبالتالي يجري الى السد الغاطس الذي يرفع مستواه.

وكان مقدار الماء الذي يجب جريانه إلى الرحى يقاس بعدد حلقـات أو عنق الجرار كأن يقال أربع أو خمس حلقات جرار. ففائدة الرحــى اذن لا تقتصر على ما تدره من مورد لقاء الطحن، بل تضمن اجبــار القــرى الفوقانية للسماح بقسم معين من ماء النهر لينزل إلينا. وهذا يذكرني بمــا يوجد في بريطانيا من قوانين محلية تنظم تقسيم مياه الأنهر على القــرى التي تشرف على مجراه، فعند انشاء سد ما على نهر، تحتم تلك القوانين - على ما أتذكر - وجوب السماح بخمس تصريف النهر ليجري إلى ما تحت السدة لبقاء الثروة السمكية والزراعية حية، هذا ما فهمته عندما زرت وأنــا أدرس في برمنكهام السد المشيد على النهر الذي يأتي منه مــاء الشــرب للمدينة، وهنالك غرفة فيها مقاييس في السدة يمكن للأهلين الدخول إليــها والتأكد من كمية المياه المسموح بجريانها للقرى والمدن التي تقع ما تحـت الجدار ويسمى هذا الماء compensation water.

أما بالنسبة لقرانا فإن الطريقة القانونية تتمثل باحترام حصص الماء المخصصة للأرحاء، لكن لا استطيع أن أنكر أن كثيرا ما تحدث مشــادات بين أهل القرى بسبب الماء ولجوئهم إلى كسر ســداد المتجــاوزين ليــلا وبالقوة.

ومن حسن ادارة القرى أن يكون لصاحبها حصص فــي القــرى المجاورة، ولذلك فقد تملك والدي وعمي الثلث في قريتين أخريين واقعتين على نفس النهر، أي نهر البقاق ليكون لهما حق المداخل في ادارتها ومــا يجري فيها، حفاظا على حقوقنا بالقرى الرئيسية التي نملكها، وهكذا فكنــا

نملك الثلث من كل من قريتي (البقاق) و(عنزة) المجـــاورتين والواقعتيـــن على نهر البقاق، أو ما يسمى (روبار)[٥٧] البقاق.

أما الزراعة في هذه القرى فتنقســـم إلـــى نوعيـــن (١) الزراعـــة الخاصة، وتعنـــــــي زرع مساحات معينة من أراضــــــي هـــذه القـــرى بفلاحينا الخاصين وحيواناتنا، كما سبق ذكر ذلك في وصف القصر فـــــي القرية. (٢) الزراعة التي تعود للفلاحين أنفسهم، وهم يقومون بها بأنفسهم وأفدنتهم ويأخذ منهم الطابو. ويزرع نوعان مـــــن المحـــاصيل ،الحنطـــة والشعير وهي تعتمد كثيرا على ماء المطر. والنوع الآخـــر هـــو الشـــلب (الأرز) والسمسم والقطن، وهذه تعتمد على ماء السيح الذي يأتي من السد الغاطس الموصوف سابقا. ونسبة حصصنا من كل هذه المحاصيل المختلفة تختلف بعضها عن بعض، وكنا نحن نزرع هذين النوعين من المحـــاصيل في أراضينا، كما كان الفلاحون يزرعونهما أيضا، فيما خصصناه لهم مـــن الأراضي التي يحتاجونها. ونحن نوفر لهم الماء ونرمم السد ونصلح الخلل الذي فيه على حسابنا، وكذلك نقوم بحفر السواقي الرئيسية، وننظفها سنويا على حسابنا، عليه فنسبتنا من الحاصل التي نأخذها من الفلاحيـــن تكـــون أكبر من حاصل الحنطة والشعير.

إن الاراضي التي نخصصها للفلاحين تبقى في عهدتهم، ويتناقلونها أبا عن جد، ولا يستطيع أي فلاح آخر أخذها منهم، وحتى نحن لا نعمـــد إلى أخذها منهم عنوة حتى إذا احتجناها، ولا تنتقل هذه الاراضي إلى غير الفلاح الذي بعهدته إلا بتركه القرية إلى قرية أخرى أو بانقراض العائلـــة، وهذا عرف معمول به من قبل كل الملاكين المنصفين والصالحين.

---

[٥٧] لفظة كردية مركبة من مقطعين فارسيين :رود، بمعنى نهر، وبار بمعنـــى كبـــير، فيكون معناها النهر الكبير.

وقد يحتاج الفلاح قبل جني الحاصل الجديد إلى بعض المال، فيقوم الملاك -عادة- بتسليف أو باقراض الفلاح ما يحتاجه من مال، وعلى الرغم من كونه مبلغا زهيدا، فقد يدور هذا المبلغ لسنين عديدة لا يستطيع الفلاح وفاءه، وربما يشطب في آخر الأمر لانقراض العائلة، أووفاة ربها، وتركه ايتاما ضعفاء. وكان عند والدي دفتر فيه أسماء المدينين من الفلاحين إليه ومقدار ما قد استقرضوه على مدى عدة سنين، وكم لاحظت ان كثيرا من هذه القروض قد شطبت على أساس أنها غير قابلة التحصيل للأسباب المذكورة آنفا، وتسمى هذه القروض (قره) ولا أعرف أصل استعمال هذا الاصطلاح[58].

إن بعض الملاكين لا يقرضون فلاحيهم كما كنا نفعل، بل يقومون بشراء محاصيلهم بأثمان بخسة قبل نضوجها كشراء حاصلهم من القطن أو خرافهم قبل نضوج القطن أو قبل ولادة الخروف أو بلوغه سنا معينة، ولكننا لم نعمد إلى هذه الطريقة في التعامل مع فلاحينا بوصفها تمثل استغلالا غير انساني.

ان من واجبات الملاك أيضا -في ذلك الوقت- استضافة الفلاح ودابته ،أي فرسه، عند مجيئه إلى المدينة مجانا، فيطعمه ويطعم دابته للمدة التي يقيم فيها في المدينة.

كما أن من واجبات الملاك أن يساعد الفلاح عند مراجعته الدوائر والشرطة إذا جلب إلى المدينة، فيكون له محاميا، وإذا اقتضى أن يوكل له محام محترفا، وإذا كان مريضا يدخله إلى المستشفى، وهكذا. ويمكن القول بأن الملاك كان في ذلك الوقت بمثابة المصرف (مصرف زراعي) للفلاح، والمحامي، والمضيف والناظر في خصومات الفلاحين فيما بينهم.

---

[58] قره، لفظة تركية بمعنى (أسود).

لقد ملكنا النصف، وأكثر من النصف، في قريتين كبيرتين أخريين واقعتين على الجانب المقابل لقرانا المذكورة آنفا من نهر دجلة، ولكننا لم نستفد من حاصلاتها، مع أنها كانت أراض خصبة ومساحتها واسعة، ويتوفر فيهما الماء. ففي احداهما وهي (تلحوس) توجد عين مشهورة باسم (عين تلحوس)، وفي الأخرى توجد كهاريز، وهي سلسلة من آبار شبه ارتوازية موصولة ببعضها بقناة مشتركة مسقوفة يجري ماؤها بعد أن تتجمع إلى نقطة واطئة في نهاية القناة. لم نستفد من هذه القرية ماديا لأن أهلها -كما سبق أن ذكرته- كانوا يعنون بتربية الاغنام ويتركون أراضيهم مراع، ولا يزرعون إلا ما يكفي حاجتهم من حبوب الذرة.

لم تكن في ذلك العهد أسمدة كيميائية، وانما كانت هنالك بعض الأسمدة العضوية، وهذه محدودة الكمية بالطبع، ولا تستعمل للحنطة والشعير، بل للمحاصيل الاغلى أما إذا ضعفت قابلية الارض للانبات بسبب استغلال وحرث الأرض المتكرر، فعلى الفلاح اتباع طريقة(النير والنير) أي أن تزرع سنة وتترك أخرى، لتستعيد الأرض قوتها وخصوبتها.

لم تكن هناك مكائن زراعية كما هو متوفر في الوقت الحاضر، وانما كانت هناك ادوات بدائية من صنع محلي كآلة الحراثة التي تصنع محليا: العدة من الخشب وهو عبارة عن قطعتين والسكة من الحديد المطروق يصنعها الحداد. وتجر هذه الآلة بواسطة الدواب كالبغال أو الثيران أو الحمير، والحصاد بالمنجل باليد، وينقل الحاصل على ظهر الدواب بـ(الشخر) المصنوع محليا من الخشب، وهو أشبه بسلمين متقابلين مربوطين بالرأس، ثم بعد جمعها في البيدر الذي هو عبارة عن كومة كبيرة من الشعير أو الحنطة يشبه المخروط الناقص، وتداس وتقطع بالجرجر، وهي آلة تشبه عربة خشبية واطئة تمشي على بكرتين

اسطوانتين من الخشب تقوم مقام العجلات مثبتة فيها بلطات أو سكاكين حديدية يصنعها من الحداد وتثبت بالبكرة أو العجلة. وأما التصفية فتكون بواسطة المذراة عند هبوب الرياح، والمذراة هي من الخشب أيضا مكونة من ذراع طويلة مثبت في نهايته ما يشبه الأصابع الطويلة من العيدان الخشبية.

لم تكن هنالك أية مكائن، وربما كانت عائلتنا أول من استعمل ماكنة الحصاد الميكانيكية، واعتقد ان شركة (بيت اللنج) البريطانية[59] كانت استوردتها، وهي تجر بالدواب وبدائية ومن نوع بسيط، وتتألف من طبلة خشبية تلقى عليها حزمات المحصول الشعير أو الحنطة وثمة مقعد للسائق وسكينة حديدية تشبه المنشار الطويل، فتتحرك الماكنة التي تجرها الدواب، وتتحرك السكينة يمينا ويسارا أيضا في الحافة الامامية من الطبلة، وبتحرك ساقيها اللذين هما من الحديد، تقص سيقان الحنطة والشعير، ثم توجد أذرع أربعة تتحرك حركة دائرية، وإلى فوق وتحت، فوق الطبلة بشكل منظم. وتفرغ الطبلة من محتوياتها على الأرض كلما امتلأت بالمحصول.

اتذكر اني رأيت هذه الماكنة أو آلة الحصاد، المصنوعة في بعض دول الغرب، متروكة في فناء أحد قصري قرانا، وربما كانت قد استعملت خلال موسم أو موسمين فقط ثم تركت لأنها تعطلت عن العمل رغم بساطتها إذ كل ما كانت تحتاج إليه التنظيف والتدهين وربما إلى سن السكينة أو حدها أو بريها.

---

[59] تأسست شركة ستفن لنج Lynch في لندن سنة ١٨٦٠ وكان ممثلها في بغداد هو بيت لنج.

تربية الحيوانات

والمورد الذي يلي الزراعة هو تربية الحيوانات، وهذه على نوعين: النوع الأول يشمل الأبقار والعجول، وهذه تحصل بطريقة ثانوية وآلية، فملاك القرية عليه أن يعطي كل مرابع بقرة ليستفيد من حليبها ولبنها ودهنها. وإذا كان لدى الملاك زراعة واسعة وعنده عدة فدن أو مرابعين فبعد مدة قصيرة تتكاثر هذه الأبقار ويصبح لديه قطيعا منها. وتربية البقر لا تحتاج إلى عناء كثير من صاحبها كما أسلفت، إذ تساق مع قطيع القرية للرعى وتأتي في المساء لتحلب وتعلف. واما الخيول فتوجد عند الملاك لركوب وكلائه ومستخدميه, وهي الأخرى تتكاثر بصورة تلقائية وبدون عناية خاصة. وهنالك من يشتري عددا من كرار البغال التي تباع في سوق الدواب، وهي حرفة قد يحترفها البعض فيذهب إلى ذلك السوق يوميا ليشتري هذه البغال الصغيرة ويربيها في القرية لتكبر فيستعملها للزراعة أو يتاجر بها.

أما النوع الثاني من تربية الحيوانات والتي تعتبر موردا مباركا فهي تربية الاغنام وذلك لكثرة فوائدها من صوف وخرفان وسمن، فمعظم اهل البلد يشتغلون في هذه المهنة- إن شئت ان تسميها كذلك- بحسب يسار الشخص أو العائلة ومركزها. وعلى كل حال فإن من يعتني بتربية الأغنام يكون لديه قطيع أو قطيعين منها، ومن يحترف هذا الوجه من الرزق يصل عدد قطعانه إلى الأربعين، والقطيع يتألف عادة من خمسمائة رأس غنم. والأعراب يتعهدون برعي هذه الأغنام في البراري حيث المراعي والكلأ. وكثيرا ما كان بعض الرعاة يغيب عن المدينة سنتين أو أكثر سعيا وراء أماكن الكلأ ثم يعودون بالوارد إلى صاحب الغنم، وكانوا أمناء ويؤدون حسابا مضبوطا عن كل سنة.

إن الراعي يتقاضى عن موارد الأغنام شيئا معلوما متعارفا عليـــه، فيأتي بالذكور الصغار من قطيع الأغنام إلـــى المدينـــة لغـــرض بيعـــها، ويتقاضى عن كل خروف مبلغا معينا، وكذلك الصـــوف والســـمن فـــهو يتقاضى عن كل من عدد من (جزز) الصوف، أو من أطنان السمن مبلغـــا معينا. أما اللبن فما يأكله الراعي فهذا حلال له، وهو يأتي بين وقت لآخـر بكمية منه للملاك. ويزود الراعي –عادة- بحمار أو حمارين وببعيرين أو أكثر، ولذا فإنه يأتي إلى الملاك بكمية من بعرور الجمل والغنم في اثنـــاء السنة لاستعماله وقودا. ومهما علا مركز أحدهم فلا يأنف الاعراب مـــن مهنة تربية الأغنام، وإني اتذكر راعي عائلتنـــا ، وكـــان شـــيخا لقبيلـــة الحديديين، من القبائل العربية المحترمة في منطقتنا، يرعى قطيعـــا مـــن قطعان الاغنام التي كنا نجنيها.

وثمة مورد صغير آخر نسيت أن اتذكره، وهو إن من كل قطيع لا بأس له يعزل سنويا عدد من الأغنام الهرمة كبيرة السن التي فقدت أسنانها فلا تستطيع استحصال ما يكفيها من الأكل في الارض فيؤتى بـــها إلـــى السوق فيشتريها الفقراء ليربونها في دورهـــم ويقيتونـــها مـــن فضـــلات المخضرات والمأكولات وقشور الخضر فتسمن، ويذبحونـــها ويكبســـون لحمها لتناوله بالشتاء عندما يرتفع سعر اللحم ويندر.

هكذا كانت الحياة، فالزراعة وتربية الحيوانات، والأغنام بصـــورة خاصة، مسلك عمل كل عائلة تقريباً ومصدر كســب الــرزق وبمقـــاييس متباينة من (شكاره)، (والشكاره مصطلح، ولا أعرف أصله، معناه زراعة كمية قليلة من الحنطة أو غيرها من الحبوب من قبل صديق عنـــده أراض زراعية وامكانيات، ليقدمها لصديق آخر لا يملك هذه الامكانيات، فيسـلمها في نهاية الموسم لصديقه بدون تحميله أي كلفة) إلى زراعة واسعة تشـمل مئات بل الوف الدوانم. ومن (غنمة) أو بضع (غنمات) هرمة أو بقرة، إلى

عدد كبير من قطعان الأغنام قد تصل إلى الاربعين والخمسين، وكل قطيع يقدر بحوالي الخمسمائة رأس عدا ما يلحقها من جمال إلى حمير.

لقد انقطع هذا الباب من الرزق لعوامل كثيرة وتطورات اقتضاها الزمان من تقليص المراعي الطبيعية إلى الاشتغال بالصناعة... الخ، ورغم انتشارمشاريع الري والبزل واستصلاح الأراضي ودخول المكننة في الزراعة وتوفر أنواع الأسمدة الكيميائية وغير ذلك، والتسهيلات المصرفية التي تسديها المصارف الزراعية للزراع، وانتشار العناية البيطرية، وتوفر مختلف الأدوية للعلاج من الامراض التي تصيب مختلف الحيوانات، واستيراد سلالات جيدة لم تكن موجودة عندنا من قبل، وتوفر أنواع الأعلاف، فقد أمسينا نستورد هذين الحاصلين الزراعي والحيواني بعد ان كنا مصدرين لهما. فعجبا هل كان ذلك نتيجة زيادة نفوسنا وابقاء مستوى المعيشة، وانتشار الصناعة وتوجه الفلاحين والرعاة والمربين للحيوانات لهذه المهنة كمسلك عمل وترك المسلكين السابقين أو لتقلص المراعي الطبيعية بسبب انتشار الزراعة أم غير ذلك -لا اعلم- اذ ليست لدى المدلولات الاحصائية لكي استطيع ان اشخص السبب، وليس هذا موضوع بحثي ولذلك فأنى اترك التقدير لغيري لكن ذلك بلا شك يدل على وجود خلل في التوازن.

لقد كنا قد ألفنا حياة الزراعة في السابق حتى أننا تعلمنا، نحن أولاد الفلاحين والملاكين، منذ طفولتنا، مبادئها، وتسلينا بتشغيل أدواتها، واتقنا حصد المزروعات بالمنجل، واستمتعنا بركوب (الجرجر) لقطع القش للحصول على التبن والحبوب. كما تلذذنا بمشاركة الفلاح وعامل الحصاد أكله المكون من الخبز والبصل ونحوهما.

وما دمت في موضوع الزراعة وتربية الأغنام فلابد من ذكر بعض الحكايات للحوادث التي صاحبت تلك الحياة، وقد سبق لـــي أن قصصــت بعضها، وفيما يلي بعض ما يخطر بالي عدا ما تقدم.

لقد حكى لنا أحد رعاتنا- وكان يحكي لوالدي وأنا أسمع- أنه تفقـد غنمه ذات صباح فوجدها قد نقصت (غنمة) واحدة ، ولم يسمع في الليــل نباح كلبه. والغريب ان هؤلاء الرعاة يستطيعون التميــيز بيــن مختلــف اغنامهم، ولبعضهم أسماء يعرفونها بها، وإن كان عددها كبــيرا، فســكت وايقن انه لابد ان قد جاءت الذئاب واختطفتها ليلا ، ولكنه استغرب عـــدم نباح كلبه، وتكرر النقص في صباح اليوم التالي، والذي بعده ايضا، فتقـدم إلى كلبه وشتمه وكأنه يفهم ما يقول، وبصق عليه بغضب، فما كان للكلـب إلا ان تراجع جارا ذيله. وفي المساء غاب الكلب وبعد أيام عـــاد ومعــه اثنان يشبهانه وكأنهم اخوته، وجاء الليل وعاود قطيع الذئاب زيارة القطيع فانطلقت الكلاب تطاردها فهزمتها وقتلت منها ذئبين، وفي المساء غـــابت الكلاب الزائرة وبقي الكلب وحده. وكان الراعي قد حصل عليه من قبيلــة عرفت كلابها بالقوة والشراسة، فاستنتج الراعي ان كلبه استنجد باخوتــــه وأحضرهم لمعاونته. والمعروف ان كلبا واحدا بمفــرده لا يجــرؤ علـــى مواجهة عدد من الذئاب، بل لا يجسر على مواجهة ذئب واحد، لكن كلبـان أو اكثر يجسران ويجرؤان على مواجهة قطيع كبير من الذئاب.

لقد حاولت أن أعلم هذا الراعي الصلاة، فعبثا حـــاولت تحفيظـــه سورة الفاتحة. ثم حاولت أن اطلق على غنماته كلمات الفاتحة بـــدلا مـــن الأسماء التي اختارها لها، فحفظ السورة على هذا النحو، ولم اســـتطيع ان احفظه غيرها .

كان هؤلاء الرعاة التي تكلمت عنهم سابقا حريصون على أغنامـــهم ومحافظين عليها، حتى بلغ من حرصهم أنه في مرة من المرات، وكـــانت

سنة وافرة المطر والعشب والمرعى كثير، تحسنت الأغنام وسمنت كثيرا، فأراد والدي أن يرى أغنامه ويشاهدها، فلم يسمح الراعي لصاحبها (والدي) رؤيتها خوفا من اصابتها بعينه (كما نقول) من إعجابه بحالتها، فيكون الراعي اذن قد عد نفسه احرص على الغنم من صاحبها عليها.

المرأة وشؤون الاختلاط والزواج

لم تكن خلال ايام دراستي الاولية وحتى الابتدائية والثانوية أي نوع من الحياة الاجتماعية الموجودة الآن، وقد كان عدم اختلاط الجنسين من الظاهر البارزة والعوامل الأساسية في عدم تطور الحياة الاجتماعية، ومع أن الشرع يجيز رؤية وجه ويدي المرأة للمقدمين على الزواج فكثيرا ما تمت زيجات ولم يتسن للزوج رؤية وجه فتاته إلا يوم الزفاف، ولكن للحق والانصاف أقول ان الابوين ما كانا ليقصرا في معرفة كل شيء عن زوجة المستقبل لولدهما، فكانوا دقيقين في تحري كل شيء عنها، وهكذا كانت تتم الزيجات بحسب وصف الأبوين، وفي الغالب كانت النتيجة موفقة حتى اكثر من الآن.

وكانت الأم التي تبحث عن زوجة لولدها تسعى بكل سبيل لمعرفة كل شيء عنها، فكانت، والأسرة، وحاشيتها يجرون تحريات دقيقة وواسعة، ويجرون زيارات في أوقات مختلفة ومتعددة لأهل العروس ليتأكدوا من طراز حياتهم وسلوكهم ومستوى معيشتهم، حتى أنهم كانوا يذهبون إلى الحمامات العامة ليروا عروس المستقبل على هيأتها الظاهرة والخافية والطبيعية، ويرتبون ذهابهم إلى الحمام في اليوم الذي اعتاد اهل العروس ارتياد الحمام فيه ليعلموا الكثير مما لا يمكن العلم به خارج الحمام بدون أن تشعر العروس أو أهلها بهم. كما انهم كانوا يتحرون عن العائلة ومستواها المعاشي بسهولة لأن العوائل معروف -على الاغلب-

مستواها، كما أنهم من تعدد زياراتهم في أوقات متفرقة من اليوم يطلعـون على كثير من تصرفاتهم، وكذلك على تصرفات العروس نفسها، ويجرون كل ذلك. وقد سمعت حكاية من والدي رواها توضيحاً لما كان يجري مـن خصومات بين العوائل الكبيرة نتيجة المنافسة على المراكـز الاجتماعيـة والجاه والتباين في العادات والتقاليد الدينية والاجتماعية، وشرحاً لكيفيـة تسويتها وحسمها، وقد كان الزواج أحد هذه الوسائل. ومجمل القصة أنـه كانت تقوم بين العمريين[٦٠] والسادات خصومات وفتن (وقوغات)[٦١]. فارتأى عقلاء العائلتين وضع حد لتلك الخصومة، لما كان الزواج -كما قلت- هو أحد الوسائل والتدابير لفضّها وانهائها، ارتأوا اللجوء إلى هـذه الوسـيلة، وقرروا التقدم بخطبة ابنة احد عمداء الأسرة الفخرية آنذاك الي ابن أحـد وجهاء العمريين، ولقدم عهد هذه القصة وروايتها لنا من قبـل والـدي لا اتذكر بالضبط اسم العائلتين الفخرية والعمرية اللتين تمت المصاهرة بينهما حسماً لما وقع من خصومة، ولكن اعتقد من سياق الأمور أن السيدة يجـب ان تكون بنت فخر الدين الصغير (أو الثاني) وهو أبو عبـد الله الفخـري المشهور كاتب ديوان الانشاء لدى ولاة بغداد في القـرن الثـاني عشـر الهجري، وكذلك ابو يحيى افندي مفتي الموصل المشهور بفتاويه والـذي وجه إليه نادرشاه، عندما قدم إلى الموصل ليغزوها وفتحها، كتابه المشهور

---

[٦٠] العمريون أسرة عريقة في الموصل، تنتهي نسباً إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض)، وقدم جدهم قاسم العمري إلى الموصل في القرن العاشر للهجرة، وسكن في محلة باب الجديد من محلاتها، وأنشأ هناك جامعاً عرف بجامع العمري، وقد خرجت هذه الأسرة الكثير من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين، وكـان منـها أعـلام شاركوا في الحياة السياسية في عهدهم.

[٦١] القوغات جمع قوغة، وهي كلمة عامية موصلية محرفة مـن (غوغـاء)، وتعنـي اصطلاحا الفتنة والفوضى.

الذي يهدد أهل الموصل بوجوب الاستسلام قبل أن ينالـــــهم [الضـــر] إن اضطروه إلى محاربتهم. اني اعتقد ان هذه السيدة يجب أن تكون بنت فخر الدين الصغير وأخت أولاده عبد الله الفخري ويحيى افندي، هذا لانطبـــاق الوصف الذي سمعته آنئذ على هذا الذات وأولاده من كرم وسخاء. فبـدأوا بالتحريات الروتينية بواسطة حاشيتهم كما شرحت آنفا، فمركـــز العائلـة معلوم ولكن تبقى معرفة التصرفات اليومية ولذلك أجروا التحريات تحـت عذر من الاعذار لزيارة أهل العروس، ومن جملة ما تحـــروا المطبـخ، فرأوا في فناء المطبخ بعض مواد الطبخ من حبوب وغلال ودهن وســمن ولحوم ملقاة على أرض المطبخ بأكياس وأوعية كبيرة، فتبادر إلى ذهنـــهم لأول وهلة أن ذلك ناتج عن عدم اعتدال معيشة هذه الاسرة. إذ كان مـــن المفترض في نظرهم أن تكون هذه الكميات الكبيرة مخزونة في مخـــزن مؤونة أو (كلر)، فسألوا الطباخة عما إذا كان في هذا البيت مخزن تخـزن فيه هذه المواد بدلا من إلقائها في فناء المطبخ كما رأوها، فأجابت الطباخة ان هذه المؤونة هي لاستهلاك يوم واحد ولذلك فقد استحضرتها لطبخـــها كلها اذ بالكاد تكفي لسد حاجة ذلك اليوم من الطعام. فاستغربوا ودهشـــوا لزيادة الكمية عن حاجة أكبر عائلة أو عوائـــل، ولـــم تتركـــهم الطباخـــة لاستغرابهم طويلا فاعلمتهم أن هذا البيت الكريم يزود يوميا أربعين فقـيرا بما يكفيهم من الطعام، فزادت دهشتهم، وعادوا إلى دار الخاطب ليعلموهـم أن كل شيء على ما يرام ولكن هؤلاء اناس أغنياء وأسخياء فوق العـــادة وقد لا نستطيع مجاراتهم إذا أخذنا ابنتهم. ويظـــهر أن العائلـــة العمريـــة المقدمة على الزواج لم تكن بنفس الدرجة من الرخاء، فرفعوا الامر إلـــى رئيس العائلة يطلبون استشارته، فقال: لا تترددوا واذهبوا على بركـــة الله واخطبوها، فإن هذه البنت من هذه العائلة الكريمة ستكيف نفسها لتناســـب حالنا، وبالفعل فقد تمت الخطبة وتم الزواج، وكانت هذه الفتـــاة مريحـــة

للغاية وقد كيفت نفسها وتواضعت، ولم تشكل مسألة الزواج مشكلة ما بل كانت النتيجة ملؤها السعادة والراحة. كان والدي يضرب هذه القصة مثلا على تكيف البنت الاصيلة نفسها بما يتناسب وحال الزوج وعائلته ومستواهما من جهة، وكذلك كان يشرح بواسطة هذا المثل ما كان يحدث من خصومات بين العوائل الكريمة وكيفية تسويتها بالزواج.

قرأت في (الروض النضر في ترجمة أدباء العصر) ما جاء عن السيد يحيى افندي الفخري أو أبو الفتاوى كما كان يعرف، وهو ابن فخر الدين الصغير، ومما قاله فيه" له صدقات جارية، وللفقراء في ماله رواتب ووظائف، فيقال له في كل يوم يعطى زهاء ثلاثين راتبا، ومنزله ربيع الضيوف وابناء السبيل، لا يمر به يوم إلا وعنده ضيف واكثر"[٦٢]. وهذا يطابق ما سمعته من خلال القصة التي حكاها والدي حيث قال انه كان يتناول أربعون فقيرا طعامهم يوميا من بيت البنت المخطوبة، وعليه فتكون هذه السيدة هي بنت فخر الدين اخت يحيى افندي (ابو الفتاوى)، أو أن تكون بنت يحيى افندي فخر الدين نفسه. وحيث أن بحر الانساب لا يذكر البنات فلا أستطيع الجزم ما إذا كانت هذه السيدة هي ابنة يحيى افندي أو الارجح اخته، استنتاجا من قصة كانت سيداتنا ونساؤنا تتداولها عن سيدة فخرية كانت مدللة عند أهلها للغاية اذ كان يزودها أهلها، كلما خرجت مع حاشيتها إلى الحمام، بكيس مملوء بالنقود لتوزيعه على الحاشية، وان اخوتها قد حكموا بغداد، وبالفعل فإن كانت هذه السيدة هي كما خمنت بنت فخر الدين الصغير فتكون اخت يحيى افندي وعبد الله الفخري، والأخير كان كاتبا في ديوان الانشاء لولاة بغداد وقد حكم بغداد بالفعل. ان كتاب بحر الانساب لم يذكر بنات ليحيى افندي أبي الفتاوى، ولو كان قد ذكر له بنتا لقلت انها ابنته لانطباق الوصف الذي جاء في الروض النضر عن

---

[٦٢] ج١ ص ٢٥٧.

اطعام الفقراء من قبل بيت يحيى افندي، ولذلك فالأرجح أنها ابنة فخر الدين الصغير أو يحيى افندي، والذي هو ايضا كان سخيا، واطعام الفقراء هي سجية ايضا من سجاياه، وعندئذ تكون حكاية المطبخ قد شوهدت في بيت والدها أو تكون قد شوهدت في بيت أخيها يحيى افندي لأن والدها لم يعمر طويلا فقد عاش (٤٩) سنة، من ١٠٨٣إلى ١١٣٢ وتكون هي قد انتقلت لتعيش قبل الزواج في بيت اخيها. كما أنه لا يستبعد ان تكون هذه السيدة هي بنت حامد افندي الفخري أخي عبد الله الفخري كاتب ديوان الانشاء، فتكون اذن اخت نعمان بك بن حامد افندي، ونعمان بك هو ايضا قد عاش في بغداد وحكم بها.

أما قضية اطعام الفقراء بهذا العدد فهي عادة شائعة في ذلك الوقت واستمرت إلى عهد جيلنا فقد أدركتها أنا. وكثير من الوجهاء والموسرين في الموصل كانوا يتفاخرون بها ويتغالبون عليها ويقدمون عليها بكل ترحاب ورضاء نفس.

فطلاب العلم الذين يقصدون الموصل لطلب العلوم الدينية وعلوم القرآن والحديث من هنود وأعجام وافغانيين كانوا يتناولون طعامهم في بيوت الموسرين، ولم تكن بدافع الاقتصاد أو بسبب الحاجة بل كانت الغاية هي تمكين الطالب من التفرغ للعلم وكسر النفس والتواضع فيتقبلون هذه المكرمات، وكان الموسرون يتباركون في ادائها. وكان أستاذ الطالب عادة هو الذي كان يختار البيت الذي يتناول الطالب منه طعامه بأن يزود الطالب برسالة إلى الموسر يطلب منه إطعام الطالب مساءا أو ظهرا، وكانت هذه الطلبات تستقبل بكل ترحاب. وهؤلاء الطلاب يدعون باسم (فقي) ولا أعلم ما معنى هذه الكلمة ومن اين أتت، وهل هي تحريف لكلمة (فقيه)؟[٦٣].

---

[٦٣] من الواضح أنها كذلك فعلا.

اطلعت على نسخة خطية من ديوان الطبيب الشاعر محمد أمين بك آل ياسين المفتي[٦٤]، وكان طافحا بقصائد يهنئ فيـــها عبـد الله الفخـــري بمختلف المناسبات كارتقاء بعض المناصب أو ذكـــر بعــض المواقــف التاريخية المهمة، أو في احلال ابنه أسعد الفخري مكانه عندما وصل هــو سن التقاعد. وكان يدعو عبد الله الفخري بكونه خاله، وكذلك يدعو يحيــى افندي أبا الفتاوى أخا عبد الله الفخري خاله أيضا مما يدل على ان والدتــه كانت اخت السيدة آنفة الذكر، والطبيب هذا كان طبيبا ماهرا وقــد عــالج والي بغداد سنة (١٢٢٠) هــ عندما قدم إلى الموصل وأصابتــه بعـض الامراض فشفي على يده، وزادت شـــهرته، وكــان بــالاصل مشـــهورا بمهارته، وله تصانيف كثيرة منها (اوراق الذهب)، وله يــد طولــى فــي معالجة الامراض وتركيب الأدوية. وياسين افندي المفتي هـــو صــاحب الخان المعروف بخان المفتي القريب من مدخــل ســوق الســراي فــي الموصل. وهو ليس من آل المفتي أخوالنا الكرام فهو وأجداده كــانوا قـد قدموا أصلا من سامراء، أولهم عبد المحسن افندي بن أحمــد بــن دراج وذلك سنة (٩٥٠) هــ، ومن بعده ولده عبد القهار، ثم ولده عبد الوهــاب، ثم الحاج محمود افندي المفتي فياسين افندي المفتي المذكور آنفا. واخـــو الطبيب محمد امين بك المومى إليه سابقا هو الأمير محمد سعيد باشا الذي

---

[٦٤] ولد سنة ١١٤٠هــ ترجيحا، وأخذ العلم على شيوخ مدينته ، وهاجر إلى بغداد سنة ١١٨٤هــ ، ثم ارتحل لإلى القسطنطينية سنة ١١٩٣هــ، وعاد بعدها حيث استقر في قصره الريفي في بلدة (بعشيقا) القريبة من الموصل، له ديوان مخطوط، وكتب طبية منها(الشفاء العاجل والدواء الكافل) و(دستور العمل في علاجات الجـدري والحصبة)، توفي بعد سنة ١٢٢٠هــ. ينظر منهل الأولياء ج١ ص١٤٨ وغايــة المرام ٢٦١.

تولى ولاية الموصل[٦٥]. واذن تكون السيدة موضوعة بحثنا والتي ذكرتها آنفا خالة الطبيب أمين بك وليست والدته لأن الحكاية التي حكاها والدي قد اختصت بالسيدة التي خطبت من قبل العمريين.

ربما قد أطنبت أكثر مما يجب في تعقب سلسلة نسب السيدة موضوع بحثنا، خاصة إذا علمنا ان الغاية من سوق حكايتها لم تكن بالأصل تأكيد صحة أو أصالة نسبها بقدر ما كانت الغاية شرح الخصومات التي كانت تنشأ بين العوائل، وبيان كيفية فضها وحسمها بالتصالح عن طريق التقارب والتزاوج. فعذرا للقارئ إذا كنت قد سببت له بعض الملل.

التعليم

تعاقبت على أبناء جيلنا تقلبات عهود الحكم من عهد الأمبراطورية العثمانية الذي دام زهاء أربعمائة سنة إلى احتلال عسكري بريطاني، فتأثرت بذلك مناهج الدراسة وغيرها من شؤون الحياة، مما ألحق ذلك أرباكا سيئا بدراسة من كان في مرحلة حرجة من السن، أي من كان أقدم منا بقليل من السنين. وتوالي تقلب العهود لمدة طويلة، من أحتلال بريطاني، إلى انتداب، إلى حكم وطني ملكي تحت الانتداب، إلى دخول العراق عضوا في عصبة الأمم في ١٩٣٢ وانتهاء الانتداب بصورة رسمية، وما أعقب هذه الحقبة من انقلابات إلى ان حلت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فاصبح الحكم في البلاد جمهوريا. وبطبيعة الحال رافقت كل هذه التقلبات في العهود، تطورات وتبدلات في شؤون الحياة كافة، من مناهج دراسة إلى طرز عمرانية ومستويات وأنماط اجتماعية ومعيشية... الخ.

---

[٦٥] تولى الموصل من أواخر رمضان سنة ١٢٤٩ إلى أوائل شوال سنة ١٢٥١هـ(١٨٣٣-١٨٣٥م).

ولما كان بعض هذه الأوضاع مما لا يتكرر قطعا في المستقبل، كأساليب الدراسة ، ونوعها، واختلاط الحياة الريفية بالحياة الحضرية في المدن، فإنه يجدر بنا ان نستعرضها من خلال معايشتنا ومشاهدتنا لها من خلال مسيرة العمر. وبطبيعة الحال أن وصفنا لها والآراء المستنبطة من مشاهدتنا لها لا يجب ان ينظر إليها كأنها آراء اختصاصية، وأنما هي مجرد انطباعات كونها اشخاص ذوي ثقافة عامة عايشوا ظروفها، وقد تكون آراؤهم هذه مطابقة للحقيقة العلمية أحيانا، ومخالفة ومختلفة عنها أحيانا أخرى، وسأبدأ أولا بالحديث عن نوع الدراسة وأساليبها عهد ذاك.

لقد بدأت الدراسة في ذلك الوقت في الكتاتيب، وكان يعرف أصحاب الكتاب بالملالي (جمع ملا)[٦٦]، وعادة يتخذ الملالي الجوامع والمساجد محلات للتدريس والتعليم. وكان الملا في الأغلب صاحب وظيفة طوعية في المسجد أو الجامع، كأن يكون إماما فيه أو فقيها أو مؤذنا. وتشتمل الدراسة على تعليم قراءة القرآن الكريم ومبادئ الكتابة وحسن الخط والعمليات الحسابية الأربع. وبعد ان يختم أو يكمل الطالب دراسته هذه، يطاف به في الأزقة المجاورة للجامع أو المسجد، حتى يصل إلى داره، في وسط مهرجان تردد فيه بعض الكلمات الدينية والآيات القرآنية، وتقرع الدفوف، ويقوم والدا الطفل أو وليه بتقديم هدية "ختمة" للملا وتكون عادة كسوة من جبة أو رداء وعمامة حسب حال أهل الصبي المحتفى به.

وكان مخطط الجامع والمسجد الذي درست فيه بسيطا وعمليا، فكانت جبهة الجامع[٦٧] تشرف على زقاق، وتتكون من صف من الدكاكين. وأعتقد أن واردات هذه الدكاكين من ايجارات، كانت تصرف على تعمير الجامع، وهي عادة موجودة حتى الآن لضمان وارد ثابت لتعمير الجامع

[٦٦] إن لفظ ملا لدى معظم أهل العراق بضم أوله، بينما يلفظها أهل الموصل بالفتح.

[٦٧] سيذكر المؤلف فيما يأتي أن هذا الجامع هو جامع المكاوي.

ومصروفاته الأخرى، وفي ظهر هذا البعض من الدكاكين تـأتي مرافـق الوضوء. ومن وسط الجبهة كان يدخل إلى الفناء الأمامي للجامع، الـذي نظم على شكل حديقة تكثر فيها زهور (الختمية) وغيرها. وكان في نهايـة هذا الفناء ذي المساحة المناسبة، قاعتان أحداهما مربعة تقريبـا واسـعة، وهي المصلى، وعلى يسارها قاعة للأمتعة بنفس العمق ولكن بعرض أقل، وهي محل الدراسة. ويدخل إلى القاعتين من تحت طارمة عريضة تتخـذ مصلى في الصيف وفي المواسم المعتدلة، وكذلك للدراسة عندمـا يكـون الطقس ملائما، إذ يسمح بالدراسة خارج القاعة ويكون مفضلا. وفي احدى نهايتي الطارمة يجلس الملا وإلى جانبه الأيمن حائط بعرض متر يرتفـع إلى سقف الطارمة، وفيه فتحة، تشبه أن تكون نافذة، يشرف منـها إلـى مدخل الجامع. ويجلس الاطفال صفا طويلا على طول جبهتي القـاعتين. وفي النهاية المقابلة للملا يوجد تابوت لنقل الموتى يستند علـى الحـائط يستعيره أهل الموتى عند الوفاة. ولا يوجد في الجامع، عدا الحصران التي يجلس عليها الأطفال، غير الأباريق الفخارية التي يستعملها المصلون عنـد الوضوء، والتابوت و(القشاويش)، وهي كلمة موصلية لا أعرف أصلها[٦٨]، ويقابلها في بغداد (شيخ الجناكيل) وهـي تطلـق علـى مجموعـة مـن (الجناكيل)[٦٩] المربوطة ببعضها وتستعمل للادلاء بها في البئر الذي لم يخل جامع أو دار منه في ذلك الوقت،لاستعمال مائه للوضوء، إذ لم تكن هنـاك مشاريع ماء عامة. ويستعمل ماء البئر للغسل وللوضوء، بينما يؤتى بمـاء

---

[٦٨] رجعنا إلى كتاب (دراسات في الألفاظ العامية الموصلية) تأليف الدكتـور حـازم البكري، وإلى كتاب (كلمات فارسية في عامية الموصل) للدكتور داود الجلبـي، وكلاهما قد أحاط بألفاظ الموصل العامية ومصطلحات أهلها، فلم نجد لهذه اللفظـة ذكرا.

[٦٩] الجنكال، لفظة فارسية، بمعنى: خطاف، كلاب.

الشرب من النهر بواسطة السقاة، ويكلف نقله كثيرا. ويتدلى بـ(شيخ الجناكيل) أو (القشاوش) في البئر لاستنقاذ الدلو الذي كثيرا ما يفلت من الحبل. وتقتني القشاوش أو شيخ الجناكيل الجوامع ، وحتى بعض البيوت التي ترجو الأجر من الله، باعارته لمن يفلت دلوه طلبا للأجر، واتقاء من تحذير الله الذي ورد في سورة الماعون للذين يمنعون الماعون . قال تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، والذين هم يراءون ويمنعون الماعون)[٧٠] .

هذه هي محتويات الجامع والمسجد، وقد اتخذت بقية ساحة الجامع، وهي مساحة واسعة على يسار القاعة، مقبرة. ومع وجود هذه المقبرة فاني لم أشاهد في أثناء دراستي أي دفن فيها لامتلائها بالقبور أصلا. وكان منظر المقبرة والتابوت مألوفا لدينا ولا نعيره اهتماما أو خوفا رغم صغر سننا.

لقد اختفت ظاهرة الملالي والكتاتيب الآن تماما، حتى في الريف، وحلت محلها المدارس بمختلف أنواعها، والحق يقال أن من (يختم) في الملا يكون متقنا لقراءة القرآن الكريم والقراءة والكتابة ويحسن الخط.

المدارس الأهلية : العلمية الدينية

وقلما يتجه الطالب -من بعد التخرج من الملا مباشرة- إلى المدارس العلمية، والأكثر حدوثا أنه يتم جزء معقولا من الدراسة الابتدائية في المدارس الرسمية ليستطيع متابعة المواضيع التي تدرس في المدارس العلمية. وفي الأغلب فأنه يتم الدراسة الابتدائية بالكامل جزءا أو كلا في الدراسة العليا الاعدادية، ثم يتجه إلى الدراسة العلمية الدينية إن كانت له

---

[٧٠] سورة الماعون آية ٥.

رغبة فيها، وهناك قلة من الشغوفين بالتتبع العلمي، ممن أوجد لنفسه وقتا للجمع بين الدراستين في آن واحد، أو بالتتابع والتعاقب.

وتتخذ المدارس العلمية الدينية من الجامع والمساجد والتكايا مقرات لها للدراسة والتعلم فيها. وتدرس في هذه المدارس قواعد اللغة العربية وآدابها، والعلوم الشرعية من فقه وعقائد وحديث وتفسير للقرآن وتجويده، ولا تجمع مدرسة من المدارس كل هذه العلوم بل تنفرد بواحدة أو أكثر منها. وقد يكون اختصاص المدرسة بالطبع تابعا لتضلع المدرس، ولذلك فالطالب الطموح قد ينتقل من مدرس إلى آخر إلى ان (يؤجز) أي يعطي الاجازة العلمية فيحصل على هدية مدرسه الذي هو بدوره أيضا (مؤجز) خلعة قد تكون جبة وعمامة وغير ذلك من علامات العلماء. وقد تخرج في هذه المدارس علماء فطاحل في مختلف العلوم الدينية النقلية، وحتى العلوم العقلية.

إن هذه المدارس كانت موجودة بكثرة، وقد قل عددها بتغير الأزمان، وقيام كليات الشريعة الإسلامية التي تؤدي تقريبا نفس المهام، إلا أنها لم تنقرض بالمرة.

المدارس الابتدائية الرسمية

وأول مدرسة ابتدائية التحقت بها تدعى مدرسة (النمونة)[٧١]، وفهمت في حينه أنها كانت تدعى سابقا مدرسة (رهبر ترقي) ، وربما هذا كان اسمها في اللغة التركية، ولا أدري ما معناه[٧٢] .

---

[٧١] نمونة، كلمة فارسية بمعنى عينة، وعربت إلى أنموذج، فاسم المدرسة إذن هو(المدرسة النموذجية).

[٧٢] رهبر، كلمة فارسية بمعنى (مرشد – دليل) ، فيكون معنى اسم المدرسة (دليل الترقي).

وكالعادة فإن هذه المدرسة كانت في بيت من البيوت الأهلية المستأجرة، والبيت بالأصل يعود إلى أحد أقاربنا، وهو عم والدتي. وهو من البيوت الكبيرة، إذ يتألف من ثلاثة (أحواش)، فالحوش البراني يضم المجلس حيث يستقبل الضيوف ، ثم يليه الحوش الداخلي، أو حوش الحريم، ثم يليه حوش المطبخ. ويقع هذا البيت في محلة أهل والدتي، وبعض الأساتذة فيه من أقاربنا، أتذكر منهم السيد محمد نوري الفخري الذي أصبح فيما بعد قاضيا لمدينة الموصل، وصار يعرف في أواخر عمره بالشيخ محمد نوري الفخري لورعه، حتى أنه وصل في نظر الكثير إلى مرتبة (القطبية). وكان حين يمشي في الأسواق يترك أصحاب الدكاكين دكاكينهم ليسلموا عليه احتراما له، وكان مرشدا في التكية الشهيرة بتكية الشيخ عبدالله الفخري، فقد سلك بعد والده وأخوته فيها سلوكهم، وحذا حذوهم، في الارشاد والتربية الصوفية الصحيحة. وكان لوفاته صدى كبير حتى أن دارين من دور اقاربنا قد فتحتا لاستقبال المعزين في أثناء اقامة مجلس الفاتحة، ومع ذلك لم يكفيا، بل كانت هناك صفوف في الشارع تنتظر ليخلو لها مقعد، كما أن كثيرا من كبار القوم قاموا بتقديم القهوة للمعزين تبركا، كما حضر جنازته أثناء تشيعه كثير من المعوقين في عرباتهم تبركا أيضا، وقد أخذ الكثير من الناس حفنة من تراب قبره تبركا واحتراما.

وقد علمت أن مدير هذه المدرسة كان ابن عم والدتي، ومع ان أهلي يؤكدون أنني كنت في المدرسة حين كان الأخير مديرا لها، إلا أنني لا أتذكره، وقد علمت انه قتل في الحرب العالمية الأولى. والذي اتذكره عن هذه المدرسة أن المدير الذي أعقب المدير المذكور، هو السيد (نذير الغلامي)[٧٣] وينحدر الأخير من عائلة موصلية عريقة اشتهر أفرادها

---

[٧٣] توفي في ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٥٦.

بالصلاح والتقوى، وقد تعرفت -فيما بعد- على أخيه الأكبر السيد رؤوف الغلامي[٧٤]، وهو مشهور بمواقفه الوطنية، ومتضلع من قواعد اللغة العربية، وقد درسنا هذه القواعد لمدة قصيرة في المدرسة الإسلامية التي سيرد ذكرها فيما بعد. وكان والده من العلماء الطيبين المعروفين في مدينة الموصل ومحترم لديهم. أما السيد (نذير الغلامي) المدير الجديد ذاته، فقد كان مثال المدير الحازم الذي يحب الضبط والنظام، ويحسن إدارة المدرسة، ويلاحظ مظاهر طلابها وانضباطهم. وأذكر أنه كان في حالات الاستعراض ،عندما يقدم إلى الموصل زائر مهم، ويقتضي اخراج المدارس لاستقباله، يعتني بمظهرنا وانتظام هندامنا. وكان يصفنا بحسب طول كل منا. ولما كنت، أنا وابن عمي المرحوم نعمان الفخري أقصر الطلاب، صرنا نشكل الزوج الأول من الطابور، وكان يلبسنا مسدسات. والخلاصة انه كان يعتني بطلابه ومظهر المدرسة، ولا شك ان مدرستنا كانت أحسن من كل المدارس في عهده. ومما أذكره عن هذا المدير المحترم ما حدث في أحد الأيام، إذ دخل كلب مسعور الفناء الداخلي فأصابنا ذعر كبير، وتراكضنا كلنا إلى الطابق الاعلى حيث ان هذا الطابق كان مبنيا على سقف (رهره)[٧٥] يرتفع مقدار ثمان أو عشر درجات عن مستوى الفناء، فعندما وصله الخبر أرسل إلى داره التي لم تكن بعيدة عن المدرسة، وجلبوا مسدسه، وحينذاك تقدم إلى الكلب بكل شجاعة، وأطلق طلقة أصابت رأس الكلب فسقط صريعا على الأرض، ثم قدم بواب

---

[٧٤] من رواد النضال القومي في الموصل، ولد فيها سنة ١٨٩٠، وأسس مدرسة دار النجاح، فالنادي الأدبي الوطني، وكلاهما كان معقلا للحركة الوطنية، كتب في الصحافة، وله مؤلفات في التاريخ وغيره، وتوفي سنة ١٩٦٨.

[٧٥] حجرة تبنى تحت سطح الأرض بمترين تقريبا، وهي كالسرداب، ويبنى فوقها باقي غرف البيت.

المدرسة، وكان أفغانيا، فرفع بلاطة من مرمر الموصل (الفــرش) الــذي تبلط به الأرضيات، وتعمل منه أركان النوافذ والأبواب، ويدعى الآن خطأً بالمرمر، وكان الموصليون يسمونه سابقا بالفرش، وهو أصح، لأنه مــن الصخور الجبسية، فأكمل موت الكلب والقضاء عليه حيث هد هذه البلاطة على رأسه، وعندها هدأ روع الطلاب وكنا أطفالا. إن هذا الحــادث قـد أنطبع في مخيلتي وذاكرتي كأنها عمل من أعمــال البطولــة والرجولــة والشجاعة فلا أنساه. ان السيد المدير نذير الغلامي، والحق يقــال، مديــر حازم محبوب يحب النظام والضبط ومثال الرجولة والشجاعة.

لا أتذكر عن هذه المدرسة أي شيء آخر عدا الدروس ، وكل مــا أتذكره دائما هو هذا الحادث وشخصية هذا المدير المحبوب المحترم.

قصف الطائرات البريطانية الموصل

ثم أني انتقلت إلى مدرسة أخرى تدعى (شمس المعــارف)، وتقــع هي أيضا في محلتنا، بل أقرب من الأولــى إلــى دارنــا، فــي محلــة (المكاوي)[٧٦] قريبا من مسجد المكاوي[٧٧] حيث كنا ندرس القرآن عند الملا، ولا أتذكر الظروف التي كانت سببا لانتقالي إلى هذه المدرسة الأخــيرة، أكانت لقربها الشديد من دارنا، أم لأن الأولى قد ألغيت. ولم تمــض مــدة طويلة حتى وصل المحتلون البريطانيون إلى مدينة الموصل، وما زلــت

---

[٧٦] من محلات الموصل الكبيرة، تحدها من الشمال محلة عبدوخوب، ومــن الغــرب محلة جامع جمشيد، ومن الجنوب محلة راس الكور، ومن الشرق نهر دجلة.وقــد ذكرنا في مقدمتنا لهذه المذكرات أن المرحوم الفخري ولد وعاش صباه في بيــت أبيه في محلة جامع جمشيد المذكورة.

[٧٧] ويعرف بجامع عبد الله المكي، وينسب إليه شارع المكاوي الواصل بيــن شــارع الفاروق وشارع النبي جرجيس.

أتذكر الطيارات البريطانية تطير في السماء عالية جدا لا تكاد ترى، وكانت من ذوات الطبقتين من الأجنحة. وحينما علمنا بها ورأيناها أصابنا الرعب، وعندها أمرتنا إدارة المدرسة بالانصراف إلى دورنا، فأسرعنا هاربين إلى دورنا، ولم تكن دارنا بعيدة من المدرسة. وعندما وصلت الدار، ولا أذكر بالضبط ما إذا كان الشيخ أمجد الزهاوي[٧٨] وعائلته المصونة، قد وصلها قبلي أو بعدي ببضع دقائق فقط، لأنه لم يكن من الموصليين. وكان الموظفون غير الموصليين الآتين من بغداد يسكنون عادة قريبا من دار الحكومة (القشلة) لسهولة الوصول إلى دارهم، ومن جملتهم الشيخ المحترم، فشعروا عند مجيء الطائرات البريطانية بعدم الأمان، فلجأوا إلى دور أصدقائهم إلى أن هدأت الحالة ووردت الأخبار من بغداد باستقرار الأمن. وكان الشيخ أمجد الزهاوي من أصدقاء والدي بل رئيسه، ففضل اللجوء إلى دارنا مع عائلته، ومكث في ضيافتنا أربعة أيام أو خمسة، إلى أن هدأت الأحوال فسافر بعدها إلى بغداد، وأحتاج إلى خمسة ليرات عثمانية ليستعين بها على السفر وغير ذلك فاستقرضها من والدي، وعبثا حاول والدي، وكان ثريا ، أن لا يعدها دينا أو في الأقل أن لا يعطي رهنا إلى أن يردها، إلا أن الشيخ النزيه أبى ذلك وترك بدلة زوجته رهنا، وكانت تساوي أكثر مما أستقرض عدة مرات، لإنها كانت بدلة عرس معمولة من الحرير ومنقوشة بالتيل، ومن أسلاك الفضة، وهكذا تكون النزاهة وإباء النفس.

[٧٨] هو الشيخ أمجد محمد سعيد بن محمد فيضي الزهاوي، ولد سنة ١٨٨٢ وتخرج في كلية القضاء باستانبول سنة ١٩٠٦، وعاد إلى العراق حيث أختير عضوا في محكمة الاستئناف، وتولى مناصب قضائية عدة، ثم عين أستاذا في كلية الحقوق ، فرئيسا لمجلس التمييز الشرعي، له مؤلفات في الفقه، وتوفي سنة ١٩٦٧.

مارس الشيخ أمجد الزهاوي بعد هدوء الحالة المحاماة في بغداد، وعلم الناس في الموصل بعلاقة والدي بالشيخ أمجد فصاروا يأتون إلى والدي عندما تكون لديهم دعوى أو غير ذلك لتوكيل الشيخ أمجد الزهاوي، وكان يتوكل عنهم، ولكن إذا وجد إن قضية ما غير محق صاحبها لا يقبلها مهما كان الاغراء بالأجور والالحاح من والدي، ووالدي يعرف أيضا طبعه فما كان يلحف عليه عندما يرفض.

وما دمنا بصدد البحث عن هلع الناس بسبب الأحتلال البريطاني ومغادرة العثمانيين للبلاد، يجدر بي أن أذكر أن عائلات من بغداد كانت تعاني نفس الهلع، فقبل سقوط الموصل بيد البريطانيين قدم إليها من بغداد أبو المرحوم محمود صبحي الدفتري[٧٩] أمين العاصمة السابق[٨٠] ومعه ابنه محمود وحاشية كبيرة، ومعهم المرحوم السيد قاسم الرشدي أحد وجهاء كربلاء وأشرافها ومعه أولاده وحاشية كبيرة، وحلوا ضيوفا على عمي المرحوم الحاج توفيق الفخري، ولكثرة عددهم بنيت لهم خيام في الأرض الخالية أمام قصره الذى كان قد بناه خارج سور المدينة بعدة كيلومترات، ولم تكن آنذاك أية مبان في منطقة نائية كهذه خارج سور المدينة. ولبثوا ضيوفا عليه عدة أيام غادروا الموصل بعدها إلى تركيا، وبعد أن وصلوا

---

[٧٩] إن أبا محمود صبحي الدفتري هو فؤاد بك بن إسماعيل أفندي الدفتري، ولد سنة ١٨٦٢ وأشغل عضوية محكمة الإستئناف في بغداد، فرآسة محكمة الجزاء، وانتخب نائبا في مجلس المبعوثان العثماني، وشارك في الحركة الوطنية ضد الاحتلال البريطاني، وتوفي سنة ١٩٢٧.

[٨٠] من وجهاء بغداد ومثقفيها، ولد سنة ١٨٨٩ وانضم إلى الحركة الوطنية ضد الاحتلال البريطاني فأبعد مع والده إلى الهند، وعند عودته إلى وطنه انتخب عضوا في مجلس النواب، ثم عين أمينا للعاصمة، فعميدا لكلية الحقوق، ثم أمينا للعاصمة مرة أخرى، ثم عضوا في مجلس الأعيان، فوزيرا للعدلية سنة ١٩٣٨، فوزيرا للخارجية سنة ١٩٤٣.

قريبا من نصيبين وسمعوا باستقرار الأمور عادوا إلى الموصل ثم إلى بغداد، ولا أدري هل كانت مغادرتهم بغداد وتوجههم نحو تركيا ولاء للعثمانيين أم خوفا مما قد يحصل لهم بعد الاحتلال البريطاني.

أما علاقتهم بالعم فسببها أن آل الفخري يملكون بساتين عامرة في كربلاء عددها أربعة وسبعون بستانا، تسمى بالوسطاني، وقد أصبحت الآن قريبة من العمران على نهر الحسينية، توارثها آل الفخري أبا عن جد. والسيد قاسم الرشدي هو من وجهاء كربلاء وله أسهم فيها تقدر -على ما أعتقد- بالثلث تقريبا، وكذلك قد نصبه عمي، الذي كان يمارس الاشراف على هذه البساتين وجمع مواردها نيابة عن آل الفخري، وكيلا عنه.

وهكذا كنا نتذكر، أنا والمرحوم محمود صبحي[٨١]، حكاية هذه الهجرة الوقتية، وذلك عندما أصبحت أنا أمينا للعاصمة وهو عينا ،بعد عشرات السنوات من وقوع هذه الهجرة، أو قل الزيارة.

المدرسة الإسلامية

لم يحدث في حياتي الدراسية، بين الاحتلال البريطاني وفتح المدرسة الإسلامية وهي المدرسة الاهلية التي أسست بدافع وطني وديني[٨٢]، ما يستحق الذكر. وحيث ان معظم مؤسسيها هم أقاربنا من بعيد

---

[٨١] يريد الوجيه محمود صبحي الدفتري.

[٨٢] أسست هذه المدرسة جمعية العهد العراقي، وتعود فكرة تأسيسها إلى الإستاذ مصطفى ذهني ابن الحاج حسين آغا الجليلي، وقد عاونه في إخراجها إلىالوجود عدد من مثقي الموصل، منهم الاستاذ محمد رؤوف الغلامي وياسين العريبي وسعيد الحاج ثابت وضياء يونس وإبراهيم عطار باشي، وعهد بإدارتها إلى الحاج عبد الله النعمة، فافتتحت المدرسة أبوابها في تشرين الأول سنة١٩١٩ =

أو قريب، وبتشجيع وترغيب منهم والحاح، التحقت بها أنا وأولاد أعمامي وأخوالي. وكنت –وبعض اقاربي– أول من التحق وآخر من تركها عندما الغيث واغلقت بسبب هذه القربى، فمن مؤسسيها المرحوم أحمد الفخري قاضي الموصل ووزير العدل وعضو المجلسين التأسيسي والأعيان[٨٣]، وهو من الفخريين، والذي سيجيئ البحث عنه فيما بعد، والسيد حبيب أفندي العبيدي مفتي الموصل[٨٤]، وهو من أقربائي البعيدين، وأمين المفتي[٨٥]

=وكانت تشغل عددا من غرف الجامع الكبير في الموصل، وقام بالتدريس نخبة ممتازة من العلماء، وجاء في منهاج المدرسة أنها" تتألف من أربع دورات (= مراحل دراسية) أولية ومتوسطة وتالية وعالية، وكل منها ثلاث سنين، فتلك اثنتا عشرة سنة، ولكن الدورتين التالية والعالية هما الآن وديعة في ذمة المستقبل، والمعول عليه في الحاضر الدورتان المقدمتان الأولية والمتوسطة، ومدتهما ست سنين لكل منهما ثلاث سنين" . تنظر التفاصيل في عبد المنعم الغلامي: أسرار الكفاح الوطني في الموصل، ج١ ص ١١٩–١٤٥.

[٨٣] ولد في الموصل سنة ١٨٦٣ ودرس على يد العلامة الشيخ عبد الوهاب الجوادي، وعلى علماء الموصل، وأسند إليه منصب القضاء في مدينته سنة ١٩١٨، وفي ١٩٢٣ عين وزيرا للعدلية في وزارة جعفر العسكري الأولى، ثم انتخب عضوا في المجلس التأسيسي في ١٩٢٤ ولبث فيه حتى وفاته سنة ١٩٢٦، ومن أعماله المهمة تأسيسه، وعدد من وجهاء الموصل، المدرسة الإسلامية التي سيتحدث عنها المؤلف في هذا الكتاب، وله ديوان شعر .ترجم له السيد حازم المفتي في كتابه (نقباء الموصل العلويون وأبناؤهم) مطبوع على الرونيو ص ١٢.

[٨٤] هو محمد حبيب بن سليمان بن عبد الله العبيدي الأعرجي، ولد في الموصل سنة ١٨٧٩ ودرس على كبار علماء مدينته، وجاهد في الحرب العالمية الأولى، ثم عين مفتيا في الموصل سنة ١٩٢٣، شارك في أحداث عصره، وله رسائل عديدة إلى زعماء المسلمين ، ومؤلفات مطبوعة، وديوان شعر. ينظر مقدمة ديوانه (ذكرى حبيب).

[٨٥] توفي في ٢٤ نيسان سنة ١٩٣٤.

وهو عم والدي، وهو أيضاً من مؤسسيها، والسيد محمد طـــاهر أفنـدي[الفخري][86] من مدرسيها، وهو ابن ابن عم والدي، والسيد ياســين أفنـدي العريبي من مدرسيها، وهو من سادات الموصل، من أقربائنا الابعديـــن، ولذلك فما كان لنا ان نتركها إلى أن أُغلقت.

وقد ركَّزَت هذه المدرسة في برامجها على دروس اللغــة العربيــة وآدابها والعلوم الدينية من فقه وعقائد وتجويد وتفسير القرآن الكريم وعلوم الحديث، وعلم الرياضيات والحكمة والعلوم الاجتماعيـــة مــن جغرافيــة وتاريخ، ولكن لم تُدرس اللغة الانكليزية فيها، وكانت هذه المسألة عقبة في طريقنا عند التحاقنا بالمدارس الرسمية الاعدادية، واعتقد ان اهمــال درس اللغة الانكليزية جرى عمداً، على أساس وطني، لا لعجز في ايجــاد مــن يُدرِّسها، وهي اللغة التي عدَّت في المدارس الرسمية اللغــة الثانيــة بعـد العربية، وبدلاً من ذلك فقد درسنا في أواخر أيام وجودنا في المدرسة اللغة الفرنسية بدلاً منها.

وأساتذة هذه المدرسة ذوو مستوى علمي أعلى بكثير من مســـتوى مدرسة ابتدائية، كلٌ في اختصاصه، كما سيرد ذكره بعدئذ. وأعتقد انــــهم كانوا يُدَرِّسون مجاناً بدافع وطني وديني لأنه لا مورد لـــهذه المدرســة. فالاستاذ ياسين أفندي العريبي[87] خريج استانبول في الحقوق، وأمثاله نوادر في ذلك الوقت. والاستاذ ضياء يونس[88] وهومؤرخ ومُعمَّم أصبح بعد ترك التدريس سكرتيراً لمجلس الوزراء، والأساتذة المعمَّمون كالاستاذ عبـد الله النِّعمة[89]، والشيخ طاهر أفندي الفخري، وهم المسؤولين عن العلوم العربية

---

[86] تولى التدريس فيها منذ سنة ١٩١٩ وحتى وفاته سنة ١٩٢٨.

[87] توفي في ١٣ أيار سنة ١٩٤٢.

[88] قتل في بغداد في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٣٧.

[89] توفي في يوم الخميس ١٧ آب سنة ١٩٥٠.

والدينية، كانوا من أشهر علماء الموصل ويستحقون ، ومن سبق الحديث عنهم، أن يكونوا أساتذة في كليات . ودرس علوم الرياضيات ضباط متقاعدون في الجيش العثماني كانوا يتقنون علوم الرياضيات والفيزياء كل اتقان ويستحقون ان يدرسوا في المدارس الاعدادية والكليات.

وكل ما كان ينقصنا هو اللغة الانكليزية، كما سأبحث ذلك فيما بعد، ويكفيك أن تعلم إنني عندما انتقلت إلى الثانوية بعد الغاء هذه المدرسة، وكان ذلك قبل أشهر قليلة من إنتهاء السنة، لم أجد -لا أنا ولا أخواني- أية صعوبة في متابعة الدراسة في الصف الأول، ونجحنا في كل شيء ما عدا اللغة الانكليزية التي أصبحنا مكملين فيها. لا بل انني حتى بلوغي الصف الثالث والرابع لم أحتج إلى مراجعة كتاب في مواضيع اللغة العربية، وكنا من البارزين فيها بدون متابعة الدروس أو مراجعة المواضيع، وكذلك كنا بارزين في العلوم الرياضية ومتفوقين فيها.

والذي لاحظته واستنتجته أن مناهج الدراسة في العهد العثماني كانت واسعة وعميقة، ففضلاً عن أن الاختصاصيين كانوا مبرزين في اختصاصاتهم، كانت ثقافتهم العامة على درجة عالية أيضا، فهذا ياسين افندي العريبي-رحمه الله - كان قد تخرج من استانبول في الحقوق، وبرهن عند الاشتغال بالحياة التطبيقية أنه كان محاميا قديرا وحاكما جيدا، فانه عندما درس في المدرسة الإسلامية واقتضى أن يدرسنا موضوع الحكمة أي الفيزياء، استطاع ان يفعل ذلك بكل جدارة، واقتضى أن يدرسنا في جملة دروسنا النسبة والتناسب، وقدد أداه خير أداء كأحسن معلم رياضيات. كما درسنا في مادة الجغرافية موضوع حركة دورة القمر وأوجهه فأعطاه حقه من الدقة والتفهم. وعلمت منه ،في حديث جرى بيننا بعد عدة سنين، وذلك عند ممارسته مهنة المحاماة انه استطاع ان يبرئ

موكله من جريمة قتل اتهم بها بسبب معرفته وتطبيق معلوماته عـن دورة القمر وحركته.

وخذ معلمي الرياضيات، فإنهما كانا ضابطين أحدهما لا تزيد درجته عن ملازم ثان، أو أول، رحمه الله ان كان ميتا الآن، وهو السيد ســعيد صقار ، فقد درسنا الرياضيات كأحسن مــدرس، وكذلــك درســنا اللغــة الفرنسية بكل اقتدار وعلى أحسن وجه. والمعلم الثاني ،رحمه الله ، واسمه محمد علي ، كان برتبة يوزباشي (اعتقد أنها تعادل رتبــة نقيــب الآن) درسنا مواضيع الرياضيات، وكما قلت اننا عندما انتقلنا إلى الثانوية لم نجد صعوبة في هذه الدروس بل كنا مبرزين فيها ومتفوقين.

كان الاقبال على الالتحاق بالمدرسة الإسلامية عند أول تأسيسها سنة ١٩٢١[٩٠] كبيرا للحفاظ على علوم الشريعة الإسلامية التي خال الكثير مـن الغيارى أن مناهج التعليم في العراق الموضوعة أيام الاحتلال البريطــاني قد أهملتها. وبعد ان استقرت الأمور في القطــر وتوضحـت المنــاهج التعليمية، وبدأت مناهج التعليم العالي بعد الاعدادي والثانوي تنتظـم،أخـذ ترك المدرسة الإسلامية ومغادرتها يجري سريعا فلم يبق في المدرسة مـن الطلاب إلا من تربطهم بالاساتذة والمؤسسين صلة قربى، وهم أنا وآحــاد من أقاربي. لذلك فقد بادر المؤسسون، أو بالأحرى رئيسا الشرف، وهمــا السيد أحمد الفخري والسيد حبيب العبيدي، بالتدخل لدى السلطات التعليمية الرسمية لضمان قبولنا في الثانوية، وكنا آخر وجبة من الطلاب الصامدين والباقين فيها. وقد قبلنا في الصف الأول الثانوي، وكان قبولنا قبيل الشــهر الأخير أو الشهرين الاخيرين من السنة الدراسية ١٩٢٣/٢٢. وبرغم قبولنا ودخولنا الثانوية في الاشهر الاخيرة من السنة فقد نجحنا في كل المـدروس

---

[٩٠] كذا يذكر المؤلف، وسبق أن نقلنا عن عبد المنعم الغلامي أنها تأسست قبــل ذلــك التاريخ بعامين.

ما عدا اللغة الانكليزية، فقد كنا متمكنين في كل الدروس ما عـــدا اللغـــة الانكليزية. ومن الطريف أن معلم اللغة الانكليزية ، وهو مصري قبطـــي كان يسمح لنا عند دخول للصف بأن نخرج إلى الجنينة لأننا لا نستطيع ان نتابع المواضيع التي يدرسها، بل لا نعرف شيئا من الحروف الانكليزيـــة. وهكذا فقد نجحنا في كل شيء وأصبحنا مكملين في اللغة الانكليزية فقط.

وهكذا انتهى أمر المدرسة الإسلامية وقضي عليها[١١]، وقد فـــاتني أن أذكر ان المدرسة الإسلامية كانت قد اتخذت من الجامع الكبـــير والـــدار الملاصقة له مقرا لها، ويحتوي الجامع على غرفتين بينهما ايوان تحـــت كرسي المئذنة (الحدباء). وتحتوي الدار على عدة غـــرف اتخـــذت مـــع الغرفتين تحت كرسي المئذنة صفوفا، والدار تضم سردابا اتخـــذ مخزنـــا للكتب والقرطاسية. وكنا بطبيعة الحال نجبر على الصـــلاة أولا، وكـــان يسوقنا إليها المرحوم المدير المحترم عبد الله النعمة، حتى صارت لنا عاد وعبادة نؤديها بلا سوق ولا ارغام، وهكذا نشأنا نشأة دينية بقيـــت تـــلازم بعضنا إلى آخر أيام حياتهم.

وفي الصيف الذي أعقب سنة الدراسة الاولى أخذنا نحن المكمليـــن باللغة الانكليزية بالدراسة على أيدي معلمين خصوصييـــن، وفـــي نهايـــة العطلة الصيفية جئنا للامتحان فرسب الجميع باستثناء واحد منا وهو أنـــا، فتفرق زملائي وتركوا الدراسة الثانوية، ومنهم من التحـــق بمـــدارس دار معلمين ابتدائية أو ريفية، ومنهم من التحق بمدارس زراعية، ومنهم مـــن

---

[١١] في ٢٢ أيلول سنة ١٩٢٨ صدرت الإرادة الملكية بتبديل اســـمها إلـــى (المدرســـة الفيصلية) ، وفي ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٢٩ أضيفت كلمة(الوقفية) إلى إســـمها فصارت تسمى (المدرسة الفيصلية الوقفية)، ثم عرفت بالمدرسة الفيصلية الدينية، وتقرر أن يقبل طلابها في الثانوية الدينية ببغداد، ثم يقبلون في كلية الشريعة. عبـد المنعم الغلامي: أسرار الكفاح الوطني في الموصل ، بغداد ١٩٥٨، ص ١٤٥.

نجح في تلك المدارس، ومنهم من سقط بتلك أيضا، ولم يداوم على الدراسة وانقطع عنها بالمرة. وهكذا كانت النتيجة ارباك لدراسة هـذا الفئـة مـن الطلاب نتيجة تقلب العهود ومناهج الدراسة من العهد العثماني إلى عـهد الاحتلال البريطاني، وبطبيعة الحال كان الارباك أشد على الذين هم في عمري عن اولئك الذين كانوا أكبرسنا.

أما انا فقد دخلت صفا يضم – بالصدفة – طلابا أذكياء للغاية، وكانت دورتنا من أقوى الدورات التي تخرجت من الثانوية في سنة ١٩٢٦، فكان علي ان أجد كثيرا واجتهد لألحق بالركب، وخاصة باللغة الانكليزية، لاني كنت فيها أضعف بكثير من غيرها من المواد. ومن العوامل التي ساعدتني على المنافسة هو اني -كما ذكرت آنفا- كنت قويا في اللغة العربية وفي الرياضيات، حتى اني لم أحتج إلى المراجعة للكتاب في هذه المواد، وكنت متفوقا بالرياضيات، فساعدني ذلك على تكريس وقت أكثر للغة الانكليزية، وبما أن بقية الطلاب القدماء.كانوا يعرفون اللغة الانكليزية لانهم درسوها من الصف الرابع الابتدائي فإنهم لم يخصصوا لها وقتا أزيد، وكانوا يفهمون مثلا بالقراءة الانكليزية معنى القصة بمجرد قراءتها وان لم يعلموا معاني كل الكلمات الغريبة الواردة فيها بالضبط، أو يكلفوا انفسهم بمعرفة مفرداتها. أما انا فكان علي أن أدرس بدقة وأتعب نفسي أكثر. وكان معلم اللغة الانكليزية في الصف الثاني بريطانيا اسمه المستر (براير)[٦٢] قد لاحظ اجتهادي، واقبالي على الدرس بصورة جدية، فكان يشجعني كثيرا، وبالصدفة فإن خطي كان جيدا باللغة الانكليزية ودفاتري كانت منتظمة للغاية، فكان يدون بدفاتري عندما يصححها عبارات مشجعة. وهكذا شققت طريقي وصرت من المتفوقين بعد مدة

[٦٢] كان قد عين وكيلا لناظر المعارف، كما تولى تدريس اللغة الإنكليزية في المدرسة الخضرية بالموصل.

قصيرة؛ وفي السنة الاخيرة من الثانوية صدر أمر من [وزارة] المعـارف بوجوب امتحان الثانويات في العراق سوية وبنفس الأسئلة، إذ أدخل نظـام البكلوريا لأول مرة. ولما كانت مناهج الدراسة قبلا غير موحدة اعـترض مدرسو ثانوية الموصل على هذا الامر على أساس ان الاسئلة ستوضع من قبل الاساتذة في بغداد بينما لم تكن المناهج موحدة كما هي الآن، فخشـى مدرسونا ان نرسب . ولكن القضيـة سـويت بعـد ان هـدد مدرسـونا بالاضراب، فتوصلوا إلى حل وسط، وهو أن نذهب نحن من الموصل إلى بغداد على حساب الحكومة شهرا قبل موعد الامتحانات، ونسـكن مقـابل المدرسة الاعدادية المركزية في القسم الداخلي لمدرسة الهندسة والصناعة، ونعبر الزقاق الفاصل بين هذا القسم من المدرسة، ونذاكر دروسـنا مـ مدرسي بغداد. وأعتقد انه ربما وضعت الاسئلة بالتالي بصورة مشـتركة من قبل مدرسي بغداد والموصل.

وفي نهاية الامتحان خرج من بين الأوائل الأربعة ، ثلاثة من أبناء الموصل، وهم كل من حيدر سليمان وعبد الله بكـر وأنـا (كـاتب هـذه الأسطر) وواحد فقط من الأربعة من أبناء بغداد، وهو المرحوم السيد فؤاد الانكورلي. وارسلنا نحن الاربعة مكافأة لنا في بعثة إلى جامعة بـيروت الامريكية. ومع ان عبد الله بكر في الواقع تخرج في السنة الاخيرة مـن ثانوية بغداد بسبب انتقال والديه إلى بغداد إلا انه اصلا من أبناء الموصل، وأكمل في الحقيقة دراسته الثانوية في الموصل ما عدا السنة الأخيرة.

اني أعزو نجاحي بالطبع إلى اجتهادي أولا ، ثـم إلـى تشـجيع المدرس البريطاني المستر Prior الذي ما زلت دائما اذكره واترحم عليه، فقد كان له الفضل الأكبر في نجاحي، وهو قد فعل ذلك لملاحظته رغبتـي الشديدة في الدرس واجتهادي الكثير وانتظام دفاتري وعملي الدؤوب علـى أداء واجباتي على أحسن وجه.

وما دمنا نتكلم عن تأسيس المدرسة الإسلامية وانقراضها أو غلقها، فلابد لنا من وقفة ولو قصيرة على ذكر فاضلين كان لهما أكبر سهم في تأسيسها والدفاع أخيرا عن حقوق ومستقبل آخر من صمد من طلابها، وبقى فيها إلى الأخير، بعد ان انكف كل الطلاب عنها ملتحقين بالمدرسة الرسمية، خوفا على مستقبلهم، وعدم قبول دخولهم في الكليات التي أخذت تفتح من قبل الحكومة. وبطبيعة الحال يفضل من تخرج من المدارس الثانوية الرسمية على غيرهم إذ يكونون اقدر على متابعة مناهج الكليات. أقول لابد من وقفة ولو قصيرة أذكر فيها فاضلين دافعا عن حقوق من بقى صامدا فيها، أعني (المدرسة الإسلامية) إلى الأخير، لضمان قبولهم في الثانوية، وهي (المدرسة الوحيدة الرسمية) وبالصف الذي يستحقونه، ألا وان هذين الفاضلين هما كلا من المرحومين السيد أحمد الفخري والسيد محمد حبيب العبيدي، لا لتعريفهما فهما غنيان عن التعريف، بل من العرفان لهما بالجميل. وحيث أن الحديث عن هذين الذاتين الجليلين متشعب وقد يطول فيقطع الحديث عن موضوع الدراسة، فسأرجيء الحديث عنهما الآن وأعود إليه فيما بعد ان شاء الله.

كان التحصيل العلمي العالي ،عندما كنا في الابتدائية، أي في العهد العثماني، محصورا بالمستوى الاعدادي والاعدادي الرشدي. ومن يريد نيل شهادات أعلى كان عليه أن يطلب ذلك في استانبول، وقليلون الذين يتمكنون من الذهاب إلى استانبول، ومن النادر من هؤلاء من ذهب إلى بيروت والبلاد الاجنبية.

على أن كثيرا من رجالنا نالوا المعرفة بطريقة الممارسة، وذلك انهم كانوا يدخلون الدوائر بصفة مداومين ، فيشغلون وظائف متنوعة، وبالممارسة كانوا يتقنون المهنة إلى أن يصبحوا حكاما وحقوقيين فيجاز لهم اشغال الوظائف الادارية والحقوقية. ولا اذهب بعيدا، فهذا والدي دخل

الدوائر الحكومية ككاتب أول، ثم أصبح (باش كاتب) فحاكم بداءة إلى ان تأهل لأن يشغل وظيفة نائب أو وكيل رئيس محكمة استئناف الموصل، بينما كان رئيس محكمة استئناف الموصل هو المرحوم الشيخ أمجد الزهاوي التي سبق ذكره هذا فيما يتعلق بالعلوم الاساسية والمهنية، أما علوم اللغة وعلوم القرآن والحديث والعلوم الدينية والشرعية فلم تكن هنالك صعوبة، إذ كانت تدرس في المدارس العلمية والدينية الاهلية، وقد اجيز عدد كبير من العلماء الذين يفتخر بعلمهم وسعة اطلاعهم في شتى الميادين. وها هي الكتب الكثيرة والدواوين طافحة بذكر آثارهم، وانما انا سأتعرض بالبحث عن بعضهم بقدر ما يمس بحثي.

برمانا فالجامعة الأمريكية

لقد كان صيف سنة التخرج من الثانوية (١٩٢٦) صيفا شديد الحرارة، فارتأيت أن اذهب في أول العطلة إلى لبنان لقضاء عطلة الصيف هناك، وأدخل احدى المدارس الصيفية في الجبل، ووقع اختياري على مدرسة (برمانا) الانكليزية فأضمن مناخا طيبا باردا واتخلص من حر العراق، واستفيد من الدروس التي تلقى في المدرسة فأغني بذلك معلوماتي باللغة الانكليزية ليسهل علي متابعة الدروس بهذه اللغة عند الالتحاق في آخر الصيف بالجامعة، وهكذا فعلت واعتقد ان البعض من الطلاب قد فعل الشيء نفسه ولكن في أماكن أخرى.

لقد صادف، ولحسن الحظ، أن عزم أستاذ الرياضيات في ثانويتنا وهو الدكتور داود قصير[٩٣] أن يواصل دراسته في أمريكا للحصول على

---

[٩٣] مهندس ، حصل على شهادة الدكتوراه من الولايات المتحدة، وشارك في تأسيس أول مدرسة هندسة في العراق، والتي أصبحت كلية الهندسة في جامعة بغداد، وكان هو عميدا لها.

الدكتوراه، وبالإضافة إلى أنه استاذي ، فإنه كانت تربط بين عائلتينا علاقة صداقة ومعرفة. وكان أخوه الدكتور عبد الله قصير[91] هو طبيب العائلة، لذلك فقد قررنا السفر معا، وكانت صدفة جيدة، وخاصة وقد كان هو، أعني الدكتور داود قصير، قد درس في جامعة بيروت الامريكية للحصول على شهادته الاولية بالرياضيات وكذلك بالصيدلة، فتعهد لأهلي بايصالي إلى لبنان وادخالي المدرسة الصيفية ورعايتي في الطريق، وقرر أن نذهب عن طريق دير الزور – حلب – فطرابلس – فبيروت وهكذا فعلنا.

لقد كانت المواصلات جد رديئة في تلك الاوقات سواء من حيث وسائط النقل أو الطرق، فلم تكن هنالك طرق معبدة ولا سيارات جيدة كالموجودة الآن. واتذكر اننا استأجرنا سيارة فورد من الطراز القديم التي يصعد إليها من لوحة على الجانبين تقوم مقام السلم، وليس فيها صندوق خلفي، بل كانت الحقائب توضع على اللوحة الجانبية وتشد بالحبال وتسد الأبواب، ويقتضي للراكب أن يدخل في السيارة من نافذتها إذا اقتضى الأمر الخروج منها أو الدخول بعد شد الحقائب، وكانت من النوع المسقف بالقماش السميك من النوع المستعمل في الخيم والمشمعات.

ولما كان ذلك الصيف حارا ، فإننا قررنا أن نسافر من الموصل عصرا ونقف في تلعفر لنبيت الليلة فيها. ولمعرفة أسرنا بأغوات تلعفر نزلنا ضيوفا في بيت أحد الاغوات، واسمه (رضا اغا) على ما اتذكر. وكان هو وغيره من الأغوات ينزلون ضيوفا علينا عندما يزورون مدينة الموصل. واتذكر أننا نمنا على السطوح، فبرد الجو ليلا هناك، وهبت رياح شديدة السرعة بحيث كنت أمسك باللحاف طوال الليل خوفا من أن يذهب الريح به، وكانت الريح شديدة بدرجة انها تحمل حصوات صغيرة

[91] ولد في الموصل سنة ١٨٨٧ وتخرج في الجامعة الإمريكية في بيروت ثم جامعة لندن سنة ١٩٣٤، وهو أول طبيب اخصائي في طب الأطفال.

وشبيهة بما يسمونه في السليمانية (بالرشبه)، هذا مع أني لم أصادف هكذا جو في السليمانية، ولا أعلم ما إذا كان الجو عادة هكذا في تلعفر أم كان ذلك صدفة في تلك الليلة.

وفي الصباح استأنفنا السفر، فتوجهنا إلى دير الزور، ومررنا بالصورة والفدغمى فدير الزور. وكل المياه التي اعترضتنا في الطريق، بما فيها نهر الفرات في دير الزور، لم نعبرها على جسور بل عبرناها فوق عبارات. ولاحظت عند وصولنا دير الزور انه كانت تجري هنالك أعمال لانشاء جسر. أما الطريق إلى دير الزور فكان غير معبد، بل مفتوحا فتحا بسيطا ووعرا وخشن السطح ويستمر مع منحنيات الأرض.

ونزلنا بوديان مخيفة مخطرة لعمقها، وكان باستطاعة قطاع الطرق وضع الجنادل والصخور الكبيرة لقطع الطريق وسلب المسافرين، إلا أنه -لحسن الحظ- لم نصادف شيئا من ذلك. أما في دير الزور فنزلنا في خان أو فندق أشبه بخان من الخانات الموجودة في القرى الكبيرة أو المدن الصغيرة، وكانت دير الزور بلدة صغيرة.

وفي اليوم الثالث توجهنا إلى مدينة حلب، فوصلناها ونزلنا في فندق لا بأس به صغير، وربما كان يعد أحسن فندق فيها، ولا أتذكر اسمه، وكل ما أتذكر عنه أن فيه مضخة لتسحب الماء من صهريج، ففي ذلك الوقت كان الماء يجمع في صهاريج من المطر الساقط على السطوح ثم يسحب منها بمضخات يدوية عند الحاجة. وبقينا في حلب ثلاثة أو اربعة ايام، لا اتذكر الآن، لان الدكتور داود قصير كانت له علاقة مع عائلة تجارية معروفة لست متأكدا من اسمها ولذلك لا أتذكرها، وكان يتعامل مع هؤلاء التجار فيستورد منهم الغزول والصابون وغير ذلك، لصيدليته اذ هو -كما قلت سابقا- قد تخرج من بيروت في الصيدلة والرياضيات، فكان يدرس

الرياضيات في الثانوية ،وأحد اقاربه يدير صيدلية تعد احسن صيدلية بالموصل في وقتها.

إن مدينة حلب وأهالي حلب يشبهون أهل الموصل في كثير من الوجوه،في العادات وفي الاطعمة وغير ذلك. وقد دعتنا هذه العائلة التجارية إلى الطعام مرارا أثناء بقائنا في حلب. ولم يكن داود قصير هو الوحيد الذي تربطه علاقة مع اهالي حلب فهنالك كثير من العوائل يتاجرون مع أهل حلب. واتذكر أن والدي وعديله كانا يرسلون قطعانا من الخراف (ذكور الغنم) لبيعها في حلب، وكانت هذه القطعان تساق سوقا فترعى الكلأ في طريقها حتى تصل إلى حلب. وكانت هذه تجارة رائجة يتعاطاها كثير من العوائل.

وبعد انقضاء هذه الايام ركبنا بقطار أوصلنا إلى طرابلس فقط، ولم نمكث في طرابلس بل أستأجرنا سيارة أحسن بكثير من السيارة التي استقليناها من الموصل، فأوصلتنا إلى بيروت عبر الطريق الساحلي. وكان منظر البحر والطريق ممتعا جدا. ونزلنا عند وصولنا في بيروت في فندق لا أتذكر اسمه يشرف على ساحة البرج.

وفي مساء اليوم نفسه حضر إلى الفندق الأستاذ توفيق قشوع، وهو أيضا من أساتذتي في الثانوية، وكان يدرسنا الكيمياء والحكمة الطبيعية (الفيزياء)، وهو لبناني، ومن زملاء الدكتور قصير، فاستصحب زميله لقضاء السهرة في الجبل، أما انا فبقيت في الفندق لاني ما زلت أعاني من رمد العينين، وكان الدكتور داود قصير –والحق يقال– يعالجني في الطريق، وطول مكثه معي كان يحمل معه بعض الأدوية وقطرات العين إلى أن شفيت. وفي أحد الأيام صعد بي إلى الجبل وأدخلني في مدرسة (برمانه) الصيفية الداخلية، وكانت الأجرة جد قليلة ، وهي أربعة عشر دينارا عن الدراسة والمبيت والطعام، وقضيت ذلك الصيف في هذه

المدرسة، مستمتعا بالمناخ الطيب إلى أن فتحت الجامعة أبوابها، فـالتحقت بها. أما الاستاذ داود فسافر إلى امريكا للحصول على الدكتـوراه، وقـد حصل فيما بعد على الشهادة وعاد إلى التدريس في الموصل. ان الدراسة في هذه المدرسة هي اختيارية فالصف الذي أريد أن أحضـره أحضـره، والذي لا أريد أن أحضره لا أفعل، وليست هنالك أية امتحانات أو غـير ذلك، فاستفدت واستمتعت بهذه الدراسة جدا، إذ أعانتني كثيرا في متابعة دراستي الجامعية.

وبينما أنا كنت أدرس في هذه المدرسة، سمعت بوصـول الاستاذ محمد حبيب العبيدي للاصطياف في برمانه، وأنه نزل في فنـدق الارز، وهو من أقاربنا كما سيرد البحث عن ذلك فيما بعد، فزرتـه فـي فندقـه عصرا وسر برؤيتي، وطلب مني أن اتردد عليه كل يوم، فكنت عصر كل يوم أذهب إلى الفندق وأقضي معه بعض الوقت حتى الساعة العشرة مساء ثم أعود إلى القسم الداخلي في المدرسة، وكانت أمسيات ممتعة. وبمـا أن للأستاذ العبيدي أصدقاء كثيرون، في لبنان وسوريا وغيرها مـن البـلاد يعرفونه من خلال شعره ومن سفراته المتعددة، فقد كنا نتردد علـى أحـد البيوتات -التي لا أتذكر صاحبها- في القرية القريبة واسمها (بيت مـرى) حيث نلتقي هنالك بشخصيات محترمة، أذكر منهم الأستاذ فائز الخـوري، ولا أتذكر أسماء الباقين بالضبط، فيقضون الوقت فـي لعبـة الشـطرنج، ويتجاذبون الحديث في شتى المواضيع، ويخوضون في أبحـاث علميـة ولغوية وسياسية وأدبية، وكنت أنا أصغي إليهم وأشاهد اللعبة، ثم نعود إلى برمانه حوالي الساعة العاشرة. وكنا في الذهاب أو في العودة نقطع هـذه المسافة مشيا على الأقدام لأنها لم تكن بعيدة، وكان الاستاذ ما يزال قويـا، وأنا بالطبع قادر على ذلك لصغر سني.

والحياة الاجتماعية في الجامعة مختلفة عن الحياة المدرسية، فالمعيشة تكون في داخل الجامعة نفسها، فلا عودة في المساء إلى الأهل كما كنا نتصورعندما كنا في المدرسة الابتدائية أو الثانوية، وان كنا قد عشنا هذه التجربة بالصدفة المحضة حينما اضطرت وزارة المعارف إلى أن ترتب للطلاب الوافدين إلى بغداد الحضور إلى العاصمة للعيش لمدة شهر قبل الامتحانات في بناية القسم الداخلي لمدرسة الهندسة والصناعة مقابل الثانوية المركزية، تلك البناية التي اتخذت في العهد الملكي لاجتماعات مجلس النواب، وبعد ١٤ تموز ١٩٥٨ اتخذت قصرا لعقد جلسات محكمة الثورة[٩٠] برئاسة المهداوي، فقد كانت هذه الإقامة مقدمة ولو قصيرة للعيش في القسم الداخلي . وكان من نظام الجامعة أن طلاب الصف الأول في الجامعة يقيمون في قاعات نوم تتسع لعشرة، ولحد خمسة عشر طالبا معا، أما في الصف الثاني فيجوز استئجار غرفة خصوصية مقابل أجر اضافي في الجامعة ذاتها تتسع لشخصين، أما الصفوف الاعلى الثالث والرابع فيجوز للطالب أن يسكن خارج الجامعة.

وكان لنا ملء الحرية في أن نمارس عاداتنا وشعائرنا الدينية رغم أن الجامعة كانت أصلا تبشيرية. وكنت أنا اؤدي صلواتي وأصوم

---

[٩٠] هي المحكمة العسكرية الخاصة، وقد سميت بصفة غير رسمية بمحكمة الشعب.واستمرت هذه المحكمة تشغل القصر المذكور، حتى قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣، وكان مبناها في الأصل مدرسة أنشأها علاء الدين السكرجي في أواخر القرن السابع للهجرة، ثم أنشأ في موضعها والي بغداد علي باشا سنة ١١٧٦هـ/١٧٦٢م مدرسة عرفت بالمدرسة العلية، واتخذت هذه المدرسة دارا لأول مدرسة صناعية في العراق سنة ١٨٧٠، فقصرا للملك فيصل الأول، فمجلسا نيابيا. وفي سنة ١٩٦٤ أتخذ القصر متحفا عسكريا، ثم أعيد ، سنة ١٩٨٠، تجديده بصفة شاملة ليصبح بعدها قصرا للثقافة والفنون، وفي سنة ١٩٩٧ أتخذ مقرا لمؤسسة (بيت الحكمة) الثقافية.

رمضان، وفي رمضان تبقى الدروس كما هي لا تقل ولا تتغير أوقاتـــها، ومن يريد الصيام من المسلمين يسترد من الجامعة الاجور المستوفاة منـــه عن الطعام لمدة شهر، وله الحق ان يفطـــر ويشـــتري بعــض الأطعمـــة للسحور من المطاعم الموجودة خارج سور الجامعة. لقد كانت العـادة، ولا أعلم لماذا، أن تطفأ الاضواء داخل الجامعة في الساعة العاشـــرة مســاء، ليس في شهر رمضان فقط بل طوال السنة الدراسية، ولذلك فعلى الصـــائم أن يتناول طعام السحور قبل العاشرة إلا إذا كانت لديـــه وسـيلة انـارة خاصة.

تفتح كنيسة الجامعة يوم الأحد لمن يريد الصلاة من كافة الطوائـف، وبضمن ذلك المسلمين، إلا أن الطلاّب لا يضطرون إلـــى الذهــاب إلـــى الكنيسة جبرا، بل توجد اجتماعات بديلة في وسع كل طالب لا يريد الذهاب إلى الكنيسة أن يحضر هذه الاجتماعات البديلة، حيث تعالج فيها مواضـــع اخرى اجتماعية وأخلاقية للاستفادة وللتعود على المناقشة. كما توجد داخل الجامعة جمعيات يمكن الانتماء إليها.

لقد لاحظت أن الاساتذة لم يأتوا لقضاء وقت قصير لقاء الرواتـــب التي يتقاضونها بل أتوا ليبقوا وليؤسسوا حياة جديدة، ولقد وفرت الجامعـــة لهم كل وسائل الراحة فقد أنشأت لهم مساكن، والجامعة واقعة في مكـــان ممتاز وتشرف على البحر من رأس بيروت وفيها ساحات وميادين لشـــتى الالعاب الرياضية من كرة قدم إلى الهوكي وساحات التنس، كما وفي بيتها توجد مستلزمات الالعاب الداخلية.

ان الدور التي قد شيدتها الجامعة لهم تشرف على البحر، وتمتد مـــن الجامعة إلى البحر تقريبا، ولمدة مكثهم الطويلة فقـــد ولـــد أبنـــاؤهم فـــي بيروت، ونشأوا فيها إلى أن اصبحوا رجالا ونساء كبارا، بل أن بعضـــهم أصبحوا أساتذة في نفس الجامعة،وبعد تقاعد الأباء. وأذكر منهم المســـتر

كروفرد الاب والابن فقد كانا في الجامعة، والاستاذ فانديك، فأني لم أدرك وقتما كان الاب استاذا في الجامعة، ولكن أدركت الابن، وكـــان الاخـــير كبيرا في سن السبعين أو أكثر، وكان يلقى بعض المحاضرات الخاصة من وقت لآخر حيث يحضرها ليس فقط الطلاب بل الاساتذة أيضـــا لغـــزارة مادتها وللاحترام الذي يكنه له الجميع، وهو أيضا استاذ متقـــاعد، وكـــان رغم مكانته متواضعا للغاية، فمرارا كنت أراه جالسا على أحد الحجـــارة التي تحدد بعض ساحات الجامعة يحادث أن أحد خدم الجامعـــة القدمـــاء وبالضبط كان يجالس المسؤول عن تنظيف التأسيسات الصحية، وقد نسيت اسمه وكأنه هو وهذا المستخدم في درجة واحدة، وقد سمعت أن ابن هـــذا المستخدم تثقف في الجامعة ثقافة عالية وكان في شـــبابه يخشـــى زيـــارة هؤلاء الاساتذة، ومن جملتهم الدكتور فانديك، في دارهم، اذ كان لا يريـــد أن يعرف هؤلاء الاساتذة إنه هو ابن هذا المستخدم.

لقد مكث هؤلاء الأساتذة مدة طويلة في الشرق، وفي رحاب الجامعة بالذات، بحيث أنهم درسوا الأحوال الاجتماعية وتشربوا بـــها، وصـــاروا كأنهم أحد أفراد الشعب، كما انهم خدموا العلم أجل خدمة، فلقد علمـــت أن الدكتور فانديك الوالد كان قد ألف باللغة العربية كتبا تبحث فـــي العلـــوم البيولوجية والفيزيائية، وعلمت أيضا أن فانديك -ولا اتذكر مـــا إذا كـــان فانديك الأب أو الابن- هو الذي كان قد تتبـــع حيـــاة الحيـــوان الصغـــير (الحرباء) لمدة ٢٥ سنة، وانا بنفسي أتذكر اني شاهدت مؤلفا للابـــن فـــي علم الحيوان باللغة الانكليزية. ولشدة تأثره بالحيـــاة الشـــرقية والعربيـــة واحترامه للشخصيات العربية والاسلامية، فإنه قد استشهد ، أو بـــالأحرى قد صدر كتابه هذا ببيت الشعر الذي ينسب للامام علي كـــرم الله وجهـــه حيث قال فيه:

كن للحـــق عبـــدا   فعبد الحـــق حـــر

قلت ان هؤلاء الأساتذة لم يأتوا بقصد البقاء مدة قصيرة، بل أتوا ليمكثوا في الشرق بقية حياتهم، ويتخذوا من البحث العلمي الخالص والتدريس ونشر الثقافة مسارا دائما لحياتهم في هذه البلاد، فأستاذ اللغة الانكليزية وكان اسمه المستر سميث تعلم اللغة العربية وتثقف بها استدلالا من رسالته حول التعابير العربية والأغلاط الشائعة التي كان يرتكبها الطلاب العرب في التعبير بالانكليزية نتيجة ترجمتهم التعبير العربي حرفيا. فكان قد جمع هذه الاغلاط الشائعة في رسالة أو كراسة صغيرة مفيدة للطلاب العرب، لأنها تجنبهم الوقوع في الغلط بالتعبير، مثال ذلك أننا نقول باللغة العربية أنا سوف أقصر أو أقص شعري، بينما في الانكليزية يجب أن يقال انا ذاهب لأقص شعري I am going to have a hair cat وهكذا. واسم هذه الرسالة أو الكراس English Arabic Idioms .

ولم يكن التدريس محصورا في الاساتذة الامريكان فحتى المناصب العليا التدريسية لم تكن خكرا عليهم، فإدارة الجامعة لا تتردد في اعطاء هذه المناصب لكل من تتوسم به الكفاءة العلمية من عرب وشرقيين، فهذه كرسي قسم التاريخ كان قد شغله الاستاذ أو الدكتور (أسد رستم)[٩٦]، وكرسي مادة الرياضيات والفلك شغله الاستاذ (جرداق)[٩٧]، وكرس اللغة

---

[٩٦] مؤرخ لبناني، ولد سنة ١٨٩٧ وتعلم في الجامعة الإمريكية ببيروت، وفي جامعات أمريكية أخرى، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة شيكاغو سنة ١٩٢٤، وعين أستاذا في الجامعة اللبنانية وفي الجامعة الأمريكية في بيروت، توفي سنة١٩٦٥.

[٩٧] هو منصور حنا جرداق، فلكي لبناني، كان أستاذا للرياضيات العالية وعلم الفلك في الجامعة الأمريكية ببيروت، وله مؤلفات عدة في الحساب والفلك.

العربية احتله (أنيس خوري المقدسي)[٩٨]، هذا ما أعرفه من مشاهدتي اثناء دراستي في الجامعة ولا أعلم ما إذا كان غيرهم قد جاء قبل التحاقي بالجامعة أو بعد تركي لها مما دل على روح التسامح التي سادت جو هذه الجامعة. لقد أدت هذه الجامعة -والحق يقال- خدمة لا تقدر في مجالات نشر العلم والثقافة في الشرق، ذلك أن عددا كبيرا من مشاهير رجالات الشرق ،سواء في عالم السياسة أو الادب أو العلم، كانوا من خريجي هذه الجامعة، وأذكر منهم فقط ممن عاصرتهم في الجامعة، وان كانوا في صفوف أعلى :شارل مالك ، وإسماعيل الازهري، والدكتور فاضل الجمالي.

لقد كان ملحقا بالجامعة مستشفاها التعليمي، وكان أشهر مستشفى في الشرق يؤمه المرضى في جميع الأقطار المجاورة لاجراء أعقد العمليات.

كما كان في الجامعة متحف ومرصد فلكي يؤمهما الزائرون في كل من ايام الاسبوع.

لقد قضيت سنتين من أطيب سني عمري في هذه الجامعة، أنهيت فيهما المرحلتين الأولى والثانية، ولما كنت أرغب في الدراسة الهندسية المدنية، فقد لاحظت ان هذا الفرع الذي دخلته تغلب عليه العلوم الرياضية النظرية أزيد من الناحية المهنية، والظاهر ان الناحية المهنية كانت موجودة في هذه الجامعة وبعض فروع الهندسة سابقا، ولسبب ما ألغيت في بعض السنين، وما يدل على وجودها انك تجد في بعض قاعات Bliss Hall آثار (براغي) وأساسات لبعض الأجهزة كالدينموات والموتورات والمولدات، ولكنها رفعت واتخذت قاعات للرسم الهندسي والمحاضرات، ويظهر أنه قبل أن ألتحق بالجامعة ببضع سنين فقط قد فكر

---

[٩٨] أديب، أصله من القدس، تعلم في الجامعة الأمريكية ببيروت، وأصدر مجلة النفائس الشهرية، وتوفي سنة ١٩٢٠.

باعادة تكوين فروع الهندسة فأدخل موضوع المقاومة في الصف الثـــالث مما يدل على ان هذه الفروع ما زالت غير مكتملة، ولذلك فقد قررت ترك الجامعة والالتحاق باحدى الجامعات البريطانية أو الاســـترالية، وأخــيرا قررت الالتحاق بجامعة برمنكهام البريطانية، ففتحت مخابرات مباشرة مع ادارة هذه الجامعة وليس عن طريق وزارة المعارف رغـــم إنـــي كنــت مرتبطا بها بصفتي طلب بعثة. إن الدخول في الجامعات البريطانية تتطلب اجتياز امتحان الحصول على الــ G.E.E بغض النظر عـــن التحصيــل العلمي الذي تم للطالب خارج بريطانيا ما لم يكن الطلب قد حصل علـــى الــ G.E.E من تلك الاقطار في نفس الوقت إلى جانب تحصيله العام. ولم يكن اجتياز هذا الامتحان بالأمر السهل قياسا على تـــاريخ مـــن ســبقونا للالتحاق بهذه الجامعة. ولكن مفاوضاتي أسفرت بالتالي عـــن الاعـــتراف بتحصيلي في جامعة بيروت واجتيازي للصفين الأول والثـــاني بدرجـــات عالية، وعودلت دراستي لشهادة Matriculation واصبحت قاعدة لكـــل من يحصل على شهادة الصف الثاني ولكن بدرجات عالية، وهكذا التحـــق عدد كبير من طلاب جامعة بيروت بجامعة برمنكـــهام بعـــدي بالطريقـــه نفسها.

بقي أن أقنع وزارة المعارف بالموافقة على نقل بعثتي إلى انكلترا، ولقد تعنتت السلطات في أول الامر في الموافقة، على أساس انهم بحاجـــة إلى معلمين أو مدرسين وليس إلى مهندسين، وبعـــد مراجعـــات طويلـــة، ومعرفتهم بأني قد حصلت على القبول بدون امتحان الدخول في الجامعـــة البريطانية، وافقت وزارة المعارف على الانتقال على أن أرد إلى الـــوزارة ما صرفته على خلال السنتين السابقتين في بيروت، ولم يكن المبلغ كبـــيرا فهو مائتي باون فقط.

برمنكهام

لو أني اخترت أن التحق باحدى الجامعات الاميركية لكان الأمر أسهل ولكنت قبلت في الصف الثالث مباشرة وحصلت على الشهادة في مدة سنتين فقط بعد دخولي الجامعة، بينما في اختياري جامعة بريطانية اقتضى الأمر أن أمكث سنتين أخرى، إذ قبلت في الصف الأول واعفيت فقط من امتحان القبول، ولكني لست آسفا على السنتين الاضافيتين لأني استفدت من عدة جهات، أولها اتقان اللغة بدرجة أكبر، والتشرب بالحياة الغربية والحياة الجامعية من جهة أخرى.

لقد كان الوصول هذه المرة إلى بلد الجامعة عن طريق الصحراء، من بغداد إلى بيروت، ثم بالباخرة من بيروت إلى مرسيليا في فرنسا، ثم بقطار إلى باريس فكالي ميناء فرنسا على بحر المانش، ثم بالباخرة عبر المانش إلى دوفر ثم بالقطار إلى لندن وبعد المكوث يوم أو يومين في لندن راجعت خلالها وكلاء التاج لأنهم كانوا آنذاك يمثلون الحكومة في هكذا أمور وفي الشراءات وغير ذلك. ثم بالقطار إلى برمنكهام ، حيث تلقاني أحد اصدقائي من الطلاب الذين سبقوني إلى برمنكهام على حسابهم الخاص، وان كانوا مع الاسف لم يتخرجوا فيها لانهم لم يعفوا من امتحان القبول ولم يجتازوا امتحانات القبول Matriculation، والتي كان عليهم اجتيازهم قبل التخرج بغض النظر عن اجتيازهم الامتحانات في الدروس الجامعية، واجتيازهم صفوفها. وفي الحقيقة فإن مثل هؤلاء لم ينتظروا حتى الصف المنتهي لادراكهم عدم امكان عبور امتحان القبول نتيجة فشلهم المتكرر.

كان علي ان أجد فندقا لأنزل به أياما إلى ان أجد دارا يقبل النزلاء، وقد كان في برمنكهام في ذلك الوقت فندقان هما أحسن الفنادق، وكلاهما يعود للسكك الحديد، فراجعنا أحدهما فكان ممتلئا بالنزلاء، أما الثاني

فكانت فيه غرفة واحدة خالية وتحمل الرقم (١٣)، ويظهر أنها بقيت خالية لأن الانكليز يتشاءمون من الرقم (١٣) وقبلت فيها. ثم انتقلت بعد يومين لأسكن مع عائلة في دارها، وأصبحت بعد مدة قصيرة كأني أحد أفرادها، وكانت هذه الدار واقعة على شارع (بريستول) الذي تسير فيه قطارات الترامواي الذي يمر أمام الجامعة.

وبعد أيام بدأت الدروس بالجامعة، فراجعت المسجل، ودخلت في الجامعة. وقد رأيت فرقا بين الدراسة في هذه الجامعة والدراسة في الثانويات في العراق، وكذلك في الجامعة الامريكية في بيروت، فليست هنالك كتب مقررة بل كل ما هنالك أنهم يذكرون لك عناوين عدد من الكتب كمراجع، ثم يأتي الاستاذ ليلقي محاضرته، وعليك ان تتلقاها باتقان وتدونها في دفاترك. وقد لا تجد مادة هذه المحاضرة في المراجع التي زودت بأسمائها وعناوينها بصورة مجتمعة، ولذلك يجب ان يكون الطالب منتبها وملما باللغة الانكليزية كل المام ليستطيع تتبع الموضوع، كما انه لا توجد امتحانات يومية أو اسبوعية أو شهرية كما هو الحال في الثانوية أو في الجامعة الامريكية في بيروت، حيث كانت تلقى المحاضرة اليوم يتبعها خلال الايام التالية ما كنا نسميه تسميع أي محاضرات Lectures يتبعها تسميع Recitation وهو الحال المتبع في الجامعات الامريكية أيضا، إذ ان الجامعة في بيروت كانت تتبع النظام القائم في امريكا، ففي امريكا توجد كتب معينة مقررة يعلم الطالب باقتنائها في أول السنة، وربما يتبع المحاضر محتوياتها فصلا فصلا. وكثيرا ما يصدف أن تكون هذه الكتب من مؤلفات المحاضر نفسه وإن لم يكن هنالك كتاب مؤلف ومطبوع فتجد أن المحاضرات التي تلقي أثناء السنة قد أعدها الاستاذ وطبعها بالرونيو ووزعها على الطلاب من أول يوم في السنة. ونظام التسميع والامتحانات الكثيرة من يومية وأسبوعية وشهرية وفصلية، المتبعة بانتظام، تحت

الطالب على الاجتهاد والدرس ان لم يكن هو لديه دافع ذاتي يدفعه إلى الدرس من غير سَوْق. وأعتقد أن هذا هو الفارق المهم بين نظامي التدريس في كل من بريطانيا وامريكا، وفي تقديري انه ما لم يكن ذكاء الطالب فوق المتوسط وله هو رغبة قوية في الدرس من دون الحاجة إلى سائق يحثه، فلا يُنصح بارساله إلى بريطانيا إذ أن مصيره الفشل، وإذا كان لابد من ارسال هكذا طالب إلى الخارج، فالأرجح أن يُرسل إلى امريكا، وعندما اقول ذلك لا اقصد أن مستوى الدراسة في امريكا هو أقل من مستوى الدراسة في بريطانيا، بل انما النجاح مضمون أكثر في امريكا بسبب متابعة ادارة الجامعات الامريكية لسلوك طلابها وملاحقتهم في دراستهم واجتهادهم.

أعتقد ان الفرق بين النظامين راجع إلى أن الانكليز يعتقدون إن من قد وصل في الدراسة إلى مرحلة الدراسة الجامعية يكون قد وصل إلى مرحلة الكمال المثلى وفي كل شيء، ويجب ان يعرف هو مصلحته ولا يحتاج إلى الحث والملاحقة. اني أعرف صفوفا منتهية في بريطانيا قد انتهت بتخرج واحد أو اثنين فقط من مجموع أكثر من عشرة بدءوا في الصف الأول.

الآن وقد كثرت الكليات وتنوعت اختصاصاتها في العراق، وأصبحت لدينا –والحمد لله – جامعات ذوات مناهج دراسية لا تقل عن مناهج مثيلاتها في الخارج ، فلا أعتقد بصواب ارسال الطلاب إلى الخارج لأخذ الشهادات الأولية بل فقط لنيل الشهادات الأعلى في بعض الاختصاصات، وذلك من ناحية اقتصادية ولضمان النجاح للطالب. والعيب الوحيد في هذه الطريقة هو عدم اتقان اللغة الاجنبية، لأسباب معلومة، إذ ان الملاحظ أن من يذهب لنيل الماجستير فما فوق بعد نيل الشهادات الاولية في العراق سوف لن يتقن اللغة الاجنبية مثل الذي يتقنها في أثناء

نيل الشهادة الاولية في الخارج، ودرجة اهمية ذلك يتوقف على أمور عدة وكل قضية حسب ظروفها.

لقد وقعت لي ثلاث حوادث طفيفة أثناء طلبي للعلم في الخارج لا تخلو من الطرافة وتكاد تكون مضحكة، وخاصة ما وقع لي في أول عهدي هناك. قلت: قد نزلتُ أول وصولي لجامعة برمنكهام في أحد فنادق السكك الحديدية، وكان هذا الفندق ومثيله من أحسن الفنادق في برمنكهام. وفي صباح اليوم التالي لنزولي في هذا الفندق نزلت إلى صالة الطعام لتناول الفطور، ولم يكن فيها كثيرون بعد، وجاءني مُقدّم الطعام وسألني ما إذا اريد ان أبدأ فطوري به، فتصفحت القائمة ولم أفهم نوع الاطعمة المذكورة فيها، فأشرت إلى كلمة porridgc وهي من المأكولات التي يبدأ فيها، لكني لم أعرف كيف تؤكل، وهي تشبه نوعاً من العصيدة، فذقتها فإذا هي غير مستساغة، ولمحت عيني بعد لحظة نزيلاً آخراً يجلس على مائدة قريبة وقد طلب الصنف ذاته ، فلاحظته يسكب على هذه العصيدة حليباً ويذرّ عليها السكر الناعم، وحينذاك أدركت أنها لابد أن تكون لذيذة كذلك. إلاّ ان كبريائي أبى عليّ ان أقلده وأُعلن جهلي، فأكلتها إلى آخرها و أعلم ما دار في خلده تجاهي، واعتقد انه تعمد طلب الصنف نفسه بقصد تعليمي بالمشاهدة، لانه ليس من عادة الفرد الانكليزي أن يتدخل في أمر لم يُسأل عنه. وإخفاء لجهلي تركت على المائدة لمقدم الطعام شلناً واحداً (كبخشيش)، والشلن الواحد في ذلك الوقت كان مبلغاً كبيراً لا يعطى في وجبة الفطور، فنلت احترامه، ولابد أنه فسَّر عملي بأني لا استسيغ اكل هذه الأكلة مع السكر، لكني لم اطلبها مرة اخرى.

انتقلت إلى دار لأسكن مع عائلة انكليزية، وكان يسكن في الدار طالبٌ آخر وهو هندي مسلم، وابن صاحبة البيت، وكانا في سني أو أكبر مني بسنة أو سنتين، وبعد مدة غير طويلة اشتد البرد وجمدت البحيرة في

بارك (الحديقة العامة)، cannon hill park، فتراكض الانكليز إلى الحديقة شبانا وشابات صغارا وكبارا وصاروا يتزحلقون على سطح البحيرة، وصار ابن صاحبة البيت وصديقي الطالب الهندي وأصدقاؤهما يحثوني على الزحلقة مثلهم. ولم تكن لي دربة على مثل هذه الرياضة، ولا ادري كيف اقتنعت فعدت إلى الوراء لابدأ مثلهم وبسرعة اندفعت، وعندما جانبتهم أعطوني دفعة في ظهري ليزيدوا من اندفاعي، واذا بي أجد نفسي ملقى على الجليد، وكأن عيني قد انقدحت، فلحقوني وأقاموني على رجلي، وإذا بوجهي قد تخدش الخد الأيسر منه خدشا قويا وأخذ يقطر دما، وعيني اليسرى قد اسود الجلد المحيط بها. وبالطبع لم أظهر شيئا وضحكت معهم. وقفلت راجعا إلى الطبيب الذي كانت الحكومة العراقية قد عينته لتطبيب الطلاب العراقيين، فضمدني وبدوت كأنني قد عدت من ساحة حرب، ولم يظهر من وجهي ورأسي من كثرة اللفائف سوى عيني اليمنى. وبعد مدة شفي الجرح، ولكن أثر هذه السقطة ما يزال موجودا في وجهي، مختلف اللون عن بقية جلد الوجه.

وفي المرة الثالثة، ويجب ان يكون ذلك بعد أن مكثت في الجامعة ثلاث سنوات لأنني كنت في الصف الثالث، وكان طلاب الهندسة المدنية في الصف الثالث ينتقلون إلى قاعة رسم خاصة بهم، وتقع هذه القاعة داخل قاعة أكبر، والقاعة الثانية داخل قاعة أكثر اتساعا. وفي يوم الجمعة، ذهبت إلى القاعة لأعمل في الرسم الذي كان بيدي، وكان ثمة آخرون في القاعات الأخرى، ويظهر أني كنت منشغلا ومكبا على العمل، إلى حد إني لم أشعر بالصمت الذي خيم على القاعات الاخرى لأن من عادة الطلاب عند اشتغالهم بالرسم التكلم أو احداث أصوات صفير، فلما قررت أن انهي العمل وأعود إلى البيت وجدت القاعات التي مررت عليها خالية من الطلاب، ولما جئت إلى الباب الاخير وجدته مقفلا، ومهما حاولت فتحه لم

أفلح ، ونظرت من النوافذ فوجدت فرقة العاب كرة القدم في ميدان اللعب، ولكن عبثا حاولت ان أسمع صوتي لأحد سواء بالصياح أو بالطرق على الأبواب، فقررت ان أكسر زجاج الباب، وهو عال ومرتفع، فوجدت كرسيا صعدت عليه، وكان في قاعة الرسم قفل معدني ثقيل فطرقت الزجاج وكسرته ومع ذلك كانت الفتحة صغيرة لا استطيع النفاذ منها . ومشيت إلى آخر البناية وهي البناية الرئيسية فوجدت البواب في الصالة الواقعة في منتصف هذه البناية الطويلة ما زال موجودا فضمدني وأعطيته اسمي ليقدمه إلى الادارة، ولكني لم إسمع شيئا بعد ذلك من أي أحد.

بدء حياتي العملية

فور تخرجي من جامعة برمنكهام عدت إلى العراق حيث عينت بعنوان (نائب مهندس) في منطقة الأشغال الشمالية في الموصل، تحت التجربة، وكان ذلك في ١١ أيلول من سنة ١٩٣٢، وتثبت في هذا العنوان بتاريخ ١ حزيران سنة ١٩٣٤، ولم ألبث أن نقلت بعدها إلى شعبة ري وأشغال الموصل، في ٢٠ أيلول من السنة نفسها ثم عدت إلى منطقة الأشغال الشمالية في الموصل كرة أخرى في ١ نيسان ١٩٣٥، وفي أثناء تلك السنوات قدر لي أن استهل حياتي العملية بتصميم وتنفيذ عدد من المشاريع الهندسية التي افتخر بها، كان أبرزها تنفيذ جسر الموصل سنة ١٩٣٣-١٩٣٤.

تنهال علي الأسئلة، من وقت لآخر، عن بعض المعلومات التفصيلية المتعلقة بهذا الجسر[٦٩]، وعلى الرغم من أننا كنا نبعث بتقارير

---

[٦٩] هو الجسر المسمى (جسر نينوى) وكان موقعه يقرب من مكان الجسر الجديد، وهو من الحديد، يستند على ثمانية أزواج من الأساطين الحديدية، وجعل على استقامة شارع نينوى، مما أدى بالبلدية إلى هدم بعض المنشآت التي كانت قد=

نصف شهرية إلى مديرية الأشغال العامة ببغداد عن تقدم الأعمال، فإن قدم عهد إنشاء هذا الجسر الذي شـيد بيـن سـنتي ١٩٣٢-١٩٣٤، وتبـدل الوزارات والدوائر المسؤولة عن مثل هذه المنشآت، وانتقال الاضبـارات من دائرة إلى أخرى، قد جعل الرجوع إلى تلك التقارير أمرا صعبا،غـير أن هذه النقطة لم تفتنا عند إنشاء الجسر، فقد سجلنا المعلومات عن الأشياء غير الظاهرة، والتي لا يمكن الاهتداء إليها بالقيـاس الفعلـي، كأعمـاق الدعامات، على صفائح من حديد الصب (الآهين) ودونا عليـها عمـق الدعامة بدءا من رأسها العلوي وكنا قد ثبتنا هذه الصفائح فـي رأس كـل هيكل من هياكل الجسر، ومن الفترض أن تكون موجودة في مكانها حتـى اليوم، ويمكن لكل واحد مشاهدتها ومعاينتـها والاطـلاع عليـها ، أمـا المعلومات ألأخرى عن الجسر فهذه كلها ظاهرة ويمكـن قياسـها عنـد الحاجة.

وقد أشار على بعضهم تسجيل هذه المعلومات بشكل من الأشـكال ضمن مذكرات أو غير ذلك، فترددت أول الأمر، لأن هـذه المعلومـات ليست عن قضايا سياسية هامة حدثت في الماضي، وربمـا لا يسـتهوي ذكرها معظم الناس. ولكن خشية من أن تضيع هذه المعلومات، وتمـس الحاجة الى معرفتها، رغم وجودها في الأماكن التي ألمحت إليـها آنفـا، ونظرا لأهمية هذا الجسر، وأهمية موقعه لأنه أول جسر من نوعه أنشـئ

-أنشأتها في موقع القلعة الداخلية القديمة (إيج قلعة) أمام هذا الجسر، وهي قسـم من مقهى الحديقة، مع بضعة دكاكين وبناية نادي الموظفين التي كانت تعلو هـذه المنشآت. أما في الضفة الشرقية فإنهم بنوا أمام الجسر مسناة يمتد إليها، وتصـل إلى بناية شرطة قضاء الموصل من على القناطر الحجرية التـي كـانت تتصـل بالجسر القديم . وتمتد المسناة إلى القناطر التي على نهر الخوصر، ثـم أكملـت بمسناة أخرى تنتهي في الدورة التي يبتدئ بها شارع خير الدين العمري.

في مدينة الموصل، ويصل بين جانبي المدينة، حيث يقع في نهايـــة أهـم شارع يخترق قلب المدينة كان يعرف بجادة نينوى، فقد حصلـــت عنـدي القناعة بوجوب تسجيلها ، لاسيما وأنه قد تمس الحاجة في المستقبل إلـــى إنشاء جسر آخر بدلا عنه، وفي نفس الموقع، وعلى نفس الدعامات، فـهي قوية وتتحمل بسهولة جسرا أقوى وأضخم، وذلك بإعداد تصميـم خـاص للهيكل العلوي للجسر، يبرز هيكله خارج الدعامـــات ليعطـــي العـرض المطلوب ويظهر بمظهر حسن يليق بالمدينة، ويكون في الوقت نفسه حائزا على القوة والعرض المطلوبيين. وعلى كل حال فهذا المنشأ كـــان، فـــي حينه، أهم منشأ في المدينة، لا بل في العراق قاطبة ، ولا يسبقه إلا مثيلـه من بعض الوجوه، وهو جسر الفلوجة الأول، وهذا يمتاز علـــى الاخـير بكونه أنشئ بطريقة التنفيذ المباشر، بينما أنشئ ذاك بواسطة شركة أجنبيـة متخصصة وتحت إشراف مهندسين استشاريين. وبما أن جسر الموصـــل أعقب جسر الفلوجة مباشرة، فإن العمال الذين عملوا في بنائه كـــانوا قـد عملوا في جسر الفلوجة قبلا، وتدربوا هناك، وأكملوا تدريبهم على مثــل هذه الأعمال، في هذا الجسر وما بعده كما سيرد ذكره . وفي الحقيقة فـإن أعمال هذا الجسر كانت قد اثارت اعجاب أهالي الموصل، فعلى الرغم من أن الموقع كان محاطا بسياج من أسلاك شائكة، كنت تـــرى المشـاهدين يلازمون هذا السياج ساعات طوال ليلا ونهارا لمشاهدة العمليات المختلفة، كعمليات دق مسامير الرشيم، وكانت لعلعة مسدس الرشيم ،التـــي تشـبه لعلعة مدفع رشاش، تستهوي مسامعهم وتجلب أنظارهم. كما أن الغطـــس تحت سطح الماء داخل اسطوانة الدعامة، وتحت تأثير الهواء المضغـوط، من العمليات التي كانت تثير اعجابهم وهكذا بقية العمليات كنصب هيكـــل الجسر مع القواعد. وربما يصح القول أن العراق لم يشهد عملا مهما منـذ

إنشاء سدة الهندية , وفي زمن أقدم كثير[100]. وليس أدل على أهمية علـــى أهمية هذا المنشأ من قيام المغفور له الملك فيصل الأول بزيارة الموقع في أثناء تنفيذ العمل، وقمت أنا شخصيا بالطواف مع جلالته في المنشأ، وكان جلالته يكرر السؤال عما إذا كان كل العمال من العراقيين؟ فلما أكدت لــه ذلك سر بالجواب سرورا كبيرا. كما أن جلالة المغفورله الملك غازي كان قد زار مدينة الموصل لافتتاحه رسميا .

إني لم أقدم على الكتابة عن هذا المشروع لكونه أهم مشروع قرن به إسمي خلال حياتي الهندسية، فهنالك مشاريع مهمة أخرى أهم من هــذا واضخم إقترن بها اسمي خلال توليتي لمناصب هندسية مهمــة، منــذ أن كنت مجرد مهندس على مختلف الأعمال في مديريــة الأشــغال العامــة، فمميزا فنيا لوزارة المواصلات والأشغال العامة، فرئيسا لمهندسي أمانـــة العاصمة، فمديرا عاما للأشغال العامة، فرئيسا للهيئة الفنية فـــي مجلـس الإعمار، فوزيرا للمواصلات والأشغال العامة، فأمينا للعاصمة، ورئيســا لمصلحتي المجاري والماء وإسالة الماء، أقول لم أقدم على الكتابة عن هذا المشروع والمشاريع التي ستليه لكونها أهم المشاريع التي اضطلعت بــها، ولكن لكونها كانت أهم المشاريع الرائدة والمهمة في حينها، ولكونها تـبرز للمهندس الناشئ المشاكل الفنية والإدارية التي يلاقيها، وتحفزه على إبتداع الوسائل معالجتها بطرق بدائية ومعدات محدودة وبسيطة، وإضافة إلى ذلك فإني توخيت تسجيل المعلومات المتعلقة بها قبـــل أن تضيــع ويصعــب استخراجها من سجلاتها القديمة التي تفرقت بين مختلف الدوائر.

---

[100] أنشأته الحكومة العثمانية بين سنتي ١٩١١ و١٩١٣، وأشرف على إنشائه الخبـــير البريطاني السير وليم ويلكوكس، وكان قد أقيم ليحل محل السد الغاطس الذي أقيـم قبله بخمس وعشرين سنة، وعرف بسد (شندفير) نسبة إلى المـــهندس الفرنســـي الذي تولى إنشائه.

وبعد أن توصلت إلى هذه القناعة قلبت ما لدي من أوراق قديمة، فعثرت على كلمة كنت قد أعددتها لإلقائها بحضور المغفور له جلالة الملك غازي، ولكن هذه الكلمة لم تلق، إذ كان قد حضر مع جلالته الوزير المختص، وقد أعد هو كلمة قصيرة للترحيب، ولم يرغب باطالة الحفل. ومع ذلك فقد أفادتني هذه الكلمة التي قد اصفرت أوراقها فإن المعلومات التي فيها كانت مطابقة للمعلومات التي كنت قد أعطيتها للمسؤولين شفهيا واعتمادا على ذاكرتي، وقد احتوت أيضا على بعض المعلومات الاضافية المفيدة، وهأنذا أنقلها فيما يلي:-

ان طول القسم الحديدي من الجسر هو ٩٨٤ قدما ونصف قدم، وعرضه الخارجي هو ٣٦ قدما، خصص منه ١٨ قدما في الوسط للسيارات والحيوانات، وخمسة أقدام على كل جانب للمشاة .

يتكون هذا الجسر من ثمان قطع مستقلة عن بعضها، تزن واحدة منها ١٣٠ طنا.

إن مستوى سطح الجسر هو ٥ ٩.٠٣ قدما بموجب مقياس الري الخشبي المثبت قرب موقع الجسر لرصد المنسوب، وأعلى مستوى بلغه أيام الفيضان في سنة ١٩١٩ بالنسبة للمقياس نفسه هو ٨.٩٥ قدما ، وليس معلوما لدي ما إذا كانت تأشيرات هذا المقياس هي اعتبارية او حقيقية بالنسبة لسطح البحر، ومهما تكن فإن الفرق بين مستوى سطح الجسر وفيضان ١٩١٩ (وهو أعلى فيضان سجل من قبل الحكومات العراقية الى تاريخ انشاء الجسر) يبقى ثابتا وهو ٥ ,٨ قدما . وقد علمت بأن في أحد الفيضانات التي وقعت بعد انشاء الجسر بمدة طويلة ارتفع ماء النهر إلى مستوى أعلى من سطح الجسر بعدة أقدام لمدة قصيرة، وعلى كل حال فإن ارتفاع الماء في أي فيضان أكبر لا يحتمل أن يشكل خطرا على الجسر، ولا يؤدي إلى رفعه او اقتلاعه، لأن فتحات الهيكل كبيرة، والنهر في هذا

المكان لا يقتلع ولا يحمل اشجارا كبيرة تتراكم على جانبه وتشكل حاجزا ضد التيار فتعمل على قلبه، كما حدث مرة في جسر جاما في منطقة بارزان في شمال العراق[١٠١]، وهو الذي يقع في مدخل مضيق ينعطف فجأة، ولذلك يرتفع النهر هناك كثيرا ويجلب اشجارا كبيرة تشكل حاجزا ضد الماء.

كان يمكن مرور دبابتين على كل قطعة من الجسر في آن واحد، زنة الواحدة منها تساوي (٧٥) طنا، على أن لا تقل المسافة بين الواحدة والأخرى عن العشرين قدما، هذا على أساس أن سطح الجسر مكون من صفائح مضلعة توخيا للخفة.ثم أني علمت أن السطح قد استبدل فيما بعد بسطح من الكونكريت المسلح، فيجب والحالة هذه تعديل الحمولة بموجب الفرق بين زنة السطحين، هذا وأرجو الرجوع الى الملاحظة التي أبديتها في آخر هذا البحث عن قابلية تحمل الجسر استنادا الى التحليلات والحسابات التي أجرتها المديرية المختصة .

حفرت الدعامات بطريقة الهواء المضغوط، وليس هنا مجال لوصف هذه الطريقة، والتي يستعمل فيها القفل الهوائي Air Lock للدخول والخروج من الاسطوانة . وينزل المهندسون والعمال الى قطر الاسطوانة الحديدية بكامل أجسامهم وعددهم ليقفوا على قاع من الأرض اليابسة الجافة، حيث أن الماء يكون قد اندفع الى الخارج بفعل الهواء المضغوط، ويباشروا الحفر بالقزمات والكركات والأجهزة الأخرى ، ويرون ما يجرى بأعينهم، خلافا للطرق الحديثة التي تستعمل فيها مختلف أنواع الركائز المبتكرة، والتي يدار الحفر فيها وتملأ بالكونكريت من الخارج دون أن

---

[١٠١] صمم هذا الجسر المفتش العام للأشغال (بوفر) وهو الذي سوف يوجه أليه مؤلف نقدا فيما يلي من مذكراته، وقد أعيد بناؤه بعد ذلك بخبرة عراقية خالصة، حيث صممه وأشرف على بناءه المهندس إسماعيل عريان.

ينزل العامل في داخلها. وبطبيعة الحال فإن صلاح العملية يتوقف على دقة شعور وخبرة المشغل عند ملئها بالكونكريت وسحب الغلاف، دون احتمال انهيار واندفاع التربة نحو جسم الركيزة وتخصرها وتقليل قطرها.وتعد الطريقة التي اتبعناها في جسر الموصل والجسور الأربعة الأولى[102] في بغداد هي الطريقة القديمة، وهي مكلفة بالمقارنة بالطرق الحديثة، إلا أن بعض المهندسين يفضلونها على الطرائق الحديثة باستعمال مختلف الركائز، لا بل يصرون عليها في بعض المناطق حيث توجد تربة ذات خواص معينة.

إن هذه الدعامات لم تحفر إلى مستوى واحد، وإنما أوقفت عملية الحفر في كل واحدة منها عند الوصول إلى أرض صلبة، التي غالبا ما تكون طبقة حجرية. وزيادة في التاكد من أن الطبقة الصخرية هي أصلية، وليست طبقة قشرية رقيقة، كنا نقوم بثقبها لنتاكد من ثخنها. وأقصر دعامة هي (٦٤) قدما ,وأطولها (٧٥) قدما , وطول كل دعامة مدون كما أسلفت على صفيحة من الآهين مثبتة في نهاية هيكل الجسر فوق الدعامة مباشرة . وإن قطر ما خفي من الدعامة تحت الماء ٩/٦ قدما، وما ظهر فوق سطح الماء هو ٦/٦ قدما. أما الطبقات الأرضية التي اخترقناها في حفر هذة الدعامات، فقد كانت تتألف -بعد ازالة الأطيان السطحية- من مزيج من الحصى والرمل، تليه طبقة من الطين الأزرق الذي يحتوي على كبرتيد الحديدوز، وهو بشكل مكعبات صفر تشبه

---

[102] يريد جسر المأمون (جسر الشهداء) وجسر الملك فيصل (جسر الأحرار) وجسر الملكة عالية (جسر التحرير) وجسر الأئمة.

الذهب، وقد ظنه العمال ذهبا، وله قابلية قطع الزجاج كالماس، ثم تلي هذه الطبقة الطبقة الصخرية، والتي عليها أسست الدعامات.

أما دعامة الكونكريت التي يرتكز الجسر عليها في الابتداء والنهاية، أو بالأحرى جداري الكتف الايمن والكتف الايسر، فقد أجرينا لها الحفر المفتوح الى المستوى الماء الجوفي، ومن بعد ذلك بدأنا بدق ركائز من الخرسانة المسلحة إلى أن وصلت إلى الطبقة الصلبة بحيث تهشمت رؤوسها، فأوقفنا الدق عند ذاك، ثم صببنا كونكريت الكتلة إلى المستوى والشكل المطلوب .

ومن المتوقع أن مشروعا كهذا يستمر العمل به على مدى سنتين لا يخلو من وقوع حادث ذي طرافة من نوع ما، وأتذكر أنه وقع حادث مضحك ومؤسف في آن واحد، بعد أن أكمل المشروع، وقبل افتتاحه رسميا ببضعة أيام، وإليكم تفصيل ذلك:

بينما كنا نضع اللمسات الأخيرة في صبغ الجسر وتنظيفه استعدادا لتشريف جلالة المغفور له الملك غازي لافتتاحه رسميا[١٠٣] ، وإذا ببلدية الموصل تقيم حفلة في الحديقة القريبة من الجسر على الجانب الأيسر من النهر، وكنت أنا من المدعوين إليها، وكأني توقعت حدوث أمر ما عند محاولة المدعوين عبور هذا الجسر إلى مكان الحفلة، لأن الممر البديل للوصول الى الحديقة هو المرور من على الجسر العائم القديم[١٠٤] والمسافة

---

[١٠٣] افتتح الجسر في ١٠ حزيران سنة ١٩٣٤.

[١٠٤] كان هذا الجسر يستند على سبع عشرة زورقا متينا (يسمى جسارية) ويبلغ طوله ١٢٥ ياردة، وعرضه ٢٤ قدما، وينتهي في الجهة الشرقية من النهر بطريق يمر أمام الحديقة العامة ، ثم ينعطف نحو الجنوب فيصعد القناطر الحجرية المبنية على نهر الخوصر. أما من جهة مدينة الموصل فكان أمامه ساحة إقيمت على أرض قلعة الموصل الداخلية القديمة (إيج قلعة) بعد إزالتها، وقد افتتح الجسر الجنرال-

أطول ، لذلك أمرت الموظفين بسد مدخل الجسر بلوحات خشبية، وإقامة حراس لمنع الناس من العبور عليه، وطلبت من الموظفين استدعائي إن حدث شئ. وقبل أن تبدأ الحفلة قدم أحد الموظفين وأخبرني أن الجسر قد أمر بفتحه حاكم جزاء الموصل بأمره شرطيه الذي يرافقه لحراسته، مزيلا العوارض التي وضعناها، ولم يلتفت إلى ممانعة حراسنا. وبطبيعة الحال تبعه أهالي الموصل الذين كانوا متطلعين إلى العبور عليه ورؤية الأعمال التي شاهدوها خلال سنتين، فأكتض الجسر بالعابرين إلى درجة فظيعة. وفي الحال حضرت إلى الموقع واتصلت بإدارة الشرطة، التي تمكنت أخيرا من منع الناس وسده من جديد. ونظرا لأهمية الموضوع، فإن الجسر لم يفتح رسميا من قبل جلالة الملك المتوقع تشريفه وتدشينه، فقد قمت -في الحال- بتقديم تقرير مفصل إلى المتصرفية والجهات الأخرى، وبينت الأضرار المادية التي حصلت للصبغ الجديد الطري، والأضرار المعنوية بسبب التجاوز على حقوق الملك الذي يفترض أن يقوم أولا بتدشين الجسر، ولذلك فقد أخذت هذه القضية طورا مهما، وصار لها صدى عظيم. وفي الحال لفت مهندس المنطقة الشمالية آنذاك نظري لتجاوز المرجع، فردت المديرية العامة للأشغال مهندس المنطقة مخبرة اياه بأني غير مرتبط به، وليس ثمة تجاوز مرجع، وطلبت منه سحب انذاره، وهكذا فعل. وفي الحقيقة فإن ادارة الجسر لم تكن تابعة للمنطقة، بل مرتبطة بالمديرية رأسا، وكل ما تجريه المنطقة هو ارسالها محاسبها لدفع أجور العمال.أما القضية الأصلية، أي شكواي، فقد أيدتها المديرية العامة، وتابعتها هي والادارة المحلية، وأخذت طورا جديا محرجا للحاكم

-سندرسن في ٢٣ آذار سنة ١٩٢١ وبذا فقد حل محل جسر قديم كان يقع في موضعه يرقى إلى العصر العثماني.

المتجاوز، ولم تسد في الأخير إلا بعد ما قدم الحاكم تقارير طبية تثبت أنه يعاني من انهيار عصبي واعتذاره.

أن كل المعلومات الآنفة الذكر عن جسر الموصل هي صحيحة مائة بالمائة، لأنها من صنع أيدينا، كعمق الدعامات وأقطار الاسطوانات وغير ذلك، باستثناء حمولة الجسر فهي من صنع مصمميه الأصليين، ولما لم أكن متأكدا من المصدر الذي اقتبست منه أصلا المعلومات عن حمولة الجسر، بعد مرور ما يزيد على نصف قرن على كتابتي كلمتي التي كنت قد أعددتها للإلقاء في حفلة الافتتاح، حيث جاء فيها ذكر تلك الحمولة[١٠٠]، فقد ارتأيت أن أرجع الى السلطة المسؤولة عن الجسر لأستطلع مقدار الحمولة التي اتخذتها أساسا لذلك، فعلمت أن السلطة المومى إليها، لسبب أو آخر، وربما لجهلها ما عده المصممون الأصليون الحمولة النظرية للجسر، فإنها قامت بنفسها بإجراء حسابات وتحليلات لقابلية تحمل الجسر، وتوصلت إلى أن الجسر يتحمل ألف باون (ليبرة) لكل قدم من طول كل فضاء كثقل موزع بصورة متساوية. إضافه إلى ثقل مركز كساحبة زنتها ١٣,٥٦ طنا (أي ١٤ طنا تقريبا) أو ما يعادل ذلك، واشترطت أنه عند حساب القسم المهم Momcut يفترض أن يكون الوزن المركز في الوسط. ولحساب إجهاد القص يفترض أن يكون الوزن المركز في النهاية، وهذه الحمولة تعادل حمولة (H.15) الأمريكي .

---

[١٠٠] عثرنا على نص هذه الكلمة في آرشيف السيد فخري الفخري الشخصي، وحينما قابلنا محتوياتها بالمعلومات التي ذكرها في هذا الكتاب، تبين أنها مطابقة لها تماما، وقد ختم كلمته بقوله" يمكن تلخيص ما جاء سابقا بقولي ان ما عملناه هو – –عبارة عن وضع ١٢٠٠ طنا من الحديد الفولاذي حيث يجب أن توضع، واستهلاك ٦٤٠ طنا من السمنت و١٩٣ من القير وغير ذلك من المواد الأخرى".

ولقد آن الأوان لأن أتحدث عن الهيئة الفنية المشرفة على هـــذه الأعمال، فأقول أنه مثلما كانت المعدات والأجهزة المستعملة في انجاز تلك الأعمال بسيطة ومعدودة، فكذلك الهيئة الفنية هي الأخرى كانت متواضعة فقد تكونت فقط من :-

١.مهندس مقيم (بريطاني) لم أطلع طوال المدة التي قضيناها معـــا علـــى مؤهلات علمية جامعية له رغم حدوث مناسبات عديدة جرت العـــادة أن يدون المهندسون درجتهم العلمية ازاء أسمائهم إن كانت لهم مؤهـــلات علمية عليا، وهذا لا يعني بالطبع أنه كان خاليا مـــن الثقافـــة العلميـــة بالمرة، بل العكس فقد كان يتمتع بعملومات علمية جيدة بقدر ما يحتـــاج المقام اليها بحيث لا تشعر او تحس بخلوه منها، أو أنه ينقصـــه منـــها شيء، ولذلك فقد كان استنتاجي، أنا وخلفي المرحوم السيد نيازي فتـــو، أنه ربما لم يكمل دراسته الجامعية، وربما كان قد أكمل، قبل الالتحـــاق بمعركة الحياة العملية، معهدا من المعاهد العلمية كالمساحة أو ســـواها من المعاهد الفنية، وكان بحق مثال النشاط وعلى جـــانب عظيـــم مـــن الخبرة العلمية.

٢.نائب مهندس مقيم وهو كاتب هذه الاسطر، وكان قد تخرج للتـــو مـــن جامعة برمنكهام البريطانية، وحاز على شهادة البكلوريوس في الهندســـة المدنية سنة ١٩٣٢.

٣. ناظر عمل (Foreman) عدد ٢ (بريطانيين)، وهما والد وابنه، والأب يتمتع -والحق يقال- بخبرة علمية فائقة، أما الابن فكان أقل خبرة مـــن الأب، وفي الحقيقة فإنه كان يتدرب على يد والده ، ثـــم قبيـــل انتـــهاء الفحص عزززا بثالث من درجة خبرة الابن فقط. واعتقد أنه جاءنا مـــن عمل آخر لقضاء بقية مدة تعهده مع الحكومة.

٤. مساح (عراقي) اقتصرت أعماله على اعطاء المناسيب والاستقامات فقط.

أما الأعمال الفنية فكانت مشاعة بين الذوات المذكورين في الفقرات الثلاث أعلاه على حد سواء، والكل قد مارسها بكل جد واخلاص .

وقبيل انتهاء الأعمال في جسر الموصل غادر البريطانيون بأجمعهم القطر لقضاء عطلة طويلة في انكلترا، ووقع علي وحدي مهمة الاضطلاع بالاشراف على انهاء أعمال الجسر وافتتاحه رسميا، ومن ثم رفع المعدات والمكائن الثابتة في هذا لجسر ونقلها، ونقل المكائن والمعدات غير الثابتة والمواد الانشائية المختلفة، إلى موقع جسر أسكي كلك برا ونهرا، وتأسيس محطة توليد طاقة بعد نصب المكائن نفسها في الموقع الجديد، وانشاء مخازن وموقع عمل لبدء أعمال الجسر الجديد. وقد ترتب على هذه العملية إعادة الأعمال التي أجريناها أول الأمر عند انشاء جسر الموصل، مع إنشاء بناء للسكن. ومن شأن عملية نقل نهرية كهذه أن تكون شاقة وتحتاج إلى الكثير من الصبر وتجاوز بعض الصعوبات والمخاطر. زمما كان يحتاجه المشروع أيضا إنشاء مشروع لتصفية ماء بسيطة ومبتكرة، ولم تكن هذه الاعمال الاضافية مطلوبة لإنشاء جسر الموصل، لأن الأخير كان قد أنشيء داخل المدينة، ومثل هذه المرافق كانت متوفرة فيها. وزيادة على ذلك كان علي أن اضطلع بمعالجة أمراض الملاريا والديزانتريا، وقد فصلت ذلك عند البحث عن انشاء جسر أسكي كلك في ما يأتي، فلا حاجة اذن للتكرار.

الانتقال الى جسر اسكي كلك

بعد الفراغ من انشاء جسر الموصل وافتتاحه رسميا، تقرر نقل المعدات والمواد إلى موقع جسر أسكي كلك للمباشرة في إنشائه. ويقع

هذا الجسر على نهر الزاب الكبير على بعد خمسين كيلو مترا من مدينة الموصل، على طريق الموصل أربيل. وكان انشاء هذا الجسر قد بدأه العثمانيون قبل الحرب العظمى الأولى، وأتموا إنشاء مقترباته من قناطر حجرية على غرار قناطر الخوصر التي سيأتي البحث عنها فيما بعد. وكان في نيتهم -على ما يظهر- عبور النهر بجسر من نوع ما، إلا أن وقوع الحرب حال دون ذلك. وترك هذا العمل طوال المدة بين توقف العثمانيين عن العمل إلى أن بدأنا نحن به، وفي خلال ذلك تعرضت أسس القناطر الحجرية إلى التهدم، خاصة وأن نهر الزاب في هذا الموقع شديد السرعة.

وأسكي كلك هذه قرية متوسطة الحجم، موبوءة بالملاريا والديزانتريا وسواها من الأمراض، سيما وأن نهر الزاب يترك بعد كل فيضان بركا عديدة بعضها ضحل وبعضها الآخر عميق مملوء بالماء وغير متصلة. وهذه البرك صالحة لنمو يرقات البعوض، وإن أهل القرية يقضون حاجاتهم ويتوضؤون على شواطيء النهر، ولذلك فقد كان لزاما علي إتقاء الإصابة بالملاريا بايجاد مشروع ماء مصغر يضمن لنا الحصول على الماء النقي المعقم. وسيرد فيما بعد كيفية تأمين هاتين الناحيتين.

لقد كان علي أن اقوم بما يأتي:-

(١) لقد قمت برفع المكائن الثابتة المؤسسة في محطة توليد الطاقة في جسر الموصل، والتي كانت تحتوي على ماكنة ديزل بقوة ستين حصانا، وداينمو ذي قوة (٢٠) كيلوواط، وضاغطة هواء ثابتة كبيرة عدا بعض الأجهزة الأخرى الصغيرة، ونقلها باللوريات إلى موقع جسر أسكي كلك، حيث كنت قد بدأت

بإنشاء محطة توليد الطاقة هناك. وعلى وصولها هناك كانت الأسس التي ترتكز عليها جاهزة تقريبا.

(٢) أما (الدوب النهرية) فكانت لدينا اثنتان منها، فقد نقلت نهرا إلى موقع جسر أسكي كلك.وكانت إحدى هذه (الدوب) تحمل رافعة (كرين) بخارية ذات قوة رفع خمسة أطنان والاخرى تحمل منصة دق الركائز. وقد وضعنا فوق سطح الدوبتين (البارجتين) ماكان لدينا فائضا من جسر الموصل من قطع اسطوانات الدعامات، وكذلك من بعض اعضاء الجسر من روافد وسواها. وكذلك حملنا على (الدوبتين) غرف الفصل الهوائي Air Lock وعددها اثنان، أحدهما للإستعمال في الغطس، والثانية لمعالجة من يصاب بمرض الغطس caisson disease أي ما يصاب به الشخص عندما يخرج من الاسطوانة سريعا، فيبقى بعض الهواء مذابا بدمه، مما يسبب للمصاب ألما بالمفاصل، يعالج باعادته الى الفصل الهوائي، ثم يخرج منه بصورة بطيئة.

وكنا نشتغل في الموصل عندما تصل الدعامات الى أقصى عمقها تحت ضغط يساوي ثلاثة ضغوط جوية، وهكذا الحال أيضا في أسكي كلك، إلا أنني لم أبق فيها إلى مرحلة تغطيس الاسطوانات كما سيرد ذكره فيما بعد، حيث نقلت إلى بغداد.

والشيء الممتع في نقل الدوب نهرا، هو أن هذه الدوب تنزلق مع تيار الماء في نهر دجلة إلى نقطة التقاء نهر دجلة بنهر الزاب الكبير، ولم تكن هذه العملية شاقة إذ أن التيار هو الذي يسيرها، وكل ما يفعله القائمون على قيادتها هو توجيهها ومراعاة عدم اصطدامها بشيء. أما العملية الشاقة فهي من المخلط، أي نقطة التقاء النهرين، إلى موقع

الجسر، حيث يتطلب الأمر قيادتها ضد التيار. ونهر الزاب الكبير شديد الحركة في هذه المسافة لإنحداره بالنسبة لنهر دجلة. ولما لم تكن لدينا قوارب تربط بها لسحبها ضد التيار، فقد كان لدينا وقت كاف لأن أعمال الحفر لا تبدأ قريبا، وكل الاعمال الجارية في الموقع هي اعادة نصب المكائن وبناء (بنكلات) للسكن وغير ذلك. والطريقة التي اتبعناها هي أننا كنا نحفر على بعد يساوي طول ما لدينا من سلك فولاذي، واعتقد أنه كان بين الخمسين والمائة مترا. أقول كنا نحفر حفرة على الشاطيء فوق جدار الموقع الذي وصلته (الدوبة)، ونلف السلك على قطعة من الخشب بأبعاد ١٢×١٢ وحوالي ٨ أقدام طولا، ولندعه دفينا Dead Man ثم نغطيه بالتراب ونبدأ بادارة الكابستين capstan[١٠٦] المثبت على الدوبة، والملفوف عليه حتى النهاية الثانية من السلك، إلى أن يتم لف طول السلك برمته، فتنسحب الدوبة فوق الجدار الى موقع الدفين. ثم كررنا العملية مرة أخرى، ومرارا أخرى، إلى أن وصلنا موقع جسر اسكي كلك، وقد استغرقت هذه العملية حوالي الشهرين أو الثلاثة .

وكنت من وقت لآخر أركب سيارتي من الموصل واتبع الدوبة برا، متبعا ما كان هناك من دروب متعرجة، وأحيانا بين الأدغال وأشجار الغرب، وفوق أراض رملية.

(٣) لقد عشنا، أنا والمساحون والمستخدمون الاداريون، من مأمور المخزن والكتبة في خيم ذوات (٨٠) باون، في الوقت الذي كنا نقوم بانشاء مبان كل أسسها من الحجر والسمنت إلى حد مانع الرطوبة، وجدارها فوق هذا الحد من اللبن الطيني الذي قطعناه محليا، وسقفنا (البناكل) بالجينكو المضلع الذي غطيناه بالطين الممزوج بالتبن، للوقاية من الحر والبرد، فصارت لدينا دائرة ومبان للمبيت قبل حلول

---

[١٠٦] أداة رفع المراسي.

فصل الشتاء، مزودة بتأسيسات صحية وكهربائية وغيرها من وسائل الراحة انتقلنا اليها. أما في أثناء سكنانا في الخيم فكان الحر شديدا في النهار جدا، حتى اني أتذكر أنه كان لدي جهاز راديو كنت شخصيا قد جمعت أجزاءه، وركبته من قطعٍ وعناصر كانت شركة (لسن) تبيعها، وهي مزودة بخارطة ليقوم المشترى هو بشدها وتركيبها. وكان قد كلفني في حينه -على ما أتذكر- خمسة دنانير فقط، وربما كان هذا الجهاز هو أول جهاز راديو يملكه مدني في العراق، لأن أجهزة الراديو واللاسلكي كانت موجودة آنذاك لدى شرطة الكمارك الحدودية فقط، مركبة على سياراتهم التي يتعقبون بها المهربين. وأقول على ذكر الحر داخل الخيم ما لاحظته يوما من عطل جهاز الراديو، ولدى فتح الغطاء الخلفي للكشف على ماقد حصل، وجدت أن احدى المكثفات قد ذابت من الحر، أعني المادة التي تغطي أسلاك المكثف، وكانت هذه المادة على مايظهر من المادة القيرية (البتومين)، وكل ما فعلته هو أنني أعدتها للمكثف بالضغط باصبعي، وغطيتها بشريط عازل ضمن بقاءها في مكانها، وعاد الراديو يشتغل من جديد، وكانت برامج أذربيجان تأتي قوية، ونغماتها تطربنا وتلهينا ليلا.

(٤) بقيت المسئلة الصحية تشغلني، فقد صادف في بعض الأيام أن كان من مجموع ١٢٠ عاملا أربعون منهم طريحو الفراش بحمى الملاريا، لذلك فقد راجعت رئاسة صحة الموصل للاستعانة بالاطباء هناك، وكان رئيس المستشفى آنئذ طبيبا بريطانيا وإمرأته طبيبة مثله، فاستصحبتهما إلى موقع الجسر، فأشارا علي أن أعطي جميع العمال، وبضمنهم نحن، محلول الكنين خلال يومين متتاليين من كل أسبوع، وهكذا فعلت إلى أن استطعنا السيطرة على الملاريا وتوقيفها عند

بعض الحدود. وكذلك عالجنا أمر برك الماء الراكد بايصال بعضـها ببعض، أو رش النفط على المنفصلة منها. ومع أن العمال كانوا ذوي أجسام قوية، وقسم منهم من (الفيليبين) الذين يشتغلون في الأعمال الشاقة، كحمل الأثقال والغطس في الدعامة، فانهم كانوا لا يتحملون محلول الكنين، مما اضطرني إلى تدبير وترتيب حواجز من أنابيب لإجبارهم على المرور بينها، بينما أقف أنا شخصيا في نهاية الحاجز المكون منها لإعطائهم جرعة الكنين.

هذا فيما يتعلق بالملاريا، أما فيما يتعلق بالحصول على الماء النقي، فقد ابتدعت طريقة مبتكرة بسيطة للتصفية والتعقيم إذ استفدت من الوضعية الطبيعية للجرف الذي يتكون منه الشاطيء، وكان مزيجا من الحصى والرمل كالطبقات التي تستعمل في مشاريع الماء للتصفية. واستعملت لذلك جهاز التثقيب لفحص التربة الموجودة لدينا لغرس أنبوب في طبقة الحصى والرمل يصل إلى عمق مناسب، ومن ثم صممت هيكلا فولاذيا من مقاطع الزوايا و(الراستات)[١٠٧] وثبته في الجرف فوق رأس البئر المكون من الأنبوب، وعلقت فيه بكرة ذات زنجيل لإصعاد وإنزال الغرفة الخشبية لتستقر على أرضيتها المضخة الكهربائية التي تضخ الماء من البئر إلى الخزان العالي، وهو الذي نصبته على أربع ركائز خشبية في ساحة الموقع لتوزيع الماء للشرب وللأغراض الاخرى. وبواسطة هذه البكرة أصبح في مقدورنا امكاننا إصعاد وإنزال المضخة إلى المستوى الذي نريد، على وفق مستوى الماء في النهر لتكون على مستواه في وقت الفيضان.أما تعقيم الماء فقد

---

[١٠٧] راستات، جمع راستة، وراسطة، كلمة فارسية تعني حرفيا (مستقيم)، ويقصد بها اصطلاحا قطعة مستقيمة من حديد غالبا.

جرى باستعمال المسحوق القاصر او الكلور، بنجـــاح هــذه الطريقــة البسيطة أمكننا الحصول على ماء نقي معقم.

إن على المهندس المدني الذي يتوجب عليه أن يؤدي واجبه في عمل من مثل انشاء جسر، أن يقـــوم بأعمـــال ميكانيكيــة وكهربائيــة ومعمارية وصحية بالإضافة إلى ان يكـــون اداريـــا، ويعـــرف كيــف يتصرف في بعض الامور.

وبينما أنا أستريح ذات ليلة في ساحة الموقع، أمـــام (البنـــاكل) على كرسي، وأمامي طاولة أتلهى بمشروب، وإذا بي أســـمع صرخـــة قريبة تنبعث من موقع الحارس عند مدخل الموقع. وأسرع إلي بعـــض العمال وقالوا: أن عقربا قد لدغ الحارس، وهو يصيح من الألم، فهرعت إليه، وكان يعتقد بأني استطيع أن أفعل كل شئ من أجله، فـــهدأت مـــن روعه، وقلت للموجودين: اذهبوا إلى المكان الذي كنت أســـتريح فيـــه، واجلبوا القدح الموجود على طاولتي ففيه دواء، فجلبوا إلي الكوب الـذي كنت أشرب منه، فدمدمت ببضعة كلمات، ونفخت فيه، وناولتـــه إلـــى الحارس، وقلت له: اشرب! وهو لا يعرف ماهو، فشرب حالا بلا تردد، وفي الحال هدأ، وبعد دقائق غط في نوم عميق إلى الصباح. وزرته في الصباح فوجدته واقفا على رجليه وهو لا يشكو شيئا! فدعا لي كثـــيرا، وهكذا انتهت هذه الحكاية ولم يعرف شيئا عما شرب. وبعد أيام زارنـــا رئيس المستشفى البريطاني فأخبرته بما فعلته، وسألته عما إذا كان مـــا فعلته صوابا، فأجاب بالنفي، وقال: إنك قد ساعدت على إنتشار السم في جسمه سريعا، والظاهر أن عقيدته هي التي ساعدته على الشفاء.

وبعد أن تم انشاء محطة التوليد ونصب المكـــائن و(البنـــاكل) والدائرة والمخازن ومشروع الماء، أحيط الموقع بالسياج، وأحيط موقـــع آخر في الجانب الثاني، استعدادا للعمليات المختلفـــة، كتهيئـــة حلقـــات

الاسطوانات التي ستغطس في المستقبل، ثم قمنا بهدم بعض القناطر الحجرية التي شيَّدها العثمانيون. وبينما نحن كذلك تمهيداً لبدء عمليات الإنشاء، واذا بأمر من بغداد يصلني يتضمن نقلي إلى مقر المديرية العامة للأشغال، وتعيين زميلي المهندس المرحوم السيد نيازي[108] الذي أعقبني في العمل. وكانت عمليات جسر اسكي كلك لا تختلف كثيراً عن تلك التي قمنا بها في جسر الموصل الاّ بتوسعة القناطر الحجرية المشيدة من قبل الحكومة العثمانية كمقتربات للجسرين، وسيرد البحث مفصلا عن ذلك عند الحديث عن قناطر الخوصر .

توسعة قناطر الخوصر

ذكرت –فيما سبق– إني نقلت من جسر أسكي كلك قبل البدء بالأعمال الأصلية لانشائه. وكنت قد فرغت من نقل المعدات والمكائن من الموصل ونصبها في محطة توليد الطاقة في أسكي كلك وبناء (البناكل) للسكن، وانشاء مستودع ماء نقي بسيط وغير ذلك من الأعمال التمهيدية. وكان نقلي بسبب مجيئ إحدى الوزارات التي قررت ادماج مديرية الري بالأشغال، وتأسيس هيئات فيها، ودوائر جديدة مناسبة لهذا التغيير،ولكن ما لبثت ان استقالت تلك الوزارة بعد مدة قصيرة وأبدلت بأخرى، فكان من أول أعمالها فصل الأشغال عن الري واعادتهما إلى سابق عهدهما. وعلى اثر ذلك أعيد نقلي إلى الموصل، ولكن –هذه المرة– بصفة مهندس المنطقة الشمالية، وبذا أصبحت مسؤولا عن أعمال الأشغال في لوائي الموصل وأربيل .

وقد قمت خلال مدة عملي في الموصل، والتي لا تزيد كثيرا عن السنة الواحدة، بأعمال كثيرة تعد قياسية بالنسبة إلى ما أنجز سابقا،

---

[108] هو المهندس نيازي فتو.

منها اعادة إنشاء جسر جافا كما سبق الحديث عنه، وإنشاء جسر جديد في الجرناف على بعد (٩٦) كم جنوبي الموصل، مع إنشاء طريق موصل –بغداد، وانشاء خمسين كيلو مترا من طريق موصل –أسكي كلك –أربيل، وفتح طريق خليفان سر كشمة خالان باتجاه بارزان، على الجانب الثاني من سلاسل الجبال المقابلة لجبل كورك، الكائن على الجهة الأخرى من مضيق (كلي علي بك)، ليتسنى للقوات العسكرية ملاحقة المتمردين من الأكراد، وتوسعة قناطر الخوصر . وكان انجاز هكذا أعمال في ظرف مدة قصيرة أمرا استثنائيا، وكانت الاعتمادات المخصصة للمنطقة مناسبة وكبيرة بالنسبة للسنين السابقة .

والواقع أن قناطر الخوصر هي من بقايا الانشاءات التي ورثناها من عهد الحكومة العثمانية، وكانت تشكل مقتربا للجسر العائم الذي كان أنشأه العثمانيون[١٠٩]، وقد هدم القسم الكبير منها بعد انشاء جسر الموصل الحديدي، واحتفظ بقسم منها، وهو الذي يعبر فوق نهر الخوصر ويقع باستقامة جسر الموصل الجديد الحديدي ،إلا أن عرض هذه القناطر كان أقل من عرض جسر الموصل الحديدي، فاقتضى الأمر تعريضها لتلائم عرض الجسر الجديد.وعند تبليغنا بمصدر الاعتمادات لهذا العمل طلب مني المهندس المستر (بوفر)، وكان يشغل وظيفة مفتش أشغال المنطقتين الشرقية والشمالية، وليس من واجبه القيام بأي

---

[١٠٩] كان نهر الخوصر قد حول مجراه في أواخر القرن التاسع عشر فصار يصب في دجلة شرقي الجسر القديم، فاعترض مجراه طريق الجسر والقناطر التي تتمه، وفي سنة ١٩٠٨ أنشئت عليه تسع قناطر تتم بالقناطر الحجرية، وهي مبنية من حجر الحلان، ولما تزل باقية إلى اليوم، وثمة قناطر أخرى فوق نهر الخوصر قرب تل قوينجق أنشئت سنة ١٩١٢ ثم هدمت سنة ١٩٥٥ ليحل محلها جسر من السمنت سمي جسر السويس.

عمل انشائي بالفعل، وإنما يقتصر عمله على التفتيش فحسب، ومع ذلك فإنه اضطلع بعمل فأقام له خيمة في موقع جسر (ميراوه) وأشرف على تشييد جسر هناك، صممه بنفسه أيضا، وهو يقع بعد شقلاوه بثلاثة كيلو مترات.

كما أنه شيد جسر (حسن شامي)على طريق موصل -أسكي كلك. وبما أنه كان محبا للعمل، فإنه طلب مني أن يضطلع هو بعمل توسعة قناطر الخوصر فوافقت على ذلك. وكانت أولى المراحل نقض مقدمة الدعامات التي تناحر تيار الماء، وتطويلها بشكل دعامة العوض الاضافي. وقد فكر هو باستعمال جهاز حفر الآبار الأرتوازية الذي كان لدينا في المنطقة، لتوقفه عن العمل آنئذ بسبب تمتع مهندسه الاسكتلندي بالاجازة. وكانت فكرة المستر بوفر استعمال هذا الجهاز في احداث الثقب داخل غلاف من براميل فارغة متخلفة عن براميل سمنت فولانية، وذلك بعد تركيب الواحد في نهاية الآخر لتشكل اسطوانة، ثم يصب الكونكريت في داخلها . وبعد المعالجة بهذه الطريقة لم يحرز أي نجاح خلال ثلاثة أشهر.

وخلال هذه المدة جاء إلى الموصل المدير العام للأشغال ولاحظ مايجري فانفرد بي جانبا وسألني عن سبب عدم احراز تقدم في أعمال انشاء القناطر، فاعلمته بأن طريقة المستر (بوفر) هي التي كانت السبب، ولا يمكن لها ان تنجح. وكان يعلم اننا نحترم هذا المهندس لكبر سنه وقدمه، ولأعماله الهندسية السابقة المشهودة، ولذا فإننا نخجل من افهامه الحقيقة بصراحة، ولذلك فعند عودة المدير العام الى بغداد أصدر أمرا حدد بموجبه نطاق عمل المفتش ضمن المنطقة الشرقية، أي في كركوك والسليمانية، ولذلك أتيح لي تطبيق الطريقة التي كنت أفكر بنجاحها. والطريقة التي اتبعتها ليست من ابتكاري فهي موصوفة في

الكتب -كما قلت- إلا أن حسن اختيار الطريقة للحالة التـــي نعالجـــها لتلائم الوضع هو سر النجاح .

ومع إني لا أجد بين التصاوير التي أحتفظ بها تصويرا خاصـــا بها في الموصل إلا أني وجدت ثلاثة تصاوير للطريقة نفسها كنت قــد طبقتها في البصرة، ولكن بصورة اضبط وأكمل وأدق لاختلاف الحالــة نوعا ما هناك، حيث أن الموقع المخصص في البصرة لانشـــاء جسـر العسافي كان وسط الماء بينما كان في الموصل على الأرض، وإن كان الماء تسرب من خلال الطبقات التي أعددناها والمتكونة مـــن حصـــى ورمل، فتغلبنا على الماء بمضخة ذات قطر (٦) انج .والطريقة المتبعـة في الموصل تختلف عن الموجودة في الصورة بكونها تحتوي على خط واحد من الدفاعات، وهو خط الأخشاب الداخلي فقط، بينما في الحالـــة أعلاه يوجد خطان، الداخلي من الأخشـــاب والثـــاني مـــن (الجينكـــو) المضلع، وبينهما طين يمنع تسرب مياه النهر الى درجة كبيرة. وتختلف الخطة هذه عما موجود في الكتب باستعمالنا (الجينكـــو) كخـــط دفـــاع خارجي، والجينكو والأخشاب الرأسية كلها من مخلفات أعمال أخـــرى استفدنا منها هنا.

وعندما أكملنا الحفر في الموصل وجدنا أنفسنا تحـــت مســتوى الأسس التي رصفها العثمانيون بخمسة أقدام، ووجدنا أنهم قد اســـتعملوا أوتادا من خشب (الجنار) الذي يقاوم الماء تحت أسسهم. وحينما أوقفنـــا الحفر أتيت باكياس مملوءة بمزيج من الرمل والسمنت والحصى النـــاعم ووضعتها كأول طبقة في قعر الأساس، وتركتها ليلة واحدة. ولما بـــدأت الضخ في صباح اليوم التالي وجدت الماء قد انقطع من القعر، فـــأكملت الأسس بطريقة اعتيادية بكونكريت الكتلة، وجعلنـــا الكونكريـــت يمـــلأ الفراغات الحاصلة تحت أسس العثمانيين، ثم أقمنا القنطرة الحجرية فوق

هذه الأسس ومطابقة لها تماما، وبمحاذاة القنطرة السابقة. وهكذا جرى الأمر إلى أن تم اكمال توسعة كافة القناطر. ويظهر أن إيعازا صدر بعد مدة إلى المستر بوفر لزيارة الموقع، أو استئنافه تفتيشه المنطقة الشمالية كالسابق، فلما زار الأعمال المنجزة أرسل إلى بكتاب تهنئة على هذا الإنجاز.

زرت الموصل مرارا بعد ذلك، وتعمدت زيارة هذه القناطر لملاحظة ما إذا قد حصل أي هبوط، فلم أجد أي هبوط فيها، وبقيت القناطر القديمة الموسعة كأنها مشيدة كذلك من الأصل. ونظرا لنجاح هذه العملية ، فقد طبقتها في البصرة عند إنشاء دعامة جسر العسافي ولكن بتطوير قليل، أي بخطي دفاع، كما سيرد ذكره فيما بعد .

جسر نهر العسافي

في ربيع سنة ١٩٣٦ صدر أمر بنقلي إلى المنطقة الجنوبية[١٠٠] ومركزها البصرة ويتبعها العمارة والناصرية، وكان يجري في العمارة انشاء جسري الكحلاء والمشرح لاستبدال الجسرين العائمين هناك بجسرين من نوع الركائز اللولبية، وفيهما فتحات لإمرار السفن. وفي كثير من المدن العراقية كانت الجسور تشبه هذا الجسر العائم بدرجات متفاوتة. وكان منهاج المنطقة يحتوي على انشاء جسري كرمة علي والقورنه العائمين وجسر نهر العسافي الثابت ، وكل هذه الجسور الثلاثه غير موجودة الآن، بعد أن تم انشاء طريق حديث بين البصرة والعمارة، ثم أكمل في سنوات قادمة إلى بغداد .

---

[١٠٠] نقل إلى المنطقة الجنوبية للأشغال في البصرة في ٢٨ نيسان ١٩٣٦.

وسأخص بكلامي هنا جسر نهر العسافي الذي بدأت بذكره عند شرح طريقة حفر أسس قناطر الخوصر .والسبب في حصر الكلام على هذه العملية هو التأكيد على فائدة اختيار الطريقة البسيطة للقيام بأعمال كان لايمكن القيام بها إلا بتطبيق عملية أكثر تعقيدا وأكثر كلفة. وأما نهر العسافي فهو ليس بنهر طبيعي بل هو نهر يحدثه المد والجزر، وعمق الماء فيه يتراوح خلال اليوم الواحد بين قدمين من الوحل والطين إلى ٩ قدم من الماء.

ولم ترسل المديرية العامة أي تصميم للجسر، لذا كان علي أن أقوم بذلك. ويتكون الهيكل العلوي من فضاءات من جسر جاهز سمي (هوبكنس)، وكان مخزونا في مخازن مديرية مخازن الاشغال العامة، وأكثر الجسور آنذاك أنشأت من نوعه، مثل جسر الموصل وسواه، وهو لا يتطلب تصميما من قبلنا في هذا المكان، ماعدا الدعامات والأكتاف الجانبية، وسوف اقتصر على وصف عملية انشاء الدعامات الوسطية التي طبقت فيها عملية الحفر بطريقة عمل (حوطة صندوقية) والتي نوهت بها جزئيا في الكلام على قناطر الخوصر .

لم يكن لدينا من الأجهزة سوى (دوب) قديمة بالية القعر، وضعت في إحداها منصة دق الركائز بعد أن قويت القعر بطبقة من الكونكريت، لأن الصدأ قد فعل فعله فيها، وبواسطها دقت ركائز من الكونكريت المسلح في الدعامة الوسطية إلى أقصى عمق ممكن حتى تهشمت رؤوس بعضها. ثم قمت باحاطة الموقع بالسد الخشبي. ويتكون الحاجز المحيط من خطين، أحدهما خارجي مكون من صفائح مضلعة متخلفة عن أعمال أخرى، وقد ثبتت على بواسطة عارضات خشبية أفقية بمساحة ١٢×٦ قدم علوية وسفلية. ويشد كل لوحة رأسية إسفين "Wedge" من الأعلى والأسفل، وتفصل بين الخطين عجينة الطين

والوحل لمنع نفاذ الماء جانبا داخل الحوطة. وقد نجح الطين والوحل في منع الماء نجاحا باهرا حتى إنني كنت أكمل الارتفاع لمنع تسرب الماء داخل الاحاطة من أعلى، لعدم كفاية طول الصفائح المضلعة. كما أن الخط الداخلي من الألواح الرأسية قد أسند في الاتجاهين بعارضات خشبية Struts ضد الخط المقابل من الألواح الرأسية .وجرى الحفر داخل هذا الصندوق بالطريقة الموصوفة في موضوع قناطر الخوصر، وذلك بالحفر تحت النهاية السفلى للألواح الرأسية، ثم إرخاء الاسفينين العلوي والسفلي، واعطاء ضربة بمطرقة خشبية على رأس اللوحة الرأسية، وهكذا تتكرر العملية حتى تنزل الألواح. وفي الوقت ذاته يجري نزح المياه، وبعد إكمال الحفر إلى العمق المطلوب نظفت رؤوس الركائز الكونكريتية والقضبان المتجردة من الأوحال وشظايا الكونكريت المتكسر الموجودة في كثير من الأماكن.

ولا أجد ضرورة لوصف إنشاء الجسر العائم في كرمة علي والقورنة، فهي عبارة عن (دوبتين) يربط بينهما سطح خشبي واحد ، ويحفظهما بالاتجاه المطلوب سلك معلق في بكرة. واعتقد أن هذه العبارات مازالت لحد الآن موجودة في بعض انحاء القطر. وكانت دوب العبارات والجسور العائمة تصنع في مخزن الاشغال العامة في بغداد

حكاية نشأة الطرق في العراق

قبل الحرب العظمى الاولى لم تكن في العراق طرق بالمعنى الحديث، وإنما كانت هناك دروب ترابية باستثناء بعض المسافات القصيرة في المنطقة الشمالية، حيث كانت قد رصفت بالحجارة، أما بعد الحرب العظمى الاولى فلم تختلف حالة العراق عن بقية أقطار العالم حيث كان يعاني كذلك من مشكلة عدم مواكبة نمو الطريق الملائمة

للوسائط النقلية لتزايد عدد هذه الوسائط. ومما زاد من تفاقم هذه المشكلة هو العوامل الطبيعية والجوية في العراق من حرارة وبرودة إلى الدرجات القصوى في كلا الاتجاهين، وندرة المواد الملائمة للتبليط في بعض الأماكن، ووعورة السطح في الأماكن الأخرى، فضلا عن فقدان المال والاعتمادات اللازمة للقيام بهذه الاعمال. وأول محاولة قام بها العراق في سنة ١٩٢٦ هو تبليط مسافة من طريق بالحجارة كفرشة سفلى، تعلوها فرشة من حجارة أصغر، مغطاة بفرشة من مادة القير، وذلك لربط رأس سكة القطار العراقية في خانقين بالطرق الايرانية على الحدود بين القطرين. وقد كانت كلفة هذه العملية (١٦٠٠) دينار لكل كيلو متر، وهو مبلغ عده العراق باهظا جدا ولايمكن تحمله، ولذلك فقد تبنى العراق سياسة انشاء الطرق الرخيصة أو القليلة الكلفة متأثرا بالتقارير الواردة عن الطرائق المتبعة في الأقطار الواسعة الأرجاء مثل كندا وأمريكا وسواهما، حيث كانت الطرق المطلوبة في حينه طويلة المسافات والمبالغ والاعتمادات المتوفرة لها محدودة.

وقد أثارت هذه الطريقة نقاشا وجدلا عظيمين في العراق حيث ما كاد يفرغ من تبليط مسافة إلا ومست الحاجة الى العودة الى بدايتها للقيام بالتصليح والصيانة، وكثيرا ما كانت تعزى أسباب ذلك ظلما إلى الجهل والاستفادة الشخصية الرخيصة من بعض القائمين والمسؤولين عن التنفيذ. وكانت هذه الموضوعات تنشر في الصحف وتثار ضجة مماثلة لها في قاعات البرلمان، حتى أنه بلغ التهريج بأحد البرلمانين أنه قال: إن المبالغ المصروفة على الطرق كانت تكفي لأن يمد طريق من صحائف فضية تحدها حاشية من ذهب!.

أما الطرق في اوربا فثمة مرحلتان منها، أولاهما بدأت في منتصف القرن التاسع عشر بوضع فرشة سفلى من الحجارة المرصوفة

ذات القطع الكبير نسبيا من الحجر الجيري، تعلوها فرشة مـن حجـر أصغر حجما يربط بينها، لضمان تماسك الحجر الجيري مع الماء. وفي مبدأ القرن العشرين، وعند بزوغ عهد الوسائط النقلية السريعة المدفوعة بالماكنة، شعر الناس بضرورة تبديل هذه الطريقة واللجوء الى فـرش طبقة عليا تربط بين عناصرها المادة التموينيـة أو السـمنت لتتمكـن الاخيرة هذه من مقاومة الاحتكاك التي تحدثه عجلات واسطة النقل على السطح، وكذلك لمقاومة عملية امتصاص الهواء التـي تحدثـه أيضـا عجلات الواسطة النقلية السريعة، والتي تعمل بدورها على قلع جزيئات السطح، مع ان هذه العملية كانت آنئذ تتكلف بين (١٢٠٠-٢٥٠٠) دينار للكيلو متر الواحد فإنها عدت باهظة، وعجزت بعض الاقطار عن القيام بها – لمدة طويلة- لشبكة طرقها.

وهكذا كان الأمر في العراق، فقد اسـتمرت عمليـة التبليـط بالطريقة القليلة الكلفة في السهول الشمالية والوسـطى، حيـث يوجـد الحصى بوفرة، بانشاء فرشة سمكها (٦) عقد من الحصى الذي يربـط بينه (الفرين) على التربة الممهدة. وحوفظ على هذه الفرشة مـن نفـاذ المياه إليها برشها بمادة (السيالي)[١١١] المحلي. وفي المناطق الجبلية حيث يوجد الحجر الجيري الصلب وضعت فرشة الأساس من الحجر تعلوهـا فرشة من حجر أصغر برش سطحها بمادة (البتومين) المتوفـرة فـي القطر بصورة طبيعية، وكانت هذه الطريقة معتدلـة الكلفـة تتحمل ميزانية الدولة.

ومع حلول سنة ١٩٣٧ كان لدى القطر مـن هـذه الطـرق ١٢٠٠كم، ثم أجري تحسين على هذه العملية، وأدخلت الطريقة المحسنة التي تتضمن معالجة السطح بمادة السيالي المتغلغل بصورة مضاعفـة

---

[١١١] هي القير الطبيعي السائل.

مزدوجة، وما أن حلت سنة ١٩٥٠ بلغ ما يملكه العراق من كل الطـوق التي تصلح للسير في كل الفصول ما مجموعـه (٢٣٠٠) كـم. وكمـا لمحنا الى ذلك سابقا فإن كل هذه الطرق بأنواعها المختلفة كانت تثـير جدلا وانتقادا حول عدم مقاومتها وارتفاع كلفة صيانتها، وأثارت شعورا بوجوب تحسينها واتباع ما يجري في الأقطار الراقية.

وقد جرى فتح الطرق وتعبيدها، في العهد الأول مـن نشـأتها، تحت تأثير أحد عاملين أو كلاهما في آن واحد، أحدهما اقتصادي لتأمين المواصلات بين مختلف المدن في أنحاء القطر، ومن ثم إيصال المـؤن والحاصلات إلى أماكن استهلاكها أو تصديرها، والعامل الثـاني هـو العامل العسكري، وفي الحالة الاخيرة كانت تتحكم الاعتبارات التالية في تعيين اتجاهاتها وأولوياتها، وهي (١) التحركات العشائرية (٢) ومـا اذا كانت طوبوغرافية المنطقة الجارية فيـها الحركـات تسـمح بتعقيـب ومطاردة المتمردين بدون طريق ممهد فلابد من فتح الطريق وتعبيـده لوعورة المنطقة (٣) وينطبق الامر في الحالتين الاخـيرتين بصـورة خاصة على المناطق الجبلية حيث لا يمكن ملاحقة المتمردين إلا بفتـح طريق، ومن ثم تعبيده. وفي الاغلب فإن مسئلة توفر مـادة التبليـط لا تحدث مشكلة، وكان هذا ما يسهل الامر كثيرا. وكشاهد عيان على تحكم تحركات العشائر المتمردة باتجاهات الطرق الواجب فتحها وأولويـات فتحها، فإني قمت -بناء على طلب السلطات العسكرية والعليا- بفتح طريق من خليفان سر جشمة- خالان- بارزان، رغم وجـود طريـق مفتوح قبله وموازٍ له، كان يقع على الطرف الثاني من نفـس سلسـلة الجبال، ويبدأ الاول من أول نهاية مضيق علي بك من جهة اربيل عنـد خليفان، والثاني من النهاية الأخيرة من مضيق علي بك عند بافستيان او بالك على طريق اربيل -رايات المفتوح بيـن سـنة ١٩٢٨-١٩٣٢،

والذي يعد العمود الفقري لشبكة الطرق المفتوحة في المنطقة. والسبب لفتح طريق خليفان سرجشمة - خالان هو لملاحقة العشائر المتمردة التي كان يسهل عليها، عندما تتضايق من مطاردة القوات العسكرية على طريق باخستيان-جامة، عبور الجبل لتصبح على الطريق الثاني منها فلا تستطيع القوات العسكرية ملاحقتها. فاقتضى الأمر فتح الطريق الثاني بهذه العجالة، ولولا ذلك لأمكن تأجيله إلى أمد آخر.

هكذا تم أنشاء شبكة واسعة من الطرق في المناطق الجبلية، كما تدرب عدد لا بأس به من المهندسين العراقيين على فتح الطرق في المناطق الجبلية متبعين منحنيات السطح لتقليل عمليات الحفر والردم، وبالتالي خفض الكلفة الكلية،وبأنحدار مريح قدره خمسة بالمائة، ولا يسمح بتجاوزه إلا ضمن مساحا ت محدودة لتلافي الالتواءات والأقواس وتجنب إنشاء الأنفاق. أما في السهول الوسطى والجنوبية فكان بالإمكان إجراء التعقيب ومطاردة المتمردين بدون تشييد طرق خاصة، كما أن نقل الحاصلات والمؤن كان يستلزم وسائل أخرى متيسرة بجانب الطرق، أو بديلة عنها، وهي خطوط السكك الحديدية ووسائط الملاحة في الأنهر والأهوار والترع ،وكذلك فإن من جملة (١٢٠٠)كم من الطرق المعبدة على وفق هذه الطرائق الرخيصة كان ما يقرب من الثلاثين في المناطق الشمالية.

وعلى هذا الأساس فإن عدم توفر المال وغيره، كان من العوامل التي حالت دون إقدام المسؤولين على التفكير بانشاء طرق عصرية تتحمل الوسائط الحديثة للنقل،السريعة والثقيلة. وأول محاولة بهذا الشأن جرت في سنة ١٩٣٧ حيث تقدم الى العراق الاستشاري المعروف آنئذ باسم كامبساكس ساكسيد Kampsax saxild بعرض مغر يتعهد المجمع بموجبه (١) بإنشاء الطرق التي يحتاجها القطر، وكنت قد قدرت طول

هذه الطرق، بحكم وظيفتي كـــ(ممــيز)[112] فــي وزارة المواصــلات والاقتصاد، وأحضر جلسات الاجتماعات بين الوزارة والمجمع، بســتة الاف كيلو متر خلال خمس سنوات ، يقوم المجمع (١) بمسح الطــرق واعداد تصاميمها، والدعوة لإجراء المناقصات بشأنها، ثــم الاشــراف على تنفيذها(٢) يمول المجمع المشروع نيابة عن الحكومة ويتقــاضى أجوره وكلفة الانشاء بأقساط تمتد إلى خمسة وعشرين عاما (٣) ومــن الشروط المغرية ايضا أن المجمع، بعد القيام بمســح الطــرق واعــداد تصاميمها، يعد كشفا بالكلفة ثم يدعو الشركات العالمية الانشائية نيابــه عن الحكومة لتقديم عطاءاتها، وفي حال عدم تقديم عطاء في أية مقاولة بمبلغ يساوي أو يقل عن الكلفة المقيدة من قبله، يتحمل هــو الخســارة الناجمة أو الفرق بين المبلغين. ورغم بقاء المجمع في العــراق زهــاء ثلاثة أشهر يتفاوض على وفق هذه الشروط، فإنه لم يتوصل إلى اتفــاق مع الحكومة، وفي آخر لحظه تقدمت شركة (بلفورُ بتي) البريطانية التي قامت بمشروع الحبانية، وهي معروفة، بعرض مماثل لــم أطلــع، أو بالأحرى لا أتذكر، تفاصيله لكن الموضوع انتهى وأغلق دون الوصــول الى أي اتفاق مع أي منهما. والمجمــع Kampsax كــامبكس مشــهور ومعروف، وله فروع في انحاء العالم، وعلى ما علمت في حينه أنه عند مراجعته العراق كان قد فرغ من إنشاء شبكة خطوط السكك الحديديــة في ايران وتركيا وفق شروط مماثلة. ولما يزل المجمع موجودا تحــت اسم كامبكس العالمية Kampsax In teratonal. وفي جــدول الشــركات العالمية الكبرى للسنين الأخيرة كان ترتيب هذه الشركة الخمسون بيــن

[112] عنوان لوظيفة يسمى شاغلها اليوم (رئيس ملاحظين)، وقد شغل المؤلــف هــذه الوظيفة بعنوان مميز الأمور الفنية بوزارة الإقتصاد والمواصلات في المدة مــن ٢٩ كانون الأول سنة ١٩٣٦ وحتى ٣١ تموز سنة ١٩٣٩.

خمسائة شركة ضخمة عالمية تصنف بحسب ضخامة الأعمال التي تقوم بها .

كانت هذه أول محاولة لانشاء طرق عصرية، لكنها مع الأسف لم تتم إلى أن ازدادت واردات القطر، وأنشئ مجلس الاعمار في سنة (١٩٥٠) حيث خصصت ٧٠% من واردات النفط للأعمال الرئيسية، و(٣٠%) للميزانية الاعتيادية .عندئذ فكر جديا في انشاء طرق عصرية تتحمل وسائط النقل الحديثة السريعة والثقيلة والكثيرة في نفس الوقت . وكنا إلى هذا الوقت نعتمد على الخبرة والتجربة في تعيين ثخن طبقة التبليط، وهكذا فعلنا في بادئ الأمر، فصرنا نتلمس طريقنا وتزيد ثخن هذه الطبقة شيئا فشيئا، ولم نكن نقدم على إجراء مناقصات لتبليط مسافات طويلة خشية أن تفشل، ولكننا أخذنا، وقد توفر المال، نهتم بالفحوص الفنية التي توصل إليها العلم، فلم تعد عملية التبليط تعتمد على الخبرة فقط، وإنما أصبحت تعتمد على فحوص ترشدنا إلى ما يجب عمله.

وبناء على تلك المتغيرات، تقدمت إلى مجلس الاعمار، وكنت مسؤولا عن أعمال مختلفة كالمباني وغيرها، بطلب ترخيص لأجراء الفحوص الفنية على طريق البصرة- العمارة- الكوت-بغداد، وكان هنالك مختبر مشهور لفحص التربة، وهو مختبر شركة (ومبي) بإدارة الدكتور مردوخ، فطلبت الشركة مبلغا قدره(٥٠/٠٠٠) دينار لإجراء تلك الفحوص بصورة مركزة على مسافات متساوية، اعتقد أنها كانت كل (٥٠) مترا بين البصرة والعمارة، ثم مابعد البصرة إلى بغداد عند كل منفذ، أو كل جسر أوغير ذلك من العوارض، فاستكثر مجلس الإعمار المبلغ ورفض الموافقة. وكانت بقية أعضاء المجلس يطالبون - في الوقت نفسه- بزيادة المسافات التي تبلط في كل طريق بصفقة واحدة، فامتنعت إذ لم أرغب في أن أجازف بالاقدام على ذلك، وأعرض مال الخزينة للضياع كما أضيع ٠

اسمي نفسه، وأصررت على الأمتناع عن إجراء مناقصة لمسافات أطـــول ما لم يستند ذلك إلى طريقة فنية وفحوص معترف بها، أما طريقة زيـــادة ثخن طبقة التبليط شيئا فشيئا اعتمادا على التجربة والخبرة، فإنها أخـــذت تظهر بعض علائم الفشل. ولما جاء الدكتور فاضل الجمالي[113] علـى رأس وزارة جديدة،طلب إلي بالحاح أن أعمل على تبليط الطريق الممتد مـــن الحلة إلى الديوانية، وهي دائرته الانتخابية، فاعتذرت بعدم الإنتـــهاء مـــن المسح اللازم للطريق، ولما ألح علي بالأمر، أعلمته بعدم إمكاني طــــرح مسافات طويلة من الطريق للمناقصة ، وتعريض مال الخزينة للضياع مـــا لم أجر أولا الاختبارات والفحوصات المعترف بها عالميا ٠ وفي الحـــال أقنع الجمالي المجلس (مجلس الاعمار) بالمصادقة على الشروع بفحـــص التربة، وكان هذا المجلس – على ما يظهر – لا يؤمن بضرورتها. وعلى أية حال فقد قام مختبر (ومبي) بذلك، ولشد ما كانت دهشتنا عندما وجدنـــا أنه ما لم يكن التبليط في المنطقة الجنوبية وقسم من المنطقـــة الوســطى بثخن (٨) سنتمترا أو ما يقرب من ذلك زيادة أو نقصانا، فلا يكتب لسطح التبليط الصمود والدوام٠وكنا نلاحظ سابقا أن التربة في المنطقتين الوسطى والجنوبية تتحمل أشد الأثقال عندما تكون جافة أو يابسة، ولكنها لا تتحمل أي ثقل عندما تكون رطبة أو مبللة، وهذا هو السر في فشل طرقنا ســابقا، لأن من خواص هذة التربة أن (معامل تحمل كاليفورنيا) الذى تتوقف عليه قوة تحمل التربة، يكاد يكون صفرا عندما تكون التربة مبللــــة ورطبـــة، وبالعكس عندما تكون التربة جافة ويابسة ٠و منذ ذلك الوقت أعيد النظـــر فى تصميم الطرق لتعيين ثخانة طبقة التبليط، على أساس نتيجة فحص قوة

---

[113] تولى الدكتور محمد فاضل الجمالي (١٩٠٣-١٩٩٧) رئاســة الــوزراء مرتيــن، الأولى في ١٧ أيلول ١٩٥٣ واستقالت وزارته في ٢٧ شباط ١٩٥٤ والأخرى في ٨ آذار ١٩٥٤ واستقالت وزارته في ١٩ نيسان ١٩٥٤.

تحملها بموجب قيمة معامل تحمل كاليفورنيا، وأصبح تقرير ومبي دستورا في تصميم الطرق. وجرى تصميم طريق البصرة-العمارة، الــذى نفذتــه شركة موريسن كنودسن، على هذه الطريقة .

لقد حدث أيضا أن مديرية الأشغال العامة قد استخدمت ســـــــنة ١٩٥٢ بعض المهندســين التابعين لمؤسسة (كيلسي) الأمريكية بموجــب برنامــج مساعدات النقطة الرابعــة[١١٤].وقد راجعني هؤلاء لمساعدتهم لدى مجلس الإعمار لرصد بعض المبالغ لشراء الأجــهزة اللازمــة لتأسـيس مختبر لفحص المواد، وإجراء فحوص على التربة، فساعدتهم على ذلــك. وقد أخذ هذا المختبر بالعمل منذ سنة (١٩٥٤) حيث قد تم بناء المخْتــبر، ووصلت الأجهزة المستوردة، وصار هذا المختبر يلبي طلبــات مديريــة الطرق والجسور العامة وبقية الدوائر منذ ذلك الوقت ولحد الآن، ويديــره في الوقت الحاضرعراقيون. وقد طلب المهندسون الأمريكيون في حينــه إعطاءهم عملا يصممونه بأنفسهم فأعطيتهم طريق بغداد _رمادي، وبالفعل قاموا بمسحه واعداد تصاميمه وأشرفوا على تنفيذه تحت إدارة الأشــغـال العامة.

وفي الوقت الذي كانت هذه الدراسة تجري لفحص قــوة تحمــل وخصائص التربة في الجنوب، كانت مسافات ذات أطوال مناسبة يجــري

---

[١١٤] النقطة الرابعة: برنامج للمساعدة الفنية والمالية اقترحه الرئيس الأمريكي ترومــان بندا رابعا في خطابه سنة ١٩٤٩، وتقوم بموجبه حكومة الولايات المتحدة بتقديــم الخبراء والتقنيين والمعلومات والمعدات والرساميل لمساعدة المناطق المتخلفة مــن العالم على تنمية الصناعة والزراعة والإدارة العامة والصحة والتعليــم، بيــد أن غرضه الأساسي كان ينطوي على مكافحة انتشار الشيوعية وتمهيد السبيل للتغلغل الامريكي تحت ستار تقديم المساعدات للدول الصديقة. عبد الوهاب الكيالي وكامل زهيري: الموسوعة السياسية ص ٥٤٦.

تبليطها في مختلف أنحاء القطر من قبل المقاولين وبمختلـــف الطرائــق، وبحسب توفر المواد في تلك المناطق، فاستعمل الحجر لطبقة القاعدة فــي طريق الحلة – الكوفة، والحصى مع الطين في طريق بغـــداد – بيجــي، وبغداد– الكوت . كما كانت تجري عمليات المسح لمختلف الطرق التـــي ينوى تبليطها، ويجري تصميمها وتصميم القناطر والجسور التي تحتاجــها من قبل المهندسين الذين كنت قد استقدمتهم من إيطاليا وسويسرا وألمانيـــا وهولندا وبريطانيا في خلال رحلة قمت بأولاهما مصطحبا عضو مجلــس الإعمار السيد عبد الأمير الأزري، وثانيهما صحبة العضو الأمريكي فــي مجلس الأعمار المستر (نلسن)، كما جرى إعداد وثيقة مقاولات، من قبــل هؤلاء المهندسين، على غرار المقاولات الدولية مع مواصفات فنيـــة مــا زالت نافذة لحد الآن، كما وضعت تصـــاميم كاملــة للجســور، وقنـــاطر كونكريتة من حجم صغير، وفضاءات متوسطة، ما زالت تســـتعمل لحــد الآن. أما الجسور الكبيرة فكنا نعهد بها الى شركات أستشارية عالمية .

تأسيس جمعية المهندسين العراقية

نشر التقرير السنوي لجمعية المهندسين العراقية في الجرائد المحلية كــ(البلاد) وسواها، استعرض فيها الأعمال المنجزة من قبل الجمعية منــذ تأسيسها لغاية كانون الثاني من سنة ١٩٤٢، وفيما يلي نصه، وقد نقلته هنا إذ أصاب ورق الجريدة بعض التمزق والاصفرار والتشقق.

التقرير:

في أوائل سنة ١٩٣٥ ظهرت في بغداد، وربما لأول مرة في تــاريخ العراق، فكرة تأسيس جمعية عراقية للمهندسين تساعد على رفع مســتواهم الثقافي والاجتماعي، وتكون لهم بمثابة نقابة تدافع عن حقوقهم فيما يتعلــق بممارسة مهنهم، لكنها لم تلاق آنئذ ماكانت تستحقه من التشجيع، فانطفــأت

شعلتها بضع سنين حتى اذا كانت سنة ١٩٣٧ رأيناها تعود إلى الظهور، ولقد كانت هذه المرة أوفر حظا منها في المرة الأولى إذ لاقت بعض التشجيع والاستحسان، ولكن الطريق لم تخلو من العقبات والعثرات، فإن عدد المهندسين العراقيين رغم زيادته زيادة محسوسة في تلك الفترة الوجيزة من الزمن، لم يزل قليلا جدا، ولم تزل مكانتهم الاجتماعية وحالتهم الاقتصادية على جانب عظيم من الضعف، أضف إلى ذلك تشتتهم في كافة أنحاء العراق للالتحاق بوظائفهم الرسمية .

هذه الأمور وغيرها مما لا مجال لذكره كانت باعثا للشك في نجاح هذا المشروع الجليل، وجعلت بعض المهندسين يحجمون عن مناصرته .

ولكن على الرغم من هذه الصعاب، فقد شاءت الظروف أن يجتمع في بغداد آنئذ فريق من المهندسين العراقيين الذين رأوا في الأفق بارقا من الأمل شجعهم على مواصلة جهودهم لتنفيذ تلك الفكرة، فعقدوا في دور سكناهم عدة اجتماعات درسوا من خلالها ما تيسر لهم من أنظمة الجمعيات الهندسية العالمية، ووضعوا على غرارها النظام الداخلي للجمعية، واطلقوا عليهما اسم " جمعية المهندسين العراقية "، وجعلوا هدفها توثيق عرى التآزر بين المهندسين العراقيين وتنشيط التنقيب والبحث العلمي لرفع مستوى الإختصاص الهندسي في العراق. وقد رفع هذا النظام مصحوب بطلب إلى وزارة الداخلية بتاريخ ١٩٣٨/٢/٦ لاستحصال الرخصة الرسمية بتأسيس الجمعية، فوافقت الوزارة المذكورة على الطلب بموجب كتابها المرقم ٩٤٦٨ والمؤرخ في ١٩٣٨/٥/٤. وقبل أن يتم تشكيل الجمعية بصورة نهائية تشتت الأعضاء المؤسسون، فمنهم من يسافر خارج العراق، ومنهم من التحق بوظيفة في خارج العاصمة، ومن بقي منهم دخل دورة الضباط الإحتياط، فكان نصيب المشروع التوقف للمرة الثانية.

وفي سنة ١٩٤٠ عاد المؤسسون إلى بغداد، وعقدوا في اليوم الرابع عشر من شهر مارت من تلك السنة اجتماعا لانتخاب اللجنة الادارية، فأسفرت النتيجة عما يلي :

١. للرياسة السيد فخر الدين جميل الفخري .
٢. لنيابة الرياسة الأولى السيد أحمد عدنان حافظ.
٣. لنيابة الرياسة الثانية السيد نيازي فتو .
٤. للسكرتارية السيد قسطنطين عساف .
٥. لأمانة الصندوق السيد آرام ستيان .

وعضوية كل من السادة: معالي عبدالأمير الأزري، والسيد تاجريان، والدكتور أحمد سوسه. وقد نسبت اللجنة أن يكون معالي السيد أرشد العمري الرئيس الفخري للجمعية، فوافق معاليه على ذلك .

وأذاعت الجمعية منشورا بنتيجة هذا الانتخاب على كافة المهندسين العراقيين الذين استطاعت الاتصال بهم، فانضم إليه سريعا كل من السادة أحمد مختار إبراهيم، والدكتور ضياء جعفر، ونعيم مرزا يعقوب، وحازم نامق. وقد أنتخب السيد أحمد مختار إبراهيم عضوا تاسعا في اللجنة الادارية نتيجة لعدد أعضائها المنصوص عليه في النظام الداخلي .

بهذا الشكل تأسست وتشكلت جمعية المهندسين العراقية، وقد أصبحت حقيقة واقعة بعد أن كانت مجرد فكرة تجول في الخواطر، أو كما توهم البعض حلما من أحلام اليقضة تتلذذ به النفوس الطموحة في أوقات الفراغ .

ولقد كان كل شيء يبشر بنجاح باهر، لولا الظروف القاسية التي مرت بالبلاد بسبب الحرب العالمية الثانية، واصاب الجمعية بعض الفتور طيلة السنتين التاليتين، وإذا كانت سنة ١٩٤٢ رأيننا الجمعية تنتعش وتجدد نشاطها بعد ان انظم اليها ثمانية اعضاء اخرين فبلغ مجموع الاعضاء

العاملين، بما فيهم أعضاء اللجنة الادارية، عشرين عضوا. ولديـــها الآن اثنان وثلاثون طلبا للانتساب منها ستة عشر طلبا قدمها مهندسون يحملون درجة بكالورريوس علوم فما فوق، وستة عشر طلبـــا لخريجـــي القســـم الهندسي في جامعة بيروت الامريكية.

كانت اجتماعات الجمعية طيلة هذه المدة قليلة جدا، وذلك لعدم وجود مقر لها تتوفر فيه أسباب الراحة. ولما كـــان نجاحـــها متوقفـــا -لدرجـــة محسوسة- على وجود مقر كهذا يكون لها بمثابة ناد يأوي إليه الأعضـــاء في أوقات فراغهم، وتعقد فيه الاجتماعات والاحتفالات، فقد طلبت الجمعية بتاريخ ١٧/تموز سنة ١٩٤٤ إلى وزارة المالية تمليكها بدون مقابل احدى العرصات الأميرية الواقعة في محلة السعدون، فوافقت ا لوزارة على ذلـك وملكتها عرصة تبلغ مساحتها ٢٠٩٨م[٢] لغرض تشييد بناية الجمعية عليها. وقد صدرت الإرادة الملكية بذلك وأوعز إلى دائرة طابو بغداد لتســـجيلها باسم الجمعية.

ولما كانت مساحة هذه العرصة قليلة بالنسبة الى سعة البناء الـــذي تطمح الجمعية أن تشيده عليها فإنها رفعت طلبا آخر إلـــى وزارة الماليـ رجت فيه تمليكها عرصتين أخريين تضافان إلى العرصة الآنفة الذكـــر وتبلغ مساحتها ١٩٦٣م[٢] ، فوافقت الوزارة بتمليك أحداهما فقـــط بـــدون مقابل، وهي العرصة ذات المساحة (٧٠٥م[٢])، ولاتزال المعاملـــة جاريـــة لاكمال المراسيم لتسجيلها باسم الجمعية، فيكون بذلـــك مجمـــوع مســـاحة الارض التي يمكن اعتبارها ملكا للجمعية (٢٨٠٣م[٢]).

وقررت اللجنة الإدارية في اجتماعها المنعقد بتـــاريخ ١٩٤٥/٧/١٨ تشكيل لجنة لوضع تصميم بناية الجمعية برياســـة الســـيد أحمـــد مختـــار ابراهيم، وعضوية كل من السيدين نيازي فتو وحازم نامق، ومن المـــأمول أن تنجز هذه اللجنة مهمتها في القريب العاجل وتعرض التصميـــم علـــى

اللجنة الادارية للبت في قبوله نهائيا، حتى تستطيع المباشرة في تشييد البناء في الربيع القادم.

ونظرا لكون البناء المراد تشييده وفقا للتصميم المقترح يكلف مبالغ لا يمكن للجمعية أن تتداركها من ايراداتها الضئيلة المقتصرة على رسوم الاشتراك، فقد استحصلت الجمعية موافقة وزارة الداخلية على إجراء اكتتاب عام في كافة أنحاء العراق، ولحد سنة كاملة، لجمع مبلغ (٥٠٠٠ دينار). وقد جمعتها في خلال ثلاثة أسابيع من تاريخ المباشرة به. ثم استحصلت الموافقة على زيادة مبلغ الاكتتاب إلى عشرة آلاف دينار جمع منها لغاية تاريخه ما يقرب من ستة آلاف دينار، ولايزال الاكتتاب مستمرا. ومن المؤمل أن تباشر الجمعية بتشييد بنايتها في الربيع القادم، وتنشئ فيها مكتبة فنية لتكون مرجعا للمهندسين في أبحاثهم وتتبعاتهم، ومتى ما يتحقق لها ذلك فإن من المتوقع أن تنتظم اجتماعاتها، ويزداد الإقبال على عضويتها، ويتسع نطاق عملها، والمستقبل بيد الله العظيم.

السكرتير العام

لجمعية المهندسين العراقيين

١٩٤٦/١/٢

انتهى التقرير.

إن صدور هذا التقرير كان في منتصف عهد رئاستي للجمعية تقريبا، حيث توليت رئاستها من أول يوم تم فيه انتخاب أول هيئة إدارية لها في سنة ١٩٤٠م، وبقيت رئيسا لها بصورة متواصلة لمدة اخرى بعد تاريخ هذا التقرير، مساوية تقريبا للمدة الاولى التي انصرمت منذ البدء حتى تاريخ هذا التقرير، أي ما يزيد على عشرة سنوات بكثير، ولذلك فكل ما جاء في هذا التقرير صحيح ومطابق للسجلات بالمائة مائة، ومعول عليه،

حيث كان المؤسسون وأعضاء الهيئة الإدارية الأوئل مـــا زالـــوا أحيـــاءً يُرزقون، وعليه فكل ما كُتب أو يُكتب في المستقبل عن شؤون الجمعية في تلك الفترة خلافاً لما جاء فيه فهو يعوزه الكثير من الدقة، فعدد المؤسســـين كان ثمانية فقط لا أكثر، وهذا الرقم مذكور أيضاً بصورة صحيحـــة فـــي العدد ٧٢/كانون الثاني / ١٩٧٥ في مجلة (صـــوت المـــهندس). وعـــدد أعضاء الهيئة الادارية الاولى كانوا تسعة، بإضافة العضو أحمـــد مختـــار إبراهيم الذي انظم الى الجمعية ليكمل بذلك عدد الهيئة الادارية الاولى إلى العدد المنصوص عليه في النظام الداخلي، وذلك بالكيفية المشروحة فـــي التقرير أعلاه، اما بقية الذوات المذكورين في بعض ما كتب سهواً، وكانوا قد انضموا مع أحمد مختار إلى الجمعية، فكانوا مجرد أعضاء فيـــها أولاً، ثم انتخب البعض منهم في الهيئات الإدارية اللاحقة في الانتخابات التـــي تلت الانتخابات الأولى. وبهذه المناسبة فإن عائلة العضو المؤسس المذكور في العدد ٧٢ المنوه عنه أعلاه السيد قسطنطين عَسَّاف هي عساف وليـــس (عارف) كما ذُكِر سابقاً في ذلك العدد.

خلال المدة الطويلة التي قضيتها في رئاسة الجمعية تحققت والحمـد لله أهداف الجمعية، فالبناية التي كنا نتطلع كثيرا لإكمالها قد أُكملـــت فـــي نهاية السنة ١٩٤٨، بعد أن اجتمع لنا المبلغ الكافي من التبرعات، والتـــي جمعت في فترة قصيرة جداً وبسهولة كما نُوِّه عن ذلك في التقرير الآنـــف الذكر في سنة ١٩٤٦. وكان المبلغ قد جمع تقريباً مناصفة بينـــي وبيـــن زميلي ضياء جعفر، وكنتُ قد شكرته في خطابي الملقى في ســـنة ١٩٤٦ في الجمعية على جهده في هذا الشأن. وكنتُ قد حرصت أثناء جمع هـــذه التبرعات على نشر قائمة بأسماء المتبرعين وبمقدار المبالغ المتبرع بـــها عرفاناً بجميلهم، ليكون هذا النشر بمثابة وصل معلن بما تبرعوا به.

كما أن شركة النفط العراقية كانت قد تبرعت بأثاث نفيس للجمعية من ألياف الخيزران المذهبة، وكانت بعض بقاياه مازالت موجودة في بناية الجمعية إلى مدة قصيرة. كما تبرعت بالمبالغ اللازمة لاقتناء الكتب بالمكتبة، واستحصل قسم من المبلغ الذي تبرعت به لإكمال البناية.

يرتاد الكثيرون من الأعضاء اليوم بناية الجمعية ، ولا يقل عددهم عن الذين يرتادون بناية النقابة. وإني أشعر بالزهو كلما مررت من أمام البناية التي تعبت في إنجازها، وهي تقع على طريقي الذي أسلكه يوميا في رواحي ومجيئي من داري الى دور بقية أفراد عائلتي الذين أزورهم في مساء كل يوم.

ومن جملة أهداف الجمعية الإشتراك في المؤتمرات، وبالفعل فقد اشتركت الجمعية في المؤتمر الهندسي الثالث في البلاد العربية المنعقد في دمشق سنة ١٩٤٧ [١١٥]، وكنت قد رأست الوفد العراقي ، وتمكنت من حمل

---

[١١٥] لهذه المؤتمر أهمية تاريخية خاصة تقوم على أساس نوع ما طرح فيه من مشروعات وما تم مناقشته من حلول لمشاكل التخلف التي عانت منها المدينة العربية خلال عدة قرون، كما أنه عبر عن مشاعر قومية قوية نحو تكامل الخبرات العربية في مجال التحديث المقبل، وكانت لجنة (المسكن الصحي العربي) أبرز لجان هذا المؤتمر وأكثرها مثارا للمتابعة الصحفية، وقد وصف المهندس توفيق أحمد عبد الجواد رئيس جمعية المهندسيين المهماريين المصرية غاية المؤتمر كله بأنه " الوصول إلى إيجاد حل عملي وسريع لاصلاح القرية ومساكن الفلاح ومعرفة أبسط الوسائل لإيجاد المواد الأولية لهذه المساكن" ، وقد تناولت لجنة المسكن الصحي الأمر من ثلاثة وجوه١- تخطيط المسكن الصحي ٢- تخطيط وهندسة القرية ومساكن العمال ٣- ماهي مواد البناء التي يمكن= استعمالها وانتشارها بكثرة مع قلة التكاليف.تنظر جريدة (الرأي العام)الدمشقية، العدد ١٧١ بتاريخ ١٦ أيلول ١٩٤٧. وعبر السيد فخري الفخري في كلمته التي ألقاها في المؤتمر عن سعادته" بأن يجتمع ممثلون عن البلاد الناطقة بالضاد=

الحكومة العراقية على دفع مصروفات الأعضاء الموفدين، وقدمت بحثـــا فيه تحت عنوان " أزمة السكن في بغداد وعلاجها ". كما ترأست احـــدى لجان المؤتمر، وهي لجنة المسكن الصحي والإقتصادي، وقد لقي بحثـــي إستحسانا وتقديرا بحيث اتخذت اكثر المقترحات الواردة فيـــه كمقـــررات للجنة المسكن الصحي، مما نشر في الجرائد السورية والعراقية في حينـــه، وهي التي تحتوي أيضا على خطابي، ووقائع حفلـــة الافتتـــاح للمؤتمـــر، ومقررات لجنة المسكن الصحي والاقتصادي .. الخ .

وفي حفلة اختتام المؤتمر ألقيت الكلمة التالية

معالي الرئيس

زملائي الأجلاء ، سيداتي سادتي

نختتم في هذه الجلسة مؤتمرنا الذي دام أربعة أيام، وإني لأشـــعر بفخر وزهو لا يوصفان عندما أستعرض في ذاكرتي ما بحـــث ونوقـــش واستقصي من الشؤون، وما وضع من أسس قويمة لانهاض بلادنا العربية جميعا في كل ما يدخل ضمن اختصاص مؤتمرنا الهندسي.

لقد لمست عن كثب عظم الرعاية السامية التي تفضل بها صـــاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية الجليل القدر[١١٦] فشمل بها مؤتمرنا ومـــا كان لها من وقع كبير الأثر في نفوسنا، وكذلك المساعدة القيمة التي أسداها حضرات أصحاب المعالي وزيرا الأشغال العامة والمواصـــلات ووزيـــر الدفاع الوطني، فكان عامل المساعدات هذا من أهم أســـباب النجـــاح. ولا يسعني إلا أن أنوه أيضا بالجهد المشكور الذي بذله زملاؤنا أبناء الشـــقيقة

=ليتداولوا في أمور فنية لها أثرها العظيم في تصريف شؤون الوطـــن العربـــي الأكبر، وتمتين صلات الود والإخاء بين المهندسين الذين أفنوا أعمارهم في خدمة الفن الهندسي"، جريدة النصر الدمشقية، العدد ٩٦٥، بتاريخ ٩ أيلول ١٩٤٧.

[١١٦] وكان يومذاك السيد شكري القوتلي.

العزيزة سوريا لتهيئة الجو المنعش الذي ساد جلسات المؤتمر، ذاكرا بمزيد التقدير والاعجاب ما لاقوه من مشاق في سبيل عقده وفي سبيل توفير الراحة لنا، لذلك أصرح بالنيابة عن كافة زملائي المهندسين العراقيين إننا مدينون لهم لما حبونا به من كرم ووفادة.

وختاما أدعو الله تعالى ان يكلأ بعنايته الصمدانية أصحاب الجلالة ملوك وأصحاب السمو أمراء وأصحاب الفخامة والدولة، زعماء ورؤساء البلاد العربية جميعا، وأن يحقق لشعوب هذه البلاد ما تصبو اليه من عز وسؤدد.

انتهت الكلمة

ومع أن اجتماعات الجمعية كانت في أول الأمر متباعدة لقلة عدد المهندسين في القطر، فانني مع ذلك لم أغفل موضوع إلقاء المحاضرات الفنية العلمية. وأول محاضرة أعددنا لها كانت للمهندس (المستر ساندري ريد). والمومى إليه كان مهندسا مقيما على إنشاء جسري الأحرار والشهداء اللذين كانا يعرفان آنذاك بجسري غازي وفيصل. وكان موضوع المحاضرة هو (الانزال في نورماندي)، ومع أن الموضوع في ظاهره عسكري إلا أن له ناحية هندسية مهمة، وهي إنشاء البوارج من الكونكريت المسلح وطريقة ارسائها. والمستر ريد خطيب مفوه معلوم، يعرفه نادي العلوية بكثرة خطاباته في المناسبات، وزيادة على ذلك فإن له خلفية جامعية، ولذلك كان حديثه ومحاضرته ممتعين للغاية. وكنت قد قدمته للسامعين، وشكرته في النهاية، وأكدت له استمتاعنا بها.

وفي أثناء بحثي بين أوراقي القديمة عما نشر في الصحف في حينه حول الموضوع، عثرت على قصاصة من جريدة(الساعة)، وقد لخصت في أحد مقالاتها مادار في تلك الجلسة، ووصفت عملية الإنزال، وبما ان أوراق هذه الصحيفة قد تهرأت لقدمها، ويخشى أن تتناثر أجزاء الورقة في

تصفحها وتناولها، اررتأيت أن انقلها هنا، وأن احتفظ كذلك بالنسخة الاصلية وإن استهلكت الأخيرة بتقادم الزمن فعلى الأقل لدينا الصورة والنص، وها هي:

الموانئ الاصطناعية التي استخدمها الحلفاء في غزو السواحل النورماندية

المحاضر المستر ريد في جمعية المهندسين العراقيين

سبق أن أشرنا في عدد سابق من (الساعة) إلى أن جمعية المهندسين العراقيين قد طلبت من المستر ريد المهندس الانكليزي المعروف إلقاء محاضرة عن الموانئ الاصطناعية التي استخدمها الحلفاء في غزو السواحل النورماندية، وقد حدد يوم ١٩٤٢/١٢/١٦ موعدا لالقائها في قاعة فيصل الثاني. ومما يحسن ذكره أن جمعية المهندسين هذه قد أنشئت قبل مدة ليست بالطويلة، وينتمي اليها المهندسون العراقيون الذين حصلوا على أرقى الشهادات الهندسية من الجامعات الاوربية والامريكية، وغايتها رفع المستوى الفني الهندسي في العراق. وهذه الجمعية غير معروفة تمام المعرفة لدى معظم العراقيين لأنها لم تزل في طور التكوين وكانت اجتماعاتها تعقد لحد الآن بصورة خاصة، ورئيسها سعادة السيد فخري الفخري الذي يشغل الآن منصب رئيس مهندسي أمانة العاصمة، وتخرج من الجامعات الانكليزية قبل ثلاثة عشر عاما.

وفي الوقت المعين أخذ المدعوون يصلون القاعة، وكان في مقدمتهم معالي السيد عبد الأمير الأزري،وزير الأشغال والمواصلات، وسعادة أحمد شوقي[١١٧] مدير الأشغال العام، وسعادة السيد علي رافت وكيل عميد

---

[١١٧] هو السيد أحمد شوقي الحسيني، مهندس عسكري، شارك في الثورة العربية، وفي معركة ميسلون ضد القوات الفرنسية، وعين مرافقا للملك فيصل الأول في العراق، ثم تولى مناصب عدة، وتولى مديرية الأشغال العامة سنة ١٩٣٥، توفي سنة ١٩٩٩.

كلية الهندسة، وكبار الضباط الإنكليز، وعدد كبير من المهندسين العراقيين، وضباط الجيش العراقي، وطلاب الصف المنتهي من كلية الهندسة العراقية، وبعض الذين يهمهم الاطلاع على مثل هذه المواضيع، وكان قد وقف في مدخل القاعة بعض منتسبي الجمعية يرحّبون بالقادمين.

وفي تمام الساعة الخامسة والنصف وقف سعادة السيد فخري الفخري رئيس الجمعية وقدّم المحاضر بالكلمة التالية باللغة العربية، ثم أعاد إلقاءها بصورة مختصرة باللغة الانكليزية.

يسرني أن أنوّه بأن اجتماعنا هذا هو أول اجتماع عام تعقده جمعيتنا، وقد تدل بوادر الأمور في أغلب الأحيان على حسن النتائج، ولذلك فإني متفائل بعهد لاحق لجمعيتنا يبشر بخير عميم، ومبعث هذا التفاؤل ما توفقنا إليه في اجتماعنا هذا من التقديم لمستمعينا مهندساً من ألمع المهندسين ألا وهو المستر ريد ليحاضرنا في موضوع هو في غاية الأهمية من الوجهتين الهندسية والعسكرية، وهو موضوع الموانئ الاصطناعية. إن هذه الموانئ بقدر ما كانت عملاً عسكرياً فريداً فهي كذلك من أعاجيب الفن الهندسي الدقيق. وبعيداً عن المبالغة في شيء إن قلنا ان لها النصيب الأوفر في ترجيح كفة النصر، إذ بفضل هذه الموانئ تمكنت جيوش الحلفاء من تركيز أقدامها على السواحل، وبفضلها كذلك أمكن تموين هذه الجيوش الجرَّارة بالمؤن والذخائر، فأدّى كل ذلك الى سلسلة انتصارات عسكرية عظيمة.

ولا أخالني بحاجة لتعريفكم بحضرة المحاضر المستر ريد، فهو ولا شك معروف لدى معظمكم، فالأعمال الإنشائية التي قام بها في هذه المملكة، ومن جملتها جسري بغداد الحديديين، لم تترك مجالاً لأحد أن يتجاهل شخص هذا المهندس وطول باعه في عالم الانشاءات الهندسية.

سادتي! لي الشوق بانتهاز هذه الفرصة السعيدة للاعراب عن جزيل تشكراتي لحضرة خطيبنا المحترم ولجميع مــن حضــر هــذا الاجتمـــاع وسواهم، متمنياً جعل اجتماعنا هذا باكورة حسنة لسلسلة اجتماعات ثقافيـــة موفقة تعقدها الجمعية في المستقبل.

وبعد ان انتهى رئيس الجمعية من القاء كلمته تقدّم المستر ريـــد، وبدأ بإلقاء محاضرته النفيسة التي دامت طوال الساعة باللغة الانكليزيـــة، والتي نلخصها فيما يلي:-

عندما قرر الحلفاء تحقيق الانزال، كانوا متـــأكدين مـــن أنـــهم لا يستطيعون غزو أي ميناء من الموانئ لأنهم سيلاقون مقاومة هائلـــة مـــن العدو، لأن الموانئ تكون بطبيعتها محصنة تحصينا قوياً، ولتأمين نجـــاح الإنزال فقد كان من الضروري جداً أن يُنزلوا قوات كبيرة ومواداً حربيـــة كثيرة وثقيلة في أقل وقت ممكن، ولهذا الغرض فقد دعت الحاجـــة إلـــى إيجاد موانئ لتأمين سلامة المراكب التي ستنقل هذا العتاد والقوات فـــي أي حالة من حالات بحر المانش المفاجئة، ولذلك فكّروا فـــي إنشـــاء موانـــئ اصطناعية تسير في مقدمة القوات الغازية على أن يُفرغ من نصبها بمـــدة لا تزيد على العشرة أيام.

ومن المعروف من وجهة فنية أن أضأل جدار لأي ميناء أن لا يقل طوله عن الكيلو متر والنصف ليصد الأمواج، وقد شرع بتشييد هذا الميناء على أساس قطع متفرقة وبالكونكريت وبشكل يماثل البواخر، سعة الواحدة ستة آلاف طن، وطولها ٢٠٠ قدم، ثم جمعت في الميناء وهي مؤلفة مـــن ١٥٠ قطعة وسيرت مع القافلة ثم أغرقت أمام السواحل النورماندية.

وبهذه الوسيلة حصلت بحيرة هادئة أمكن رسو البواخر قربها دون التعرض لخطر البحر الهائج. أما الأرصفة التي امتدت في البحر كاللســان فقد صنعت من زوارق عائمة على مثال زوارق جسر مود القديـــم، وقـــد

استخدم في إنشائها كميات هائلة من الحديد والاسمنت، وقد كـان العمـل يجري فيها تحت وابل من قنابل العدو.

وكان المحاضر يستعين بشرح النقاط الفنية بخرائط بيانية كبـيرة وبخارطة مثلها للسواحل النورماندية والسواحل الانكليزية التـي تقابلـها. وكان المحاضر لبقاً في الإجابة على ما يوجه إليه جمهور المستمعين مـن أسئلة فيجيب عليها بشروح وافية. عندما انتهى من الاجابة علـى جميـع الأسئلة عاد فسأل الحاضرين عما إذا كانت لديهم أسئلة اخرى. وقد قضـى المستمعون ساعة ينصتون الى المحاضرة والنقاش الذي دار حولـها ثـم خرجوا شاكرين جمعية المهندسين على هذه الفرصة التي أتاحتها لهم.

لقد تعرضت الجمعية مع سائر الجمعيات والاحزاب والنوادي إلـى الإلغاء في صيف عام ١٩٥٤. ثم صدر مرسوم الجمعيات رقـم ١٩ فـي ٢٢/ايلول / ١٩٥٤ فقدم طلب لإجـازة الجمعيـة مـرة ثانيـة بتـاريخ ٢/١٠/١٩٥٤ .فأجابت الداخلية الطلب بالموافقة في ٧/١٠/١٩٥٤ وعادت الجمعية إلى الوجود مرة ثانية. وفي سنة ١٩٧٨ وبمناسبة مرور أربعيـن عاماً على تأسيس الجمعية ارتأت الهيئة الادارية مشكورة تكريم المؤسسين والأعضاء القدماء، وكاد أن يقع المشروع فريسة ارتكاب بعض الاخطـاء التي تنطوي على تجاوز وغمط لحقوق البعض لـولا يقظـة المسـؤولين المهمين في الجمعية وتداركهم الأمر في وقت مبكر. وكنـت علـى رأس قائمة المستحقين للتكريم، ومع ذلك فان المشروع لم يسلم من الخلط فـي تعداد أسماء المؤسسين الحقيقيين والهيئة الادارية الأولى مما جعل القائمـة المنشورة في العدد ٨٤ من (صوت المهندس) مخالفة بصورة بينة لما هـو منشور في العدد ٧٢ من المجلة نفسها، وهو الصحيح.

وعلى كل حال فإن من ذكروا بصفتهم مؤسسين عند أول تأسـيس للجمعية هم بالفعل مؤسسين، ولكن عند اجازة الجمعية للمرة الثانية بعـد

إلغائها بموجب المرسوم رقم ١٩ في ٢٢/ايلول/ ١٩٥٤ حيث أجيزت باستئناف نشاطها بتاريخ ١٩٥٤/١٠/٧ .

وفي سنة ١٩٨٨ فكّرت الهيئة الإدارية في تكريم الرؤساء السابقين بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيس الجمعية بيوبيلها الذهبي، وأصدرت الجمعية بهذه المناسبة كراساً يستعرض تاريخ حياة الجمعية ونشاطاتها، وقد زُوِّدتُ من قبل الرئيس الحالي الدكتور محمد الأوسي بعدد من هذه الكراسات فشكرته على ذلك برسالة مؤرخة في ١٩٨٩/٣/٣٠ ختمتها ببعض الملاحظات، وحيث ان الرسالة مفصحة بذاتها فلا حاجة لتكرار الملاحظات التي أبديتها.

وقد تعرضت الجمعية مؤخراً إلى الدمج بالنقابة بموجب قرار مجلس قيادة الثورة الموقر رقم ٨٧٧ والمؤرخ في ١٩٨٨/١٢/٦ والمثبتة نسخة من تصوير في هذا الكتاب .ثم اعقب ذلك اعتبار يوم ١٩/تشرين الاول (يوم المهندس)، فأقامت نقابة المهندسين في يوم ١٩/تشرين الاول/١٩٨٩ حفلة ساهرة في حدائق نقابة المهندسين في المنصور بدأت أولاً بتكريم رؤساء النقابة الأحياء، ومن جملتهم محي الدين الطائي وعدنان القصاب. ثم قامت بتكريم الرُّواد من المهندسين وكان من جملتهم كاتب هذه الأسطر، وقدّمت لنا هدايا رمزية. وتُليت خلاصة عن خبرات كل واحد وتحصيله العلمي وجملة من أعماله المهمة التي أنجزها خلال ممارسته المهنة. ثم أعقب ذلك حفل ساهر امتدَّ إلى ساعة متأخرة من الليل، وقد حضر معنا أفراد من عوائلنا وأصدقائنا.

وفي ١٩٨٩/١١/٢ استدعيتُ إلى مركز الجمعية فسُلِّمتُ الكتاب المرقم ٦٥٤٧ والمؤرخ في ١٩٨٩/١٠/٣٠ والكراس المرفق به. وقد ثبَّت الكتاب المدة التي ترأست الجمعية خلالها مع الثناء على الأثر الكبير الذي كان لترؤسي الجمعية في رفع المسيرة العلمية للمهندسين في القطر

العراقي، ويعلن مضمونه بدمج الجمعية بنقابة المهندسين، مع الآمال الطيبة لاضطراد تطور العجل العلمي بعد هذا الدمج. كما سلمت مدالية معدنية من البرونز، للرؤساء مثله مثل هذا الكتاب كلا باسمه.

فيضان سنة ١٩٥٤ وإنقاذ بغداد من الغرق

في صباح يوم الاربعاء المصادف ٢١/نيسان/ ١٩٥٤ التالي لليلة الخطرة، واليوم الذي تلاها،أمست بغداد على وشك الغرق، فطلعت جريدة لواء الإستقلال تحمل مقالة طويلة تحت عنوان " وزير الزراعة يرفع الراية البيضاء "[١١٨]، وفيها يتهم كاتب المقال السيد فائق السامرائي[١١٩]

---

[١١٨] جاء في هذا المقال" عندما وجدت وزارة الزراعة ومديرية الري أنهما استنفدا كل تجاربهما، ولم تعد هناك سدة واحدة في بغداد حتى تعمل فيها معاول الكسر والتخريب، ولما ظلت حالة السدود الشرقية على حالها تنذر بالخطر، رفع وزير الزراعة راية الاستسلام البيضاء، وأقرت مديرية الري العامة بالعجز عن مواجهة الحالة.

واذا بالخبرة الفنية تتلاشى كذرات الرماد المتطاير من السداد التي نسفها الديناميت، وأخذت المياه تطفح على السداد الشرقية في تل محمد، عندئذ أصبحت بغداد في كف القدر، فاجتمع مجلس الوزراء صباح يوم الثلاثاء أي حوالي الساعة الثانية عشر والدقيقة الخامسة عشر من مساء يوم الاثنين لليلة الثلاثاء، وحضر الاجتماع بعض المهندسين من مجلس الإعمار كالمستر راوبي والسيد فخري الفخري. كما حضر الاجتماع ممثلوا الشركات: وهنا تسلم الجيش عبء العمل الخطر وكان تسلمه هذا بمثابة تسلم الطبيب الماهر مريضا كان قد أوصله الطبيب الدجال إلى عتبة الموت المحقق.

ولكن الجيش تحمل هذا العبء بشجاعة عرفت عنه في الملمات، واستعان بالوسائط الميكانيكية المتوفرة لدى الشركات الاجنبية، ووزع العمل بينها، فألقى على عاتق شركة ويمبي تجهيز الأتربة والمواد للسداد الشرقية من نقطة تل محمد إلى الباب الشرقي إلى قصب الكسرات في شمال بغداد. وكانت التدابير قد-

الوزارة[120] بالتقصير وعدم اتخاذ الاجراءات الواقية لدرء خطر الفيضان. والمقال يفصح عن حالة الحيرة والارتباك التي أصابت المسؤولين فيما يجب القيام به، وهو يعين الطريقة المقترحة للخروج من هذه الحيرة ويصف الحل، كما يسمي الشخص الذي قدَّم المقترح بالذات، وقمت أنا بتطبيق مقترحي ذاك في الحال، وانتهيت من اكمال المهمة في الساعة ٣,٣٠ صباحاً وزال الخطر . وصدر بيان في حينه من الاذاعة مفاده أن بغداد قد سلمت، وإنه سوف لا يذاع بيان آخر بعد ذلك .

وتفصيل الواقعة هو كما يلي:-

لقد وصلت إلى وزارة الإعمار ظُهر يوم الاثنين شائعة بأن الماء قد أخذ يتدفق على بغداد من القنطرة المطمورة تحت السدة الشرقية،

=اتخذت لسد كسرتي الداودي والفريجات . وتهيأت اللوريات تحمل أكياس الرمل لتتجه إلى هناك حيث يجري العمل في سدها . غير أن نتائج سد هاتين الكسرتين لا يظهر له أثر إلاّ بعد (١٢) ساعة.. هنا التمعت فكرة طارئة لدى المهندس العراقي الشاب فخري الفخري فاقترح أن يؤخذ التراب بالنظر لحالة الاستعجال الملحة من جانب السدة ليلقى على جانبها الآخر المواجه لتيار الماء . ومن الصدف وحدها أن تكون سيارات اللوري الحمل في مكانها لم تتجه الى كسرتي الداودي والفريجات .. فحولت هذه الاكياس الى تل محمد لتعلية سدادها، ولولا هذه الصدفة الفذة، ولو أن هذه السيارات كانت قد تحركت إلى مكانها المقرر لأصبحت بغداد أثرا بعد عين لأن المدة التي تستغرقها في عودتها كانت كافية للقضاء على البقية الباقية من مقاومة السداد في تل محمد، وهكذا نجت بغداد بعناية الله.

[119] سياسي قومي الاتجاه، ولد سنة ١٩٠٨، قاد المظاهرات وكتب المقالات واعتقل غير مرة، تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٢٣، شارك في تأسيس حزب الاستقلال، لجأ على الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٩، وله مؤلفات ومقالات عديدة، توفي سنة ١٩٧٩.

[120] كان وزير الزراعة آنئذ هو السيد عبد الغني الدلي.

وكانت تشكل جزءا من محمولة حمدي الباجة جي. ومصدر الماء هو من البحيرة التي كانت قد تكونت من فيضان سابق خارج السدة الشرقية، كما هي العادة في كل فيضان فوق العادة، حيث كان تحدث كسرة في شمالي بغداد ليتدفق الماء الزائد عن استيعاب نهر دجلة بين ضفتيه إلى الأرض الخالية آنئذ خارج السداد المحيطة بالمدينة فيخف الضغط على ضفاف دجلة ثم يتسرب الماء من الخزان المحدث بهذه الصورة إلى نهر دجلة جنوب بغداد. إلا أن هذه العملية لم تجر كما يرام حيث أن هذا الفيضان دام زهاء الثلاثة أشهر، وقبل أن يجري تصريف الماء المملوء به الخزان يأتي فيضان جديد فيتجدد الاملاء ويزيد عليه، إلى ان جاء هذا الفيضان موضوع بحثي.

لقد استدعاني وزير الإعمار[12] آنئذ ظهرا، وأخبرني بالإشاعة التي وصلته، وطلب مني الذهاب الى الموقع والتأكد من حقيقة الأمر. وبالفعل حضرت إلى الموقع، وهناك وجدت أن القنطرة المطمورة تحت السدة في موقع يقابل [منطقة] العلوية والتي كانت تحركها المحولة التي كانت تسقي الأراضي خارج السور لم يحكم سدها. وكانت العادة انه عندما كان يصرف النظر عن سقي بعض الأراضي ولا تبقى حاجة إلى ضخ المياه في مثل هذه المحولات، يعطى خبر إلى أمانة العاصمة فتقوم مديرية الاطفاء فيها بقص صفحة من الحديد تعلق بواسطتها فوهة الأنبوب الذي يخرج من السدة لإيصال المياه إلى الأراضي الزراعية، ثم توضع على هذه الصفحة، أو لوحة الحديد، أكياس مملوءة بالتراب، ثم يهال التراب لإحكام السد، وهذا ما كان قد جرى عندما زالت الحاجة الى مياه هذه المحولة، إلا أن السد لم يكن على ما يظهر محكما بالدرجة التي يستطيع

---

[12] وكان يومذاك علي حيدر سليمان، وقد تولى منصبه هذا خلفا لعبد الكريم الازري الذي استقال منه في ٦ نيسان ١٩٥٤.

مقاومة مياه الخزان المتكون خارج السدة، والذي كانت مياهه راكدة أكثر من شهر لا تخرج، فأخذت المياه ترشح من الفوهة الثانية للأنبوب، المواجهة للمدينة وتفجر الارض المحيطة بها . ووجدت عند وصولي هناك المرحوم حسين مكي الخماس[122] موجودا هناك، وقد نصب كرسيه العسكري الذي يحمل باليد ، وكان يشرف على الجنود الذين كانوا يملأون الأكياس بالتراب ويعملون منها ماكان يعرف بلغة الجنوب (بالتنور)، أي يحيطون الفوهة التي يخرج منها الماء بجدار من الأكياس المملوءة بالتراب ويعلون هذا الجدار كلما ارتفع مستوى الماء داخل هذا التنور. ووجدت أن هذه الطريقة سليمة، إذ كلما ارتفع الماء خارج السدة من جهة الخزان، وازداد من ثم داخل التنور، منعه الجدار المكون من الأكياس المملوءة بالتراب، والذي يزداد أرتفاعه تبعا لارتفاع الماء.

عدت إلى الوزارة، وأخبرت الوزير بذلك ظهر ذلك اليوم، ومع ذلك لم يهدأ لي بال، ففي ذلك الوقت نفسه كان الخزان، وهو الملجأ الأخير الذي عندنا في مثل هذه الحالات، مملوء بمياه الفيضانات السابقة. وعلى الرغم من أنه لم يكن لي واجب محدد في هذا الفيضان ، إذ أنني كنت موظفا في وزارة الإعمار، فقد أكثرت من التردد على السداد. وفي اثناء ترددي على السدة الشرقية ،والمرحوم حسين مكي الخماس كان ما يزال منهمكا في عمله في تعلية الجدار المقوس للتنور المبني بالأكياس المملوءة بالتراب، علمت بأن الأميرعبد الإله أمر-عند مروره على السداد ورؤيته حالة هذه القنطرة- بدق ركائز فولاذية في مقدم القنطرة من جهة خزان

[122] ضابط، تخرج في الكلية الحربية باستانبول سنة ١٩١٧، ثم درس الهندسة في بغداد ، وأتقن علم الهندسة العسكرية، وتقلد مناصب عسكرية مهمة، منها رآسة أركان الجيش سنة ١٩٥٣، ووزارة الدفاع سنة ١٩٥٤، وله مؤلفات عسكرية مختلفة، توفي سنة ١٩٥٦.

الماء لإعطاء نهاية لرشح المياه، بناء على مشورة أحد الأجانب من المقاولين والاستشارين الذين كانوا كثيرين في ذلك الوقت الذي أعقب تشكيل مجلس الإعمار، فأتصلت فورا بآمر الفيضان المرحوم السيد خليل جميل الذي كان موجودا هناك، وقلت له: إنه لا حاجة لهذه العملية، بل قد تكون خطرة في أثناء حضور الماكنة الكبيرة الثقيلة عند تسلقها السدة، أو أثناء دق الركائز. فأجاب بأنه لا يستطيع الاعتراض على الأمر، ولئن كان يعتقد بأن عملية حسين مكي الخماس كافية وصحيحة. فتوجهت إلى جهة تل محمد لأصل إلى الخيمة المنصوبة لبعض الموظفين القائمين بالخفارة عند مخزن المنطقة الوسطى، حيث يوجد مخبز بغداد الآن، وكلهم كانوا أصلا من الموظفين التابعين لي عندما كنت مدير الأشغال العامة، وكنت آنس بالوجود معهم، والتكلم معهم حول موضوع الفيضان ومكافحته .

وبينما أنا اتحدث معهم، وإذا بي ألاحظ أن ماكنة ضخمة تأخذ بتسلق السدة في هذا المكان، وعندما سألت عن سبب تسلقها، وهي من الحفارات التى تحمل وعاء لحفر التراب من عمودها الذي يتحرك على الزواية المطلوبة، وكانت من مكائن احدى الشركات الأجنبية أو الإدارة المحلية، أخبرت بأن وجهتها القنطرة التي رشح الماء منها، لتقوم بواجب دق الركائز الفولانية باستخدام عمودها المتحرك على ميول مناسبة وتحميلها مطرقة بدلا من وعاء الحفر. ولم يكد يمضي إلا بعض من ساعة، حتى سمعت آمر الفيضان يتكلم، من تلفون موجود في الخيمة التي كنت فيها، ليخبر بأن الماكنة انقلبت في الماء، إذ فقدت التوازن عندما حملت المطرقة لتدق بها أول ركيزة، مما دل على أنهم لم يحسبوا توازنها، خاصة وأنها ليست مصنوعة لهذا لغرض أصلا، فحمدت الله على ذلك، وقد سلم مشغلها من الغرق إذ صادف أن بقيت (القمارة) أو الغرفة التي يجلس فيها المشغل فوق مستوى الماء، فانتهى هذا الفصل بالسلامة.

وأقبل المساء، وأخذ الماء يرتفع تدريجيا في الخزان المتكون وراء السدة، وينذر بالخطر. ومع انه ليس لي واجب معين في هذا -كما سبق لي بيانه- ،فلم يكن ليهدأ لي بال، فقد تعودت على مكافحة الفيضانات في في حياتي الهندسية الوظيفية السابقة، سواء كنت من موظفي أمانة العاصمة أو مديرية الأشغال العامة، ذلك لأن كلتا الدائرتين لهما مسؤولية معينة، فبموجب نشرة الفيضان الثابتة، فأن موظفي أمانة العاصمة مسؤولين عن المحافظة على سداد المدينة المقابلة للباب الوسطاني، من الباب الشرقي إلى باب المعظم، بالإضافة إلى ضفاف دجلة على طول شارع الرشيد وشارع أبي نواس، وما يقابلهما في الجانب الآخرمن المدينة. أما موظفي الأشغال فمسؤولين -بمقتضى تلك النشرة التي يسرى مفعولها بصورة تلقائية أثناء حلول الفيضان كل سنة- عن السدة المعروفة بالسدة الشرقية، من تل محمد إلى مخزن الكيلاني[١٢٣] .

ولأني كنت أشعر بأن شيئا ما سيحدث حتما، أخبرت في المساء عائلتي بأني ذاهب إلى الخيمة المنصوبة عند حافة السدة الشرقية، قريبا من مخزن الأشغال الوسطى، المقابل لمخبز بغداد، وأعطيتهم رقم تلفون الخيمة ليتصلوا بي عند الحاجة. وكنت آنس بالتواجد مع الموظفين القائمين بالخفارة في هذه الخيمة، سيما وأن كلهم من موظفي السابقين، سواء في الأشغال أو مجلس الاعمار كما ذكرت آنفا.

---

[١٢٣] يمكن أن نضيف هنا أن واجب وزارة الدفاع هو تجهيز المتفجرات والخبراء العسكريين والمعدات اللازمة لكسر السداد عندما يتقرر ذلك بالسرعة الممكنة وفي الوقت اللازم لتحويل المياه المتدفقة عن نقاط الخطر، والمر الأخر هو اشعار وزارة الزراعة بأن المحافظة على سداد المؤسسات العسكرية ومنها معسكر الرشيد تكون على مسؤولية تلك الوزارة.

وحوالي منتصف الليل، رن جـــرس التلفـــون، وإذا أنـــا أطلـــب للحضور إلى مديرية الري العامة التي كانت إذ ذاك تحتل الثكنة الشــمالية، مقابل كلية الهندسة، حيث كان مجلس الوزراء مجتمعا آنذاك فيها، فذهبــت في الحال وتوجهت إلى غرفة المدير العام، وكان بالوكالة بريطانيا، وهـــو المستر (هارد) من مهندسي الري القدماء. وعند وصولي خرج إلى وزيــر الإعمار آنذاك فقال لي مايلي:" لقد اشترى مجلس الإعمار قبل مدة عـــددا من مكائن حفر الأتربة ونقلها ومكائن مختلفة أخرى لانشاء الطرق، والآن ماء الفيضان الموجود في الخزان المتكون خارج السدة آخذ بالارتفاع بعــد الفيضان الجديد، وقد علا السدة في بعض الأماكن، ونريد تعليـــة الســدة الحالية، فيجب سوق هذه المكائن إلى السدة. فأجبتـــه: إن المكـــائن التـــي يتحدث عنها ليست في بغداد، وموزعة على الألوية، والقسم الكبير منـــها في الشمال، وبالتخصص مكائن قص الأتربة وحفرها ونقلها،وقد أرســلتها إلى عقرة للعمل علىفتح طريق عقرة ــزنتا ــ بيره كبره. ولو فرضنـــا أنها كانت هنا فلا يمكن الاستفادة منها لهذا الغرض. فقال: لماذا ؟ فــأجبت أن السدة الشرقية عندما أنشئت أصلا كانت الأتربة التي اســـتعملت فـــي تعديلها وتكوينها قد أخذت من الأرض المجاورة على طولها، ولذلك شكلت هذه الحفريات خندقا يوازي السدة وينخفض عن مستوى الأرض الطبيعيــة بأعماق مختلفة تقرب في بعض الأحيان من المتر أو يزيد، وقد أمتلأ هــذا الخندق بماء (النزيز) بسبب وجود خزان الماء الموجود علـــى الطــرف الآخر من السدة، وجثمت حيوانات الجاموس التي كانت خارج السدة فـــي هذا الشط المتكون من ماء النزيز، وركب أطفال أصحابها على ظــهورها، وقد نظروا إلى عملية الفيضان على أنها ظاهرة طبيعية وملهية ومؤنســة ينتظرون ، بل يتمنون حدوثها، لذلك فإن المكائن حتى لو كانت موجـــودة لما أمكن تشغيلها، عدا أنها تسبب إهتزازا للسدة وتكون خطرة . ولكن لدي

حل أخر أود عرضه على مهندسي الري للموافقة عليه وتأييدهم لي فأرجو دعوتهم. وفي الحقيقة فإن مهندسي الري، وبضمنهم معاون المدير العـــام المرحوم السيد أبكارا فيدكسيان، كانوا مجتمعين حولي يصغون. فقال: إبدأ بعرض مقترحك. فقلت: يبلغ عرض السدة من الأعلى عشرين مـــترا، ولا ضرورة هيدروليكية لهذا العرض لأن ضغط الماء في الأعلى هو صفـــر، وهو في الأسفل الحد الأعظم. فقالوا: هذا صحيح! ، فقلت: إذن فلا ضـــور من أخذ الأتربة من مؤخرة السدة وعمل سدة صغيرة على الحافـــة العليـــا للسدة، وسأستعمل لهذا الغرض مدرجة جديدة eleyating Grader أتـــت للتو وقد صنعت واستورد منها العراق أربعة، إثنتان منها تمتلكهما مديريـــة الأشغال العامة، وإثنتان أخريان تمتلكهما الادارة المحلية. والماكنـــة هـــي تطوير للمدرجة العادية، وذلك بإضافة (قايش مطـــــاطي) علـــى هيكلـــها الاصلي يتلقى الأتربة المحفورة عند النهاية السفلى للقايش فيرفعها الأخـــير في حركته إلى الأعلى ليلقيها أو يصبها في نهايتها العليا على المكان الذي يشاءه المشغل، ويمكن تعديل ميل (القايش) ليوافق المكان المناسب. وبعـــد موافقة الجميع على الفكرة، أوعزت إلى أحد معاوني في الأشغال لإخـــراج المدرجات الاربعة وانتظاري على السدة في نقطة قـــرب مخـــبز بغـــداد، وهناك يتقاطع الطريق المبلط المتجه من بغداد إلى بغداد الجديـــدة حيـــث يتسلق السدة ثم ينعطف إلى اليمين متجها إلى تل محمد،حيث كان قد شـــيد جسر على نهر الشطيط، فيعبر إلى بغداد الجديدة، وهذا الجزء من الســـدة كان قد بلط سطحه تبليطا خفيفا مقابل قرية سارة خاتون. وحيث أن هـــذه المدرجات الرافعة لا تشتغل على سطح مبلط، فقد كنت قد انتويت تشـــغيلها من هذه النقطة فشمالا، وهكذا فعلت باتجاه الباب الشرقي، ومن ثم إلـــى الباب الوسطاني. أما القسم المبلط سطحه من السدة فقد كنت قد قـــررت استعمال الأكياس الترابية لمنع المياه، لذلك وحيـــث كـــانت هنـــالك (١١)

سيارة قلابة تعود لشركة (ومبي) محملة بأكياس التراب بانتظار الذهاب بها إلى فتحة الفريجات لسدها(ولو جربت هذه لعملية بالأكياس التي تحملها القلابات لما كانت أفلحت أو نجحت لأن الفتحة كبيرة والتيار قوي). ولحاجتنا للتراب والأكياس لاستعمالها على السدة مقابل قرية سارة خاتون، فقد طلبت عدم ارسالها إلى الفريجات، ووجهتها إلى السدة الشرقية، أي إلى نفس النقطة التي كنت قد وجهت المدرجات الرافعة إليها لانتظاري فيها .

دبرت هذا الترتيب بعد أن أيده ، كما أوضحت أعلاه ، المهندسون ومعاون المدير العام للري بحضور وزير الإعمار، وأعطوني الضوء لاخضر للبدء بالتطبيق على مسمع من المدير العام، كما أبلغ به وزير الإعمار زملاءه الوزراء الذين كانوا مجتمعين في غرفة أخرى. وعلمت - فيما بعد- من معاون المدير العام المرحوم السيد أبكار أفيديسيان أن المرحوم سعيد قزاز[١٢٤] الذي كان يمانع في الانتقال بالسكان من الرصافة إلى الكرخ ، لما سمع بما سأفعله، قال: إذن لننتظر نتيجة العملية التي اقترحها السيد فخري الفخري، ولذا فلم يصدروا البيان الخاص بالإخلاء. وهكذا توجهت إلى السدة، وهناك وجدت القلآبات قد وصل بعضها والآخر في الطريق، كما وجدت المدرجات الرافعة قد وصلت فعلا، ورأيت سكان قرية سارة كلهم على السدة شيبا وشبانا، وقد رفعوا ذيول ملابسهم إلى مفارقهم، إذ كان الماء هناك قد أخذ يطفح فوق السدة المقابلة لقريتهم(قرية سارة خاتون) قليلا، وكانوا يريدون أن ينقضوا على كل موظف حكومي يصادفهم لينتقموا منه، اعتقادا منهم أن الحكومة قد قصرت في إنقاذهم. فاستمهلتهم قليلا إلى أن تصل بقية القلابات، وبدأت بالموجود منها، إذ أوعزت إلى سكنة القرية بنقل الأكياس المملوءة ووضعها على حافة السدة

---

[١٢٤] وزير الداخلية يومذاك.

المقابلة للماء أولا، وبعد الفراغ من وضعها على طـول السـدة، تجـري العودة لوضع صف آخر من هذه الأكياس، وتعريضها وتعليتها باكيـاس أخرى، وهكذا توقف طفح الماء في هذا القسم. وفي الوقت نفسه أوعـزت إلى أحد معاوني، وكان السيد عدنان العلـوي، ليوجـة المدرجـات ذات (القايش) المطاطي، لتصب حمولتها على حافة السدة، وأن يتجه بها إلـى الباب الشرقي حتى الباب الوسطاني، وهكذا فعل. واستمرت هذه العمليـة إلى الساعة الثالثة والنصف صباحا، فتم لنا الحصول على سدة مصغـرة على حافة السدة الكبيرة، ولندعها (فرخ) بارتفاع أولـي حوالـى قـدم ونصف وبعرض ثلاثة أقدام ،عندئذ أخبرت مجلس الوزراء ،الـذي كـان مايزال مجمتعا في مديرية الرى العامة ،بأن العملية قد تمت .

وكان مجلس الوزراء قد أوعز في الوقت ذاته الى المرحوم السـيد غازي الداغستاني[١٢٥] لجلب مجموعة صغيرة من المتفجرات من الجيـش لتفجير سدة معسكر الرشيد. وأعتقد بأنه قد فعل ذلك بنجاح فـي الحـال، فانخفض الماء وتوقف الخطر بسبب الإجراءين الآنفي الذكر، وهما تعليـة السدة من قبلي، وتفجير سدة معسكر الرشيد.

وبعد إخباري مجلس الوزراء بالتلفون بما تم عمله، حضر أعضـاء من مجلس الوزراء، وربما كلهم، إلى الموقع حيث كان أسطول السـيارات التى تقلهم طويلا، للكشف على الموقف بأنفسهم. ومن ثم أوعـز بإذاعـة بيان مفاده أن بغداد قد سلمت من الغرق، وزال الخطـر تمامـا، ولذلـك فسوف لايذاع بيان آخر عن الفيضان بعد الآن حتى اليوم الثاني.

وبدوري فقد أوعزت إلى معاوني بالاستمرار بعملية انشـاء السـد (الفرخ) وإن قد زال الخطر ، ارتفاعا به وتمديدا له على طول السدة إلى عدة أيام بعد زوال الخطر، تحسبا لفيضانات أخرى. وهكذا قام معـاوني

---

[١٢٥] وكان يومذاك رئيسا لأركان الجيش.

بتعلية وتعريض السد (الفرخ)، أى الإتجاه به شمالاً من بعد الباب الوسطاني لعدة أيام تلَت تلك الليلة .

إن ظاهرة الفيضان كانت ظاهرة طبيعية في العراق ومألوفة تقريباً في كل سنة، إلاّ أنه ليس كل الفيضانات خطر، فهناك فيضانات خطرة بصورة استثنائية تحدث من وقت لآخر، وفي فترات متباعدة من الزمن، كأن تكون كل خمسين سنة أو مائه سنة او خمسمائة سنة أواكثر. وفيضان سنة١٩٥٤ كان من هذة الفيضانات الإستثنائية[١٢٦]، ولكنه لم يكن أخطر من

---

[١٢٦] يصف عبد الغني الدلي، وزير الزراعة في أثناء الفيضان، الأيام العصيبة التي باتت تنذر بغداد بالغرق، بقوله" قدرت شعبة المدلولات المائية في مديرية الري العامة ما صرفته الكسرات [التي أحدثت في بعض السداد] بحوالي ١٥٠٠ متر مكعب في= الثانية، وتصريف نهر دجلة بحوالي ٨٨٠٠ متر مكعب في الثانية، ولو لم تحدث الكسرات لزاد تصريف النهر إلى أكثر من ١٠٠٠٠ متر مكعب في الثانية، ولارتفعت مياه الفيضان في مقياس سراي بغداد إلى ٦٥ و٣٦ متر فوق سطح البحر. وكان خبراء المدلولات قد أجمعوا على أن أية زيادة فوق ٣٦ متر عن سطح البحر تجعل مكافحة الفيضان أمراً لا قدرة عليه، وتمثل طوفاناً حقيقياً، وهذا ما كنا نجابهه بالفعل في تلك الأيام ، وتظهر خطورة هذه الحالة عند مقارنتها بفيضان ١٩٤٢ الذي كان من أخطر الفيضانات التي شهدتها البلاد وأدى إلى غرق معسكر الرشيد ، وسبب أضراراً فادحة ، في حين أن مقياس منسوب المياه في سراي بغداد لم يتجاوز آنذاك ٦٠ و٣٥ متراً فوق سطح البحر، ولم تتوقف موجات المياه عن الصعود بعد يوم ٢٥ ولذلك قررنا إحداث كسرات عديدة لم يسبق اللجوء إليها وذلك في الجانب الأيمن من النهر شمالي بغداد في الموقع المسمى (الفريحات) ثم في الموقع المسمى(السيافية) على الجانب الأيمن من النهر أيضاً جنوبي بغداد" ويقول" كانت الأيام من ٢٦ إلى ٢٩ مارس(آذار) ١٩٥٤ ولياليها خاصة أياماً عصيبة مروعة ، فقد أصبحت العاصمة محاطة من الجهات الأربع بالمياه الطاغية التي لم يكن أحد ليعلم لأي مدى سترتفع بعد، ولم يكن يحول بين بغداد والغرق سوى بضعة سنتيمترات من التراب واكياس=

الفيضانات التى سبقته في تاريخ هذه البلاد القديم، ولن يكون آخر فيضان استثنائي يحدث في المستقبل، فقد يأتي فيضان آخر استثنائي كذلك، لكن من المؤكد أنه لن يكون له نفس الأثر بفضل مشاريع الري الخاصة بدرء أخطار الفيضان التى نُفّذت في القطر، وهي على وشك التكامل، كمشاريع الثرثار ودوكان ودربندخان ، والان سد الموصل ،وفي المستقبل القريب – إن شاء الله– مشروع بخمة، عدا المشاريع الأخرى الصغرى . وفي هذه المناسبة يحضرني ماسمعته من أستاذ الهَيْدرُوليك في جامعة (دِلْفت)الهولندي حيث كنت أنا وعضو من مجلس الإعمار[١٢٧] قد زرنا في أوائل الخمسينات مختبر الجامعة المذكورة للهيدروليك، وهو من أشهر مختبرات الهيدروليك في أوربا. وأذكر أن القائمين على هذا المختبر كانوا قد صنعوا فيّ أرض المختبر (أنموذجاً) لأنهار هولندا وبلجيكا وسدادهما. وأخبرنا البروفيسور المذكور أنهم يشغلون على فرضيـة لمعرفة أثر الفيضانات على سداد القطرين في حالة وقوع أحد الاحتمالات التالية وهي:

(١)عندما تكون أنهار القطرين في حالة فيضان والبحر في حالة مد فيضيق تصريف مياهها إلى البحر.

(٢)في حالة أن تكون أنهار القطرين في حالة فيضان وهنالك رياح شديدة تضرب سواحل البحر فيضيق كذلك تسَرُّب المياه الفائضة الى البحر .

وهنالك احتمال ثالث لا يعملون تجارب عليه، لأن ميزانيتي القطرين –كما قال لو اجتمعتا لما نهضتا بكلفة تعلية سداد البلدين لمقاومة الحالة، وهذا الاحتمال هو عندما تجتمع الظروف الثلاث في آن واحد وهي:

= الرمل، ويكفي أن تهب ريح قوية لترفع المياه فوقها وتدفع بها نحو المدينة فتغمرها ومن فيها وتحل الكارثة" (جريدة الاتحاد، بغداد العدد ١٨٨، في ٢٧ آب ١٩٩٠).

[١٢٧] هو السيد عبد الأمير الأزري.

(٣) عندما تكون الأنهر في حالة فيضان، والبحر في حالة مد، والرياح الشديدة تهب على الساحل.

ومن الصدف أن فيضاناً استثنائياً من هذا النوع وقع بعد سنة واحدة وأغرق خُمْسي أراضي هولندا، وبعد بضعة سنوات وقع فيضان ٥٤ في العراق. وبالفعل فإن البروفيسور قال لنا في محاضرته: إن الفيضان الاستثنائي في بلده الذي يحكي عنه يمكن أن يحدث في أية لحظة وفي أية سنة. وهكذا كان الأمر كما توقَّع.

وكما قلت سابقاً فإن ظاهرة الفيضان كانت مسألة متوقعة ومألوفة ومعلومة في العراق، ولا سيما في السابق حيث لم تكن ثمة مشاريع لدرء أخطار الفيضان، ولذلك فإن مديرية الري العامة، وهي دائرة منتظمة وكفوءة، قد احتاطت لذلك، فأصدرت نشرة مطبوعة وموزعة مقدماً على كل الدوائر المعنية، وقد ثُبِّتت في تلك النشرة أو الكراسة واجبات مختلف الجهات، فعلى سبيل المثال فإن سدة المدينة وسداد ضفتي دجلة كانت من مسؤولية أمانة العاصمة، والسدة الشرقية من مسؤوليات مديرية الأشغال العامة. وتقوم هذه الجهات، بصرف النظر عن تبدل الأشخاص، بواجباتها بصورة أوتوماتيكية، وتشترك كل الجهات التي تستطيع العمل بهذه الواجبات، والجيش على رأس هذه الجهات، وهو المُعَوَّل عليه بالأخير. ويبدأ عادة بعمال الري أولاً، ثم يستعان بالطلاب عندما يزداد الخطر والحاجة إلى العدد الأكبر، ثم أفراد الشرطة، لذلك فلا يستطيع أحد أن يُنكر فضل أحد، فالكل يشتركون في المكافحة، وعندما تمس الحاجة فالجيش على رأس من يُعول عليه في مثل هذه الحالات لما يتصف به من روح الالتزام والضبط والفداء والشجاعة . ولذلك فلا يصح القول كما

طاب للبعض[١٢٨] ان يقول بأن هنالك تعتيم على دور الجيش أو بطولة أحد، ولا يستطيع أحد التقليل منه أو إنكاره أو الاستغناء عنه في مثل هذه المُلمات . ويلوح لي أن الذي تباكى على حظ الجيش، واتَّهَم الآخرين بالتعتيم على دوره، إنما كان يتباكى على نفسه محتمياً بمظلة الجيش، لأنه لم يُمَجَّد شخصياً أو تُسند إليه بالذات بطولة، واية بطولة قد أدّاها هو؟ وكيف يمجد أو يذكر إذا لم تكن هناك مشكلة قد حلَّها هو، أو دور مهم قد قام به، أو فكرة فذّة قدّمها مما يستحق التقدير والاعجاب بسببها. وقد حَشَر اسم الجيش واستظل باسمه قصداً ليصيب مكسباً لا يستحقه مستفيداً من سمعة الجيش وهيبته، فالموضوع كله مختلق من الأساس. وليس أدل على عدم اطلاع الكاتب شخصياً على ما كان يدور ويجري من حوادث الفيضان، هو إدِّعاؤه أن أحلك الأيام كانت ٢٧،٢٦،٢٥،٢٤ مارت عام ١٩٥٤ بينما الليلة الخطرة جداً كانت ليلة ٢٠/١٩ نيسان ١٩٥٤ كما هو معروف لدى الجميع، وهي الليلة التي فُكِّر بإخلاء الرصافة من أهلها إلى الكرخ .

ومن الطبيعي أنه في حادث مهم كحادث هذا الفيضان الاستثنائي أن تحدث ظروف آنية تستدعي شحذ الافكار والهمم بصورة جدية جداً، وقد تحين فرصة خاصة لبعض الأفراد دون غيرهم، وبمعزل عن الجهات المسؤولة مباشرة، بابتكار بعض العمليات والأفكار المفاجئة التي لا تخطر على بال الآخرين. والحادث الذي وقع لي عندما استدعيتُ ليلة الخطر إلى مجلس الوزراء، وقد استولت الحيرة على أفكار الجميع حول كيفية إجراء التعلية للسداد في تلك الساعة الحرجة التي أخذ الماء يطفح على السداد، كان يمثل فرصة من هذا القبيل، فكان اقتراحي وتاييد الجميع له وتطبيقي

---

[١٢٨] تنظر المقالة المنشورة في المجلة العسكرية ، العدد الرابع ، تشرين الأول سنة ١٩٨١، الصفحات ١٥١-١٦٥.

بنفسي أمر تعلية السداد بأخذ التراب من مؤخرة سطح السدة العلوي ووضعها على مقدمتها المقابلة للماء، بواسطة المدرجة الرافعة، واحدة من هذه الفرص النادرة ، وكانت عملية حاسمة لدرء خطر محدق في الساعة، بل وفي الثانية، الحاسمة كما طلعت بالخبر في حينه جريدة لواء الاستقلال صبيحة يوم ٢١نيسان ١٩٥٤، وانا فخور بذلك، فأخذ التراب من مؤخرة السدة ووضعه في مقدمتها عملية كنت أول من اقترحها وطبّقها، ولم تُطبق قبل ذلك طوال الثلاثة أشهر المتتالية التي شهدت ذلك الفيضان، وهي مارت ونيسان ومايس، وكل ما قيل ويقال خلاف ذلك هو محض افتراء وتجني على الحقائق ويعوزه الكثير من الدقة. لقد أوصيت بعد ذلك بالاستمرار بهذه العملية من قبل معاونيَّ لعدة ايام.

وكانت ليلة ٢٠/١٩ نيسان هي الليلة الخطرة الاستثنائية، وكل الليالي الأخرى كانت من الليالي الاعتيادية الخطرة التي تعوّدنا على مكافحتها. ولقد رُويَت قصة الفيضان فيما بعد من قبل الكثيرين

(والكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقِرّ لهم بذاكا)

ومع الأسف فإن أحداً لم يذكر الواقعة الثابتة، ولا يعجبني أن أقول أن هذا تزييف أو تشويش للحقائق كما يحدث كثيراً في التاريخ، ولكن لا يوجد ما يمنعني في الأقل أن أقول أنه نوع من الخَبْن للحقائق – آمل ان لا يكون مقصوداً، وحَسْبي أن وَصفَته ونوَّهَت به جريدة (لواء الاستقلال) بكل صراحة في صبيحة اليوم التالي لليوم الذي تلا تلك الليلة، عندما كان كل المسؤولين عن الفيضان مازالوا أحياءً يُرزقون، وتناقلت الألسن الخبر بكل تقدير وإعجاب لمدة طويلة. وسمعت الكثير من كلمات التقدير والاعجاب إذ ذاك من لَدُن كل الجهات التي راجعتها والتقيتُ بها صدفة لمدة طويلة بعد الحادث. وحَسْبي كذلك أن أجد وأنا أُقلِّب يوم كتابة هذه الكلمات،

الأوسمة والأنواط والمداليات التي أحملها، نوط الانقاذ لفيضان العراق سنة ١٩٥٤ الذي كان قد منح لي.

وبعد بضعة أيام سافرت إلى الموصل للراحة والاستجمام من أثر رَشَح صدري أصابني ليلة تطبيق الفكرة، إذ كان الهواء بارداً يضرب صدري وأنا اتابع المكائن التي كانت تنثر غباراً وراءها، كما أصبت بالبرد بعد تلك الليلة بيوم أو يومين عندما ضَرَبت عاصفة هوجاء السدة عند موقع لمدافع ضد الجو، وكنت قد ذهبت أنا ومعاونيَّ في وزارة الإعمار إليه في الحال للمكافحة.

وبعد استراحة لبضعة أيام سقطت الوزارة، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة المرحوم أرشد العمري. وكنت قد عُيِّنتُ فيها وزيراً للمواصلات والأشغال[١٢٩]، وظن كثيرون أن هذا التعيين كان مكافأة لي على الموفقية التي أصبتها في مكافحة الفيضان، وفي الحقيقة لم يكن السبب في الأصل هذا الذي تصوره البعض، ولكن الوزارة شكلت على اساس وزارة انتقالية محايدة ولذلك فان كثيراً من اعضائها لم يكونوا ذوي ميول سياسية معينة فجرى إختياري على هذا الأساس.

واثناء تولي الوزارة حدث أمر هام لم يكن أحد يعرف به، فقد اتَّصل بي تلفونياً مدير شركة النفط العراقية وطلب مني اعطائه موعدا مستعجلاً لمواجهتي، فوافقت في الحال، فالتقينا بمقر الوزارة، وأعلمني بما لم اكن ولا غيري يعرف، وقال: إن احتياطينا من مشتقات النفط قد قارب النفاذ، ويجب أن لا يعلم أحد بذلك، وطلب مني أن أُعلم رئيس الوزراء بصورة سرية لئلا يحصل هلع إذا ما تسرَّب النبأ عن طريق بقية الوزراء. وطلب مني الاستعجال في إعادة تشغيل قطارَي البصرة وخانقين، وكلا القطارين كانا متوقفين عن السير بسبب الكَسَرات التي حدثت في خطيهما.

---

[١٢٩] بموجب الإرادة الملكية المرقمة ٣٨٧ والمؤرخة في ٢٩ نيسان ١٩٥٤.

وقد تطرّق إلى موضع الكسْرات في تلك السداد بعض الكُتّاب ولا حاجة للاعادة، وعلاقة القطارين بنقل مشتقات النفط الذي كان يأتي من جهة خانقين ويمد بغداد حتى المنطقة الجنوبية هي أنه عند حدوث الفيضان وغرق الارض شرق السدة وبغداد الجديدة، كان كثير من السيارات الحوضية حُبِس داخل بغداد، ولا يمكن إخراجه إلى جهة خانقين بسبب انقطاع الطريق، وكذلك كانت هنالك عربات حوضية يجرّها القطار تستعمل كذلك لنقل مشتقات النفط، وقد حُبِس القسم الأكبر منها لنفس السبب داخل بغداد، ولم يبقَ من هذه سوى العربات الحوضية. أما السيارات الحوضية فكانت خارج الخزان المائي المتكون وراء السدة مُشكّلاً بحيرة واسعة. وكانت الشركة تنقل مشتقات النفط بواسطة هذا العدد المحدد من الحوضيات إلى حافة خزان الماء، ومن هناك كانت الكمية المنقولة تُضَخ بواسطة المضخات وأنبوب مُدَّ في قاع الخزان المائي لتنقل كميات النفط بهذه الصورة إلى خزّان الكيلاني. وكان في خزان الكيلاني قبلاً كمية لا بأس بها مخزونة كاحتياطي، ولكن لما طال أمد الفيضان قلّت الكمية الاحتياطية من هذه المواد. وكذلك كان لدى مصلحة دائرة الكهرباء كمية احتياطية، وكلتاهما قلّت بصورة ملحوظة.

طلب مني مدير الشركة تشغيل القطارين بصورة خاصة بإخراج العربات الحوضية المحبوسة داخل بغداد، ولم يكن القصد من تشغيل القطارين نقل المسافرين، فهذا بالطبع غير ممكن، وقد أخبرت رئيس الوزراء في الحال بالأمر، واستدْعَيت في الحال مدير السكك الحديد العلم، وكان آنذاك السيد إسماعيل صفوت، ورئيس المهندسين البريطاني المستر براون، وطلبتُ منهما إجراء ما يلزم لإعادة تشغيل القطارين بأسرع ما يمكن، ولهذا الغرض فقط. وبالفعل فقد تم نصب جسور مؤقتة، وسُيِّر قطاران يدعيان بـ(القطار الهندسي) أي أنهما كانا خلواً من المسافرين،

وأخرجت الحوضيات، واستطعنا بذلك أن نضمن عدم شعور أحد بخطورة الامر.

فاتني أن أذكر أن مكائن مجلس الإعمار لم تعمل في مكافحة هذا الفيضان، ليس بسبب زعم البعض بأنه هو الذي منعها، أو أنها غطست في الأرض، بل لأنها لم تكن في بغداد كما ذكرت في مبدأ حديثي، وإنما كانت في الشمال، كما أنها لم تكن مناسبة للعمل للأسباب التي بينتها تفصيلاً، وبيَّنتُ عدم امكان احضارها، وعدم وجود ضرورة لها.

لم يدر بخلَدي ولم يكن في نيَّتي أن أكتب ما كتبت لولا أن قام أكثر من كاتب وبعد مضي عدة سنوات ، زادت في إحداها على ربع قرن، وكاد الموضوع خلالها أن يُنسى، بطَرْق الموضوع من جديد، ولولا وجود نقص في كتاباتهم أظهر أن ثمة نوعٍ من التباين بين هذه الكتابات وبين ما أعرفه أنا ودَوَّنته في هذا البحث، وما ذَكَرَته أيضا جريدة لواء الاستقلال التي كانت قد صدرت بعد يوم واحد فقط من تلك الليلة ذاتها وما تلاها، ولولا أيضا أن البعض قد أسند بعض الأدوار التي كانت هي في الحقيقة لغيرهم ، فقالوا إنهم قد أوعزوا لفلان وفلان أن يقوم بكذا وكذا ، وذلك ما جعلني اكتب واعود للكتابة واقول:-

حول أسوء ليلة

قال المرحوم اللواء الركن المتقاعد خليل جميل في الصفحة (١٥٨) من مقاله المنشور في المجلة العسكرية تشرين الاول عام ١٩٨١ (العدد الرابع) :كانت أحلك الأيام هي الأيام ٢٤،٢٥،٢٦،٢٧ من شهر مارت عام ١٩٥٤، بينما قال الأستاذ المؤرخ [عبد الرزاق] الحسني[١٣٠] ونقله عنه

[١٣٠] جاء في تاريخ الوزارات العراقية ج٩ ص ٨٥ من الطبعة الخامسة الموسعة، ما نصه" وصلت المناسيب إلى درجة مخطرة في ١٩٥٤/٣/٢٥ وصدر بيان بتعويض المتضررين لما يصيبهم في حالة حدوث كسرات. في ١٩٥٤/٣/٢٩=

الدكتور أحمد سوسة في القسم الثاني من كتابه (فيضانات بغداد في التاريخ)[٣١] ما يلي:-

وكانت ليلة التاسع والعشرين من الشهر (آذار) أسوء الليالي التي شهدتها بغداد فإن الخطر الذي كان يُهدّد العاصمة ...... الخ.

ويظهر أن المرحوم الدكتور سوسه يتفق مع الآخرين في ذلك. بينما يصف السيد فائق السامرائي في جريدة لواء الاستقلال الصادرة في يوم الأربعاء المصادف ٢١/نيسان خطر وهول ليلة أخرى وقعت بعد ما يزيد على عشرين يوماً من ليلة ٢٩ آذار، مما يبدو أنها أخطر من سابقتها، وهي في الحقيقة أخطر الليالي قاطبة، فيقول "فاجتمع مجلس الوزراء صباح يوم الثلاثاء، أي حوالي الساعة الثانية عشر والدقيقة الخامسة عشر من يوم الإثنين ليلة الثلاثاء" وهذه الليلة هي التي أُستُدعيت خلالها للحضور أمام مجلس الوزراء المُجتمع في مديرية الري العامة، وبُلِّغتُ برغبة المجلس في تعلية السدة دَرْءاً للخطر المُحدق بالمدينة، فكانت الفكرة التي اقترحتها والتي طبَّقتها بنفسي، كما أوضحته فيما تقدم من هذا البحث. وقد يبدو لأول وهلة أن هنالك تناقضاً في المعلومات في جملة ما بُيِّن وكُتب، بينما لم يكن -في الحقيقة- غير نقص في المعلومات وتباين في الآراء والتقدير، فمما لاينكر أن كلاً من الليالي التي ذكرها الكاتبون المحترمون كانت خطرة بذاتها، كما لا يُستبعد أن يكون تصريف النهر في إحدى هذه الليالي، ولاسيما ليلة ٢٩ آذار، أعظم وأكبر، ومستوى الماء في النهر أعلى مما هو في ليلة الفيضان المذكورة في

-أسوء الليالي التي شهدتها بغداد. واجتمع مجلس الوزراء في الساعة العاشرة ليلاً حول اخلاء الرصافة فعارض ذلك سعيد قزاز ولكن مع ذلك اتخذ مجلس الوزراء قرار الاخلاء الجزئي، لكن سعيد قزاز عارضه، وصدر بيان آخر مطمن.."

[٣١] تنظر ص ٥٧٧ من الكتاب المذكور.

جريدة لواء الاستقلال الصادرة في ٢١ نيسان، وهي آخر ليلة من ليـــالي الفيضان، ولكن مما لاشك فيه أن الليلة الأخيرة كانت بالرغم من كل ذلك أسوء ليالي الفيضان خطورة، وذلك بسبب أن خـزّان المـاء أو البحـيرة المتكونة خلف السدة أصبح مملوءاً بمياه الفيضانات السابقة إلى أعلى حد ، ولم تبق فيه قابلية إستيعاب أكثر لمياه إضافية بغض النظر عن كون المياه الجديدة المنحدرة إليه أقل كمية من سابقاتها. وهذا هو سر الخطر في تلـك الليلة، وبالفعل فقد أخذت المياه فيه تعلو السدة مقابل موقع قريـــة ســارة خاتون وبدأت تتدفق إلى جهة المدينة، وفي هذه القرية بالذات، حتى أُوقفت بالإجراءات المذكورة في هذا البحث . وليس أدلّ علـــى أن الليلـــة التـــي ذكَرتها جريدة لواء الإستقلال كانت أخطر الليالي أن مجلس الوزراء فـــي ٢٩ آذار اجتمع مساءً وانفض بعد قليل، إذ استطاع المرحوم سعيد قـــزاز أن يرفض اصدار البيان المتعلق بالإخلاء الجزئي للرصافة لعدم خطورة تلك الليلة بصورة فوق العادة، في حين أنه في الليلة المذكورة في جريـــدة الاستقلال اجتمع في منتصف الليلة وبقي مجتمعاً حتى صباح اليوم التالي، ولم ينفض إلاّ بعد أن أعلمته أنا تلفونياً حوالي الساعه الثالثـــة والنصـــف صباحاً فراغي من انجاز العملية التي كنتُ قد اقترحتـــها لتعليـــة الســـدة وخرجت بنفسي لتنفيذها. وإن المرحوم سعيد قزاز في تلك الليلة كان عليه أن يقرر موضوع اخلاء الرصافة من عدمه ولم يستطيع التخلـــص مـــن الحاح الوزارة عليه بإجراء ذلك إلاّ بعد أن تقرر إنتظار اجـــراء عمليـــة التعلية المذكورة ومشاهدة نتائجها ، فلما كملت تلك العملية وكانت نتائجـــها ناجحة وايجابية وزال خطر الفيضان زال احتمال غرق بغداد تماماً، صدر بيان زوال الخطر بدلاً من بيان الاخلاء، وذلك بأمره .

فمما تقدم يتضح بأنه ليس هنالك تباين أو تناقض في المعلومـــات التي بينها كل من كتب عن هذه الأحداث، وإنما يوجـــد أولاً نقـــص فـــي

المعلومات، ثم ترتّب على ذلك ثانياً اختلاف في الرأى حول تقدير درجة الخطر. وإذا جاز لنا أن نعذر الكاتبين المحترمين على هذا النقص في المعلومات لعدم اطلاعهما على ما جرى، وخاصة اللواء الركن خليل جميل إذ لم يُستدع إلى مجلس الوزراء في تلك الليلة رغم انه كان(آمر) الفيضان من الناحية الرسمية، بل كنتُ أنا من استدع بسبب مسؤوليتي عن مكائن مجلس الاعمار، والتي ظُنَّ انه هذا هو أوان استخدامها، أقول: إن جاز لنا أن نُقدّر هذين الكاتبين المحترمين، ولاسيما المرحوم خليل جميل، فإنه لايسعنا إلتماس العذر للمرحوم الدكتور أحمد سوسه لأنه كان قد اطّلع بالفعل على جريدة لواء الاستقلال التي روت الحادث الذي نحن بصدده، بدليل انه قد ذكرها بوصفها مرجعاً في كتابه فيضانات بغداد في التاريخ القسم الثالث في (ص١١١١) تحت عنوان (الاستقلال: مأساة الفيضان ٩٨)، كما يرجى النظر كذلك الى الثبت الذي يشير اليه الرقم ٩٨ في القسم الاول من كتابه. وأكرر بأني آمل أن لا يكون ذلك مقصوداً، وإلاّ فهو لا يتوقع ممن آل على نفسه ذكر الحقائق التاريخية، سيما وأنه مهندس، ويقدر أهمية مختلف الأعمال الهندسية.

وكنت في مستهل هذا البحث قد أعطيت العذر للواء خليل جميل لعدم علمه بالواقعة على ما يظهر ، لكني وجدته في الصفحه(١٥٦) من مقاله في المجلة العسكرية يسند لنفسه دعوته فلان وفلا ن وطلبه منه تشغيل المكائن الخاصة التي تحفر التراب من خلف السدة وتضعه أمامها. ويقول"وهذا مازاد من ارتفاع السداد بصورة مستعجلة". إن هذه الماكنة، والتي لم يسمّها باسمها الحقيقي هي نفسها الماكنة المُدرّجة الرافعة التي كنت قد اقترحت استخدامها لتعلية السدة كما ذكرت ذلك آنفاً ،ولم تستعمل قط قبل ذلك في هذه العملية أو في غيرها بعد، بل لم يكد يسمع بها أحد من قبل سواي وبعض معاونيّ.ولابد أنه -رحمه الله- قد شاهدها وهي

تعمل، فتوهم أنه هو الذي قد أمر بذلك،أو أراد أن يوهم بأنه هـو الذي ابتدع او اقترح فكرة استعمالها .

كما كنت قد نوّهت بأن الحكومة أو الصحف المحلية لم تكن تريد أو تتقصد التعتيم على دور الجيش، ولابد أن المرحوم خليل جميل انما كان يتباكى على نفسه تحت مظلة الجيش.ولكن َنسي فعاد يقول في الصفحة (١٦٤) من مقاله بأن الأمير عبد الإله قد اتصل به هاتفياً وهو يبشره بالترقية إلى رُتبة لواء، وان المغفور له الملك فيصل الثاني كان يقف إلى جانبه وهو يشاركه بتقديم التهنئة، ويقول " لأنك قمتَ بعملٍ جبّار لإنقاذ بغداد"، فما هذا التناقض من خليل جميل وما هذا الإنكار؟ ، كما انني قرأت للمؤرخ عبدالرزاق الحسني بحثه عن الفيضان في الجزء التاسع من كتابه (تاريخ الوزارات)، وفيه أن المرحوم خليل جميل كان قد أخبره بأنه منح وسام الاستحقاق. ولا ادري ما إذا كان يوجد في العراق وسام بهذا الاسم آنذاك.

مشروع مجاري بغداد

منذ انتقالي إلى بغداد في أوائل السنة ١٩٣٥ لإشغال وظيفة هندسية في مديرية الأشغال العامة والري المندمجتين، لَفَتَت نظري حالة الطرق في العاصمة، وكثرة التخريب التي يصيبها نتيجة مدّ أنابيب الماء، وبعد أن تكونَ قد بلطت أرصفتها، ومدى التذمر الذي كان يصيب الاهالي من جراء الفوضى في الأعمال وتوقيتها من مد للأنابيب، ثم التبليط، ثم الحفر من جديد، أما بتصليح البالي منها، أو بمد أنابيب جديدة، ومن ثم إعادة التبليط، وهكذا تجري العملية بصوره متعاقبة. وكثرة انتقاد الأهالي لهذه الفوضى في الأعمال، وما يقال عن مد أنابيب الماء، يصدق أيضاً على (قابلوات) التلفونات والكهرباء . وكان الكثير من الناس يتساءلون

-ولاسيما من قد سافر الى الخارج- عن السبب في عـدم توقيـت هـذه الأعمال بصورة لايتعارض بعضها مع البعض الآخر، ولمـاذا لا تُنشـأ أنفاق تحت الأرصفة لوضع مثل هذه الأسلاك والأنابيب فيـها دونمـا الحاجة إلى التخريب والتبذير والتكرار في المصاريف، عدا ما تحدثـه من عدم الراحه للسابلة. وكانت الأعذار تقدَّم من الجهات المسؤولة بعـدم مساعدة الميزانية والأعتمادات من مختلف الجهات على تأمين هذه الناحية.

ثم ازداد إلتفات نظري إلى هذه الحالة بصورة خاصة عندمـا أُعـيرت خدماتي الى أمانة العاصمة في أوائل السنه ١٩٤٠، وأصبحت أنا المسؤول عن الطرق وشوارع أمانة العاصمة. وصرت أكثر تصوراً لما سـيحدث عندما نُقدِم في المستقبل على تنفيذ مشاريع مجاري المياه القذرة للعاصمة.

وكنت أتساءل مع نفسي آسفاً: لماذا لم ينفذ المشروع القديم جنباً الى جنـب مع مشروع شبكة اسالة ماء الشرب وفي نفس الوقت، قبل ان يكمل تبليط الطرق والأرصفة؟ والمفروض أن يجري تنفيذ مشروع أنابيب المجـاري مع مشروع إسالة الماء لأن توفر الماء يزيد في استعماله، وهذا يذهب الى البلاليع المحفورة بالتُربة، فيؤدي ذلك إلى زيادة منسوب مستوى الميـاه الجوفية التي هي بالأصل عالية لانبساط الأرض في بغداد وتسرب ميـاه الفيضان الى داخل التربة وعدم جريانها، الأمر الذي يسيء إلـى الحالـة الصحية والعمرانية كثيراً.

شغلني هذا الأمر كثيراً، وإذا كانت الحالة المالية لم تكن تسـاعد على البدء بتنفيذ مشروع بكلفة كبيرة، فإن تأخيره يزيد في هـذه الكلفـة ويؤدي إلى مزيد من الصعوبات الفنية، ولذا فقد وضعت نصـب عينـي تنفيذ هذا المشروع بأسرع وقت ممكن.

وفي أواخر سنة ١٩٤٦ تمكنت من اقناع السـلطات المختصـة بوجوب تعيين مهندسين استشاريين الدراسة الأولية حول الأمـر. ووقـع

اختياري على المهندسين المشهورين بهذا الاختصاص وهم (جون تـــايلر وأولاده)، وهي شركة بريطانية، فاتصلت بها عـــن طريـــق المهندســـين الإستشاريين للحكومة العراقية آنذاك (السادة كود ومشـــاركوهم) فـــأبدوا استعدادهم للقيام بالمهمة كما اتضح ذلك من رد المســـتر(كويـــذر) أحـــد المشاركين في شركة السادة كود، والمؤرخ في ٨ كانون الثـــاني ١٩٤٧، وقد أبدى في نفس الوقت أن السادة تايلر قد استشيروا أيضاً بشأن مجـــاري القاهرة والإسكندرية. وبالفعل تم الاتفاق مع السادة تايلر للحضـــور الـــى العاصمة وتقديم تقرير أولي بالأمر.

ولما قدموا إلى بغداد رافقتهم بالطواف في شوارع وأزقة بغـــداد، بل صحبتهم في الدخول إلى بعض الدور، وخاصة دور الطبقـــة الفقـــيرة للاطلاع على العادات اليومية والاجتماعية للسكان، وعلى المرافق الصحية المتوفرة آنذاك. وكم ساءني ماشاهدته من مناظر مخزية وغير صحية عند دخولي، مع الاستشاريين، إلى بعض الدور التي كانت تمتهن مهنة صنـــع الخبز سواء لبيعه في الأسواق أو لإستهلاكهم الخاص، حيث كـــان تنـــور الخبز مجاوراً للمراحيض، والتي تكون عادة من النوع المكشـــوف، وقـــد امتلأت بمحتوياتها القذرة، والذباب يتنقّل بكل حرية بينها وبيـــن ســـبت الخبز وقصعة العجين. وكان مـــن الضـــروري أن يطلـــع المهندســـون الاستشاريون على هذه العادات ليعلموا ماكان يُلقى في هذه المرافق مـــن أحجار ومياه وخِرَق وغير ذلك، سواء للتنظيف أو لأمر آخر، ممـــا مـــن شأنه أن يؤثر على تصميمهم.

لقد قدّم المهندسون الاستشاريون تقريرهم بعد مدة قصـــيرة، ولكن نظراً لرداءة الحالة المالية لم يحصل أي تقدم بعد هـــذه المرحلـــة، وتوقف الأمر عند هذا الحد، خاصة وإني كنت قد تركت امانة العاصمـــة

لاصبح في ٤٧/١٢/١٣ مديراً عاماً للأشغال، بيد أني لم أنسَ الموضـوع، وتطلعتُ إلى فرصة أخرى لتحقيق هذا المشروع الهام.

وفي التاسع من حزيران سنة ١٩٥٤ عينتُ أميناً للعاصمة، فكـان من أول أهدافي أن احقق –في أول فرصة – هذا المشروع . ومن المعلوم أن مشروع مجاري المياه القذرة لم يكن من واجبات أمانة العاصمة آنذاك، ولم تكن هنالك مصلحة مجاري، وكل ما في الأمر أنه كان ثمة قانون قديم لتأسيس مصلحة للمجاري، ينوي المسؤولون تعديله كما اتضح لي ذلك من مراجعة بعض المراجع العليا. واتضح لي أن الموضوع لم يولـى تلـك الأهمية اللائقة، ولا توجد بادرة لتعديل القانون قريباً، أو القيام بالمشـروع، فأقدمت على خطوة مهمة إذ راجعت المرحوم سعيد قزّاز، وكان وزيـراً للداخلية، فأوضحت له أهمية المشروع وضرورة تنفيذه بأسـرع وقـت. وعرضت أن تقوم أمانة العاصمة بالبدء به وتنفيذه وتمويله إلـى ان يتم تشريع قانون للمصلحة وتشكيلها، وحينئذ يُحال العمل والمشـروع إليـها لإكماله، ولأجل ذلك عرضت تسـليف المصلحة (التي ستشـكل فـي المستقبل) مبلغاً من المـال قدّر، علـى ما أتذكر بـ (١٥٠٠٠٠) دينـار من صندوق الأمانة لتدارك أجور المهندسين الاستشاريين واستملاك بعض المساحات من الأراضي في مختلف أنحاء العاصمة لأنشاء محطات الضخ ومراكز التصفية في الرصافة وفي الكرخ، قبل أن ترتفـع قيمـة الأرض فتتكلف المصلحة مبالغ باهظة جداً تثقل كاهلها. وقد اعلمتهُ بإن الدراسـة واعداد التصاميم تستغرق وحدها سنتين ولذلك يجب التحـرك بسـرعة، فأقتنع –رحمهُ الله –بما وضحته له، وتقدم في الحال إلى مجلس الـوزراء بصفته وزيراً للداخلية واستحصل موافقة المجلس على اقتراحي القـاضي بتسليف الأمانة المبلغ الـلازم الـى مصلحـةالمجاري المسـتقلة عنـها،

والمربوطة بها عن طريق أمين العاصمة الذي سيصبح أول رئيس لـــها بحكم وظيفته[١٣٢].

وهكذا قامت المصلحة الجديدة بتعيين المهندسين الاستشـــاريين، والاتفاق معهم على البدء بالدراسة، وإعداد التصاميم التفصيلية، وبـــالفعل حضر ممثل الاستشاريين إلى بغداد في ١٩٥٥/١/٣ ليبدأ العمل في ذلـــك. وفي الوقت نفسه قمنا باستملاك الأراضي الخاصة بمركـــزي التصفيـــة، وكذلك عدة ساحات في مختلف أنحاء العاصمة لإنشاء محطـــات الضـــخ عليها. وأول قسم من العاصمة جرى إعداد تصاميمه التفصيلية هو القســـم الكائن بين الباب الشرقي ومعسكر الرشيد، وأجريت المناقصة لتنفيذ ذلـــك، فلم يتقدم إليها غير شركة (زبلين) المشهورة. ولما لم يكن من العادة إحالة عمل ما إلى مقاول ما لم تشترك في المناقصة عدة جهات، فقـــد ارتـــؤي إعادة إعلان المناقصة. وأشار الاستشاريون علينا أن نقسم المشروع إلـــى ثلاث مناقصات تفادياً لضخامة العمل، الذي يؤدي بدوره إلـــى عـــزوف المناقصين عن تنفيذه، ولذلك فقد قسمت المناقصة عند إعادتها إلى ثـــلاث، واحدة لانشاء مركز التجميع والتصفية، والثانية لمد المجـــاري الرئيســـة، والثالثة لمد المجاري الثانوية أو الفرعية، فتقدم عدة مقـــاولين، واخترنـــا أفضل العروض المقدمة لكل من المناقصات الثلاث، وبقيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ انتهت علاقتي بمصلحة المجاري بسبب تبدل الهيأة الحاكمـــة فـــي البلاد. على أني علمت بأن المناقصات قد أحيلت ونفذت بالفعل، ثـــم تـــم

---

[١٣٢] احدثت مصلحة المجاري بموجب النظام رقم ٣٤ لسنة ١٩٥٥ المستند على القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٥٥، وتكونت ادارتها على النحو الآتي: أمين العاصمة رئيســـاً. مدير البلديات العام عضواً. مدير الأشغال العام عضواً . مدير مصلحة اســـالة الماء لمنطقة بغداد العام عضواً. مدير الري العام عضواً.

فصل المجاري عن أمانة العاصمة مستقلة بذاتها بموجب التشريع الذي أعد لهذا الغرض، وأخذت بدورها تنفذ أقساماً أخرى من العاصمة، الواحد تلو الأخر، حتى قاربت الآن أن تشمل جميع أنحائها تقريباً، فالعمل مستمر وسيبقى مستمراً بسبب توسع العاصمة الدائم.

وقد علمت أن مركز التصفية في الرصافة قد أبدل موقعه لأسباب أمنية! حيث كانت المجاري الرئيسة تمر من وسط معسكر الرشيد، فلم ترغب السلطات العليا بذلك، واستتبع التغيير أن يجعل المصب لهذه المجاري، بعد التصفية، على نهر ديالى بدلاً من دجلة. وبما أن تصريف نهر ديالى في الصيف قليل، فقد اقتضى أن تكون تصفية المياه القذرة تصفية كاملة بدلاً من أن تكون جزئية، وهذا ما أدى إلى زيادة في الكلفة. كما أن واردات المصلحة لبثت على ما عهدت، وتتألف من استيفائها رسم تأسيس سنوي، وأجر اشتراك شهري، وقد رُبط أجر الإشتراك الشهري بأجر استهلاك الماء، وهو مبدأ معقول جداً وصائب. وإني فخور بأن المشروع الذي بدأته، والمصلحة التي كنت أول رئيس لها، تقوم الآن بعملها بكفاءة، وقد زال بذلك نقص فادح في العاصمة التي طالما أحببتها وعملت من أجلها. ثم إني علمت أن مصلحة المجاري أعيد إلحاقها مؤخراً بأمانة العاصمة.

التصميم الأساسي لمدينة بغداد

عدتُ إلى أمانة العاصمة أميناً لها بعد غياب عنها دام سبع سنين[٣٣]، وكنت فيها سابقاً رئيساً لمهندسيها، قضيت هذه السنوات السبع

---

[٣٣] كتب السيد فخري الفخري في أوراق شخصية محفوظة في أرشيفه الشخصي ما يأتي: عندما عينت بمنصب أمين العاصمة ، وكان ذلك بتاريخ ١٩٥٤/٦/١٠ فهمت من قبل المسؤولين أن الغاية كانت من تعييني بهذا المنصب، ووقوع–

غائباً عنها، متنقلاً بين مديرية الأشغال العامة مديراً عاماً لها، وبين مجلس الإعمار شاغلاً فيها رئاسة الهيئة الفنية الثانية المسؤولة عن الطرق والجسور والمباني في القطر كافة، وأخيراً وزيراً للمواصلات والأشغال، ولم أكن في أثناء ذلك بعيداً عما كان يجري في الأمانة، بل وضعت نصب عيني أن أحقق لها ما كنت أدرك حاجتها إليه، وهو فتح شارع رئيسي عريض يخترق المدينة القديمة من شمالها إلى جنوبها، أي من باب المعظم حتى الباب الشرقي، وهو ما يعرف الآن بشارع الخلفاء[134] وكان أصلاً قد سميته عند فتحه شارع الملكة عالية[135] ثم بُدّل اسمه في سنة ١٩٥٨ إلى شارع الجمهورية، لتخفيف أزمة المرور في المدينة، وليعمل بمثابة رئة للمدينة القديمة المكتضة بالسكان، وليكون باعثاً في الوقت نفسه على حركة

=الاختيار علي بالذات لاشغاله، هو ما قر عليه العزم للقيام بتنفيذ مشاريع عمرانية ذات أهمية تفتقر العاصمة إليها أشد الافتقار، واعتمادهم على خبرتي الطويلة في المجال العمراني، وفي تنفيذ مثل هذه المشاريع ، وقد وعدت آنذاك بالتأييد التام في.اجراءات ومراحل التنفيذ [مما] يساعدني على الاضطلاع بالمهمة على أكمل وجه، وبالفعل صدر المرسومان المرقمان ١٢ و١٣ لسنة ١٩٥٤ أي بعد تعييني بمدة وجيزة منحت أمانة العاصمة بموجب المرسوم الأول قرضاً قدره (٥٠٠٠٠٠) دينار لغرض تحسين وضع ميزانيتها التي كانت تشكو العجز، ولتمكينها من المباشرة بالمشاريع المقررة، ثم عدلت الخطة فصدر المرسوم رقم= =٢٠ لسنة ١٩٥٤ وبموجبه تستطيع الأمانة أن تستقرض مباشرة مبلغ (٢٠٠٠٠٠) دينار من المصرف الوطني العراقي بفائدة أقل مما كانت في المرسوم السابق، وفي ١٩٥٥/١١/٢ أمكن سحب القسط الأول من هذا القرض، ومنحت الأمانة بموجب المرسوم رقم ١٣ لسنة ١٩٥٤ منحة قدرها ٦٠٠٠٠٠ دينار لغرض سد العجز في ميزانيتها المعتمدة آنذاك".

[134] سمي بذلك لوقوع جامع الخلفاء (جامع القصر في العصر العباسي، وكان مصلى الخلفاء العباسيين) في وسطه، على جهته الشرقية.

[135] زوجة الملك غازي، وأم الملك فيصل الثاني.

عمرانية واسعة بسبب هدم الدور القديمة وإنشاء أضعاف عددها دوراً جديدة، وهذا ما نجحت في تحقيقه على الرغم من عدم مساعدة مالية الأمانة للقيام بهكذا مشروع مكلف، مما ألجأني للإقتراض له من المصارف ومن مجلس الإعمار بفوائد قليلة. وكان الدكتور بريكس، مخطط المدن[٣٦]، قد نوه بضرورة فتح شارع كهذا يمتد بين شارعي غازي والرشيد، إلاّ أنه ألمح بأن يكون أقل اتساعاً من الشارعين المذكورين، في حين جعلته أعرض منهما. فإذا أضفنا إلى هذا ما سبق أن فصلت القول فيه عن إنشاء مشروع تصريف المياه القذرة، أدركت ضرورة القيام ، بدون تأخير، بدراسة جدية وشاملة لتخطيط المدينة ووضع تصميم أساس لها ليجري العمران والنمو فيها بمقتضاه وفق قواعد تخطيط المدن العصرية، ولئلا يجرى نموها عشوائياً. ولهذا السبب فإني استخدمت في الحال الاستشاريين في تخطيط المدن السادة (مينو بريو وسبنسلي وماكفارلين) البريطانيين، حيث قاموا في الحال بالدراسة والمسح، وأكملوا في سنة ١٩٥٦ التصميم الأساسي للمدينة وهو ما عزز فيما بعد بتصاميم تفصيلية وتقارير أعقبته. وقد علق هذا التصميم الذي كان على شكل مخطط ملون على جدران غرف الدوائر الرسمية كافة وعمل بموجبه،

---

[٣٦] بتكليف من أمانة العاصمة قام البروفيسور الدكتور ج بريكس ، ومعاونه الدكتور وينر، بإعداد (مشروع التخطيط العام لمدينة بغداد)، وقدماه بواسطة المفوضية= =الألمانية في بغداد في ٧ كانون الأول سنة ١٩٣٧ إلى السيد أرشد العمري، أمين العاصمة يومذاك. وقد تناول هذا المشروع المبكر موضوعات شتى منها المطارات ومحطات السكك الحديد وطرقها، والنقليات النهرية، والطرق البرية وتقسيم المناطق، ومناطق السكن، والمناطق الإدارية، ومناطق الألعاب والمتنزهات والمناطق الصناعية، ومشروع اسالة الماء وتصريف المياه للمدينة، والشوارع ومحلات وقوف السيارات، والنقليات العامة وما إلى ذلك مما سيتحدث عنه المؤلف فيما بعد.

وبقي معلقاً إلى مدة غير بعيدة، ولم يرفع إلاّ بعد أن أعقبه تصميم جديد أعدته شركة اختصاصية بتخطيط المدن وهي شركة (بول سرفيس)[١٣٧] الذي اعتبر مكملاً له، وحل محله في الأشياء التي لم يشملها التصميم الأول. ومن مزايا التصميم الذي أعد في سنة ١٩٥٦ أنه طبق بمعظمه ولم يبق حبراً على ورق كما كان نصيب أمثاله في المدن العراقية الأخرى بسبب ملاحقتي الشخصية له لدى الجهات المختلفة.

لقد سادت موجة من الرغبة في إعداد تصاميم أساسية لمدن العراق وقت إقدامي على إعداد تصميم مدينة بغداد، ومع أن أكثر مخططي تلك المدن لم يكونوا بمستوى كفاءة من اخترتهم، إلاّ أن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء اخفاق تصاميمهم، وبقائها حبراً على ورق، يعود إلى سببين، أولهما انه لم يعين في تلك المدن رؤساء بلديات لهم رغبة أو خبرة في هذا المجال ليشاركوا المخططين في وضع هذه التصاميم وليوجهونهم الوجهة الصحيحة، أذ أن من المعلوم أن من عادة المصممين والمخططين أن يجعلوا تصاميمهم أشبه بالسجادة الجميلة الذي إذا نظر إليها الآخرون اعجبوا بها، ولم يجدوا فيها نقصاً أو عيباً، بيد أنهم إذا لم يكن من يرشدهم في البلدية إلى واقع الأمر بحسب الأوضاع القانونية والحالة المالية أطلقوا لأنفسهم العنان لتحقيق هذه الرغبة، وهذا ما تم بالفعل بشأن معظم التصاميم، ومن جهة أخرى فإن موارد البلديات كانت لا تساعد على تطبيق أبسط التصاميم بسبب ما تتطلبه من نفقات. والذي فعلته بالنسبة لتصميم بغداد هو إني شاركتُ المُخطِّطين ووجهتهم الوجه الصحيحة بما يتناسب وقوانيننا وتقاليدنا التي لا يعرفونها هم جيدا، فضلاً عن مناسبته لإمكانياتنا المالية، فجاء التصميم قابلاً للتنفيذ . وعلى الرغم من محاولتي أن أجعل التصميم -قدر الإمكان- مما تتحمله خزينة الأمانة، فأني أقدمت

---

[١٣٧] شركة بولونية أعدت مخططاً أساس لمدينة بغداد سنة ١٩٦٧

على الاستقراض لتنفيذ بعض أقسامه المُكلفة كفتح الشوارع، ومن جهة ثانية حملَتُ الدوائر الحكومية على المساهمة في التنفيذ دون أن تتحمل نفقات اضافية، إذ أنه من المعلوم أن للدوائر اعتمادات تشييد دوائرها، فقد حملت هذه الدوائر على ان تسرع باستملاك العقارات في الأماكن التي خصصتها لبناء تلك الدوائر بدلاً من أماكن أخرى، وهكذا فقد تم ايجاد المركز المَدَني في المكان الذي عينته واستملكت العقارات الداخلة ضمنه، من دون أن تتكلف خزانة الأمانة شيئاً، وها أنذا أجد الآن أن المباني التي كنت أرجو أن تُنشأ في المركز المدني قد أُنشئت بالفعل في مكانها[١٣٨] ، وقد استملكت تلك الاملاك عندما كان يكلف استملاكها رخيصا، ولو لم يحدث ذلك في حينه لاستحال الآن تحقيقه، وما يُقال عن المركز المدني يقال كذلك عن المركز الحكومي وان كانت بعض الوزارات لاعتبارات شتى ولخرى قد أُنشئت خارجه. ففي المركز المدني انشئت الدوائر التي لها علاقة بسكان بغداد كأمانة بغداد وإسالة الماء. وفي المركز الحكومي أُنشئت الوزارات التي لاعلاقة لها بسكان بغداد، كالخارجية ومجلس الوزراء والتخطيط وسواها وقريبة من القصر الجمهوري والمجلس الوطني المنشأين سابقاً .

ولا بد هنا من الإشارة إلى تمّ العمل بشأن الاحتفاظ بالنخيل، فنحن نعلم أن النخيل قد أخذ بالتناقص وكاد أن يُقضى عليه من قبل أصحاب البساتين، تحقيقاً لرغبتهم في الإستفادة من ارتفاع ثمن الأراضي التي تُستَغل للبناء، ولم يكن هنالك من قانون يمنع صاحب البستان من قطع النخيل واستعمال أرضه للبناء إلاّ بالاستملاك، ولم يكن للأمانة قدرة على استملاك بساتين النخيل لتحقيق هذه الغاية، وشقّ عليّ ان ارى بساتين

---

[١٣٨] يقصد دائرة أمانة بغداد والدوائر الملحقة بها الواقعة على شارع الخلفاء قرب ساحة الخلاني .

النخيل الكثيفة الموجودة في شبه جزيرة الكرادة الشـــرقية وهـــي تختفـــي تدريجياً، فاقترحت انشاء الجامعة في هذا المكان، وحملت الحكومة علـــى أن توافق على ذلك، وتعقبتُ الموضوع بإلحاح حتى تم الإستملاك، وبذلـك ضمنت بقاء النخيل الكثيف غير معرض للنقص والقطع بالجملة، ومع ذلك لم تتحمل الأمانة أي مبلغٍ لهذا الغرض، وما قُطع من النخيل كان بـــالطبع قليلاً لايجاد مكانٍ لأقسام الجامعة وعماراتها المختلفة هنا وهناك، ومع ذلك ضمنت انشاء الجامعة في أنسب مكان للدراسة للطف الجو والهدوء والبعد عن الضوضاء. وبمثل هذه التدابير التي تابعتها بإلحاح ضمنت تنفيذ معظم اقسام التصميم الأساسي ،و مثل هذا الإجراء لم يحصل في المدن العراقيـة الاخرى، ولذلك فقد أُهملت تلك التصاميم رغم أنها أُعدت في حينه من قبل أحسن مُخَطِطي المدن كما قلت سابقاً .

وما يقال عن المركزين المدني والحكومي والجامعة، يقال عـــن الجسور أيضاً، فقد أُنشئت الجسور في الأماكن التي عُينت فـــي التصميـــم الأساسي، وإن اختلفت مواقعها بضعة أمتار عن موقعها النظـــري، وقـــد أُنشئت هذه الجسور، وكذلك الشوارع، بدون استملاك أية اراضٍ باستعمال حق الرُبع الذي تستحقه الأمانة من الأراضي عند تقسيمها إلى قِطَع. وفـــي كثير من الأحيان تجاوز ما أخذته الأمانة من الأراضي عند تقسيمها الربع القانوني، ولكن أصحابها لم يمانعوا في أخذ هذه الزيادة منهم مجاناً بســبب التنظيم و(الشرَفيّة) التي تصيب أراضيهم نتيجة مشاريع الأمانة في إعمـار المناطق التي تقع أملاكها فيها . وهكذا فقد حصلت الأمانة على شـــوارع عريضة وساحات واسعة، ولو لم يجري أخذها في حينـــه حينمـــا كـــانت الأراضي غير باهضة الثمن وغير مفتوحة، لأستحال الآن توفيرها مـــهما توفرت المبالغ المرصدة لذلك. وكان أخذ هذه الشوارع والســاحات يعـــبر عن بعد نظر كبير عاد على المدينة بفائدة كبيرة ، فالمساحات الواسعة التي

أخذت في حينه مجانا كانت مكسبا للأمانة فعلى الرغم من أن مقتضيات وقواعد المرور اختلفت الآن عما كانت عليه في حينه، فإن وجود المساحة الواسعة مكنت الأمانة والمرور بالتصرف في هذه المساحات الواسعة بكل حرية وحسب مقتضى الحال دون أن يقف ارتفاع كلفة الاستملاك حائلا في سبيل تنظيمها بالكيفية المطلوبة .

هذا باختصار ما كان من أمر اعداد أول تصميم أساسي لمدينة بغداد وتخطيطها تخطيطا شاملا وفق قواعد تخطيط المدن من كل الوجوه، وسأعود فيما بعد بشيئ من التفصيل لشرح بعض جوانب التصميم وتنفيذ بعض اقسامه الاخرى، على انه يجب ان لا يفهم مما تقدم أنه لم تكن هنالك محاولة أولية سابقة لتخطيط المدينة ولو بصورة بسيطة، أو أن المدينة قبل ذلك -أي قبل سنة ١٩٥٦ - قد نمت نموا عفويا وعشوائيا لا تعتده أي شروط أو قواعد تخطيطية ، ذلك أنه في سنة ١٩٣٦ مر ببغداد، أو استقدم، الاختصاصي بتخطيط المدن البروفيسور بريكس ومعاونه الدكتور برونو وينفر الالمانيين[١٣٩]، وقاما بدراسة مستعجلة لمدينة بغداد خلال تشرين الثاني _ كانون الأول للسنة المذكورة، وقدما تقريرا في ١٥ صحيفة ضمناه آراءهما واقتراحاتهما عن كثير من احتياجات المدينة التي شخصاها والخدمات اللازمة لها، ووصفا باختصار كيفية معالجتها، ومن جملة ما عالجاه في هذا التقرير النقاط المتعلقة بالمؤسسات النقلية للمسافات البعيدة، وفي داخل المدينة، ومسألة تقسيم المدينة إلى مناطق سكن، ومنطقة الدوائر الحكومية، ومناطق الألعاب والمتنزهات، والمناطق الصناعية، والمناطق العسكرية، ومقترحات عن مشروع تصريف المياه القذرة، وأخيرا وليس آخرا مقترحات عن شبكة الطرق والشوارع،

---

[١٣٩] Breeks & Bronoweinver

وبخاصة انتهاء الشوارع عند شاطىء النهر وعند نهاية الجسور وساحات وقوف السيارات، ولعل أفضل ما قدماه في تقريرهما تلك المقترحات المتعلقة بتخطيط الشوارع والساحات، وربما كان من نتيجة تلك المقترحات تخطيط الشارع العريض في الجادرية المؤدي الآن إلى موقع الجامعة[٤٠]، ولم يكن في الحسبان آنئذ انشاء الجامعة في هذا الموقع، كما انهما نوها بضرورة فتح شارع بين شارع غازي وشارع الرشيد، وإن كنت لا أعلم لماذا فكرا أن يكون أصغر من شارع الرشيد أو شارع غازي. وعندما قمت بالفعل بفتح وانشاء الشارع المذكور المتوسط فتحته بعرض يفوق ضعف عرض كل من الشارعين المذكورين، بل هو أعرض شارع في المدينة القديمة، رغم أنه يمر ويخترق عقارات كثيفة ومزدحمة، وكلف كل ذلك مبالغ طائلة، ولم يكن تقديرنا ني غير محله، فهو بالكاد يكفي الآن لمرور وسائل النقل التي هي على الدوام بازدياد.

لقد نوه البروفيسور بريكس بضرورة الاسراع بتحقيق مشروع المياه القذرة أيضا، بل بين نوع النظام الذي يجب أن يتّبع، وهو مطابق لما طبق فيما بعد وان لم يكن الاستشاريون الذين نفذوه يعلمون بمقترح البروفيسور بريكس بهذا الشأن، فإن هذا النظام هو النظام الطبيعي التي تمليه طبيعة سطح الأرض في بغداد .

كما أسهب البروفيسور بريكس في وصف كيفية واتجاه النمو العمراني في المستقبل للمدينة، والذي يمليه وجود النهر الكبير في وسطها، والتحديد الذي يفرضه سداد الفيضان على هذا النمو، والتي شبهها بأسوار المدن في القرون الوسطى، ونوه بضرورة انشاء مشاريع للسيطرة على فيضانات النهر، واقترح بعض الحلول كإنشاء سداد على بعد ٢٠٠ كم شمال المدينة، او استغلال منخفض عكركوف وغير ذلك ليتسنى ضمان

---

[٤٠] هو المسمى اليوم بشارع خالد بن الوليد، وتتوسطه ساحة أحمد عرابي.

نمو المدينة نموا منتظما في المستقبل، وبالفعل تحققت الآن مشاريع السيطرة على النهر وهي كثيرة بالطبع، وغير التي اقترحها وأوسع، وأصبح نمو المدينة نموا منتظما وهكذا كان.

وفي الخلاصة : هذا ما كان باختصار من أمر دراسة تخطيط المدينة دراسة أولية، وقد طلع علينا البروفيسور بريكس بفكرة حتمية نمو بغداد بموازاة النهر، شأنها شأن مثيلاتها من المدن التي يتوسطها نهر من الحجم الوسط أو الكبير. وهذه النظرية هي في نظره أشد انطباقا على بغداد منها على أية مدينة أخرى لأن النهر في بغداد لا يمثل مظهر القطر الطبيعي والشريان الرئيسي للنقليات فحسب، بل هو أيضا بمثابة موزع الماء على الأرض وعلى هذا يتوقف ازدهار المدينة وحياتها. وهنالك عامل آخر خاص في بغداد يجعل هذه النظرية أشد انطباقا على بغداد من سواها، وهو وجود سداد الوقاية من الفيضانات والتي هي(كما قلنا سابقا) أشبه بأسوار المدن في القرون الوسطى، وما لم ترفع هذه العوائق فلا يمكن أن يكون نمو المدينة منتظما.

وعلى أية حال فانه بمرور الزمن والوقت تحققت مشاريع السيطرة على النهر الآن، واصبح المجال مفتوحا لمخططي المدينة للتفكير على نحو منتظم وهكذا كان. ومشاريع السيطرة بالطبع لم تأت استجابة لتوصيات البروفيسور بريكس، فهي كانت موجودة في الأذهان منذ الدراسات الخاصة بالارض وبمشاريع الري والسيطرة على الفيضانات التي قام بها (السير وليم ولكوكس) ومن أعقبه، وكانت رهن توفر الاعتمادات اللازمة لدى الدولة، وكان من المتوقع أنها ستأتي يوما ما.

وبشأن مقترحاته المتعلقة بمشاريع النقل البعيد والداخلي، وكذلك تصريف المياه القذرة – وتلك أيضا كانت مرتقبة– فقد قامت بدراستها الجهات المختصة، وقد وضعوا لها التصاميم اللازمة وحققت بالفعل. وليس

هنا مجال لشرح مقدار اختلافها او مطابقتها لمقترحات (بريكس) التي كانت مجرد تنويه عن ضرورتها، وقد جاءت تلك المشاريع بصورة طبيعية وكما كان مجيئها مرتقبا، وعلى كل فكل هذه المشاريع قد سهلت مهمة مخططي المدينة الذين أعقبوا البروفيسور بريكس. وفي الحقيقة فإن تصميم ومخططات وتوصيات بريكس كانت أكثر ما تكون توجيهية، ولعل أفضل ما خدم البروفيسور في تقريره هو توصياته بشأن الشوارع والساحات، وتلك التوصيات والمخططات قد تركت بلا شك طابعها على الأرض، وارتسمت صورها بأفكار المسؤولين الذين أعقبوا مجيئه وتأثروا بها بشكل بارز عند تنفيذ مسؤولياتهم.

وفي سنة ١٩٦٥ استقدمت أمانة العاصمة مؤسسة (بول سيرفس) لإعداد تصميم أساس جديد لمدينة بغداد، ولا يغير هذا من التصميم الاساسي لمدينة بغداد المعد من قبل المؤسسة السابقة، أعني مؤسسة (مينو بريو ماكفارلين) التي كنت قد استقدمتها وأكملت تصميمها الأساسي في سنة ١٩٥٦ ، ولا يحط أو ينقص من أهميته، فقد جرت العادة في العالم على إعادة النظر فيها كل خمس سنوات، وقد مضى على التصميم الاساسي الأول تسع سنوات، ولذلك أصبحت عملية اعادة النظر في هذا التصميم قضية ملحة جدا، أخذا بنظر الإعتبار ما استجد من أوضاع، فخلال مدة الخمس سنوات المتخذة عادة قاعدة لإعادة النظر قد تحدث أشياء لم تكن في الحسبان، وتفرضها الظروف مما يستوجب إقرارها، والمثال على ذلك فإن شارع السعدون كان يعد منطقة سكنية عند إعداد تصميم سنة١٩٥٦ لكن الظروف التي تلت تلك المدة جعلت من المصلحة اعتباره منطقة تجارية إذ ووجد أصحاب العقارات ثغرات في القوانين السائدة والمعمول بها آنئذ فعمدوا إلى قلب دور سكناهم إلى دكاكين ومحلات تجارية بطرق ملتوية، ولذلك فمن المصلحة إقرار ما استجد من

أوضاع وما حدث رسميا، كتمكينهم من الاستفادة من الظروف المستجدة بطرق شرعية وقانونية ليعملوا بحرية أكثر واتقان أحسن. وكذلك توسيع حدود المدينة او تحريك خط الحزام الاخضر للسماح باعمار جزء آخر من المدينة أو اجراء دراسة خاصة لأحد المرافق التي تحتاجها المدينة كمشاريع النقل السريع أو الإسكان وسواها. كل هذه الأحوال والظروف تستدعي إعادة النظر في التصميم الأساسي لتعديله أو تثبيت الدراسة الجديدة، وهذه أمثلة قليلة من كثير من الأحوال الموجبة لاعادة النظر والإضافة أو التجديد، وهذا ما تم بالفعل .

وللحقيقة والتاريخ يجب أن أسجل أن مؤسسة (بول سيرفيس) هي مؤسسة مختارة لهذا الغرض، ومعلوماتي عنها أنها لا تحتفظ في مقرها بكادر أو ملاك كبير أو واسع من المستخدمين في أي وقت، لكنها عندما يعهد إليها بمشروع تخطيط أي مدينة تخصص عددا محدودا من كادرها أو ملاكها الدائم ليشكلوا نواة للهيئة التي ستهتم بالدراسة، وتضيف إليهم العدد الكافي من نائلي جوائز المسابقات العالمية في تخطيط المدن لتستخدمهم في ذلك المشروع بالذات، ويقوم مستخدموها الدائميين بوظائف الإرتباط مع المؤسسة، ومع الجهة التي عهدت بالمشروع إلى المؤسسة، ويكونوا النواة الأصلية والمركزية .ولذلك فكنت سأكون مسرورا لوقوع الاختيار على هكذا مؤسسة كفوءة ومشهود لها بالخبرة والكفاءة، ليخلفوا الهيئة أو المؤسسة التي كنت قد عينتها لاعداد التصميم الأساسي الأول، قلت كنت سأكون مسرورا لولا أنه قد صادف عند تعيين مؤسسة (بول سيرفس) أن المسؤولية في الأمانة لم تكن في أيدي من لهم ولع خاص في تخطيط المدينة، وكذلك فإن كثرة تبدل المسؤولين في فترات قصيرة خلال تلك المدة، ترك هذه المؤسسة بدون توجيه محلي بشأن القوانين والأحوال السائدة والوضع المالي بخلاف ما جرى عند اعداد التصميم السابق كما

شرحت ذلك آنفا، الأمر الذي جعل هذه المؤسسة تأخذ حريتـــها الكاملـة لإعداد تصميم مثالي نموذجي، فوقعت في نفس الخطأ الـــذي وقـع فيـه مخططون آخرون من اعداد تصميم يشبه السجادة المنقوشة الخالية من أي عيب او انتقاد، ولذلك فقد جاء تصميمهم غير واقعي وغير عملـــي ممـا سبب تعطيلا بارزا للعمران واتعابا للمسؤلين وأصحاب العقارات، وربمـا فسر ذلك كثرة القرارات الاستثنائية التي اتخذت عقب تصديقه وعند التنفيذ لتمشية الأمر .

ومنذ ذلك التاريخ ولحد الآن أجريت أشياء كثيرة وقيم بدراســات عديدة مفيدة، فقد سن وشرع القانون رقم (١٥٦) لسنة ١٩٧١ وهو مـا دعي بقانون التصميم الأساس لمدينة بغداد[١٤٠]، ونشر في الجريدة الرسـمية (العدد ٢١٢٥) من الوقائع العراقية في ١٨ نيسان ١٩٧٢ وقد أضفى هذا

---

[١٤٠] نشر هذا القانون في الجريـدة الرسـمية ، العـدد ٢١٢٥، بتـاريخ ١٨ نيسـان ١٩٧٢.وجاء في أسبابه الموجبة " لقد جرت محاولات سابقة لوضع مثـل تلـك= الخطة وذلك التصميم إلا أنه لم يكتب لها النجاح، الأمر الذي أدى إلى أن تتوسـع مدينة بغداد توسعا عفويا غير منظم، وأن تصبح بوضع يشكل عبئا كبـيرا علـى الدولة والإدارات البلدية والمحلية من ناحية تقديم الخدمات والوظائف الضروريـة وتهيئة المرافق العامة الأخرى لهذا العدد المتزايد مـــن السـكان الـذي يشـكل مجموعات سكنية متناثرة هنا وهناك، مما استوجب وضـــع حـد لـهذا التوسـع العمراني غير المنظم، وذلك بإعداد تصميم أساس عام يكفل تنظيم نمـــو وتطـور المدينة على أحدث الأسس العلمية والفنية في مجال تخطيط المدن، ويكون أساسـا لوضع جميع التصاميم التفصيلية والتوضيحية التي تتفرع عنه، والتي تتناول تنظيم شبكة طرق المواصلات المختلفة والمرافق العامة التي تتناسب وحاجة المدينة مـع بيان أنواع استعمالات الأرض للمقاصد المختلفة. وقد أعد هذا التصميم بعد مجهود محمود من سائر الجهات المعنية وسمي بالتصميم الأساس لمدينة بغداد ليطبق في الفترة التي تنتهي سنة ١٩٩٠..".

القانون على التصميم الاساس لمدينة بغداد المعد من قبل مؤسسة (بول سيرفس) للسنة ١٩٦٦- ١٩٦٧ المعدل صفة الالزام لكل الجهات الرسمية وغير الرسمية بالعمل بالتصميم المذكور مما يضمن وجوب التطبيق لهذا التصميم من قبل كل الجهات. وقد تصفحت هذا القانون ووجدته جيدا للغاية وشاملا، وقد سهل للمسؤولين مهمتهم وساعدهم على فرض هيمنتهم على الأمور بموجب المادة الثانية منه / الفقرة الرابعة. وفي المادتين الرابعة عشرة والسابعة عشرة عالج القانون القضايا المصادق عليها قبل هذا القانون أو التي تمت بشكل يعد معارضا معارضة ملحوظة لأهداف هذا التصميم، وحبذا لو أخذ هذا القانون أيضا، في جملة ما أخذ من معالجات، بمبدأ التعويض التي تأخذ به بعض الأقطار، وهذا المبدأ يتلخص بعدم ضرورة استملاك الملك أو العقار المعارض للتصميم لإزالة المعارضة، بل مجرد تعويضه تعويضا عادلا مناسبا مع بقاء رقبة الملك لصاحبه الأصلي، على شرط أن لا يستعمله إلا للغرض المرخص به في التصميم.

وطبيعي أنه في بقاء رقبة الملك لصاحبه الأصلي وتحديد استعماله على وفق أهداف التصميم يجعل المبلغ الذي يدفع تعويضا أقل بكثير من المبلغ الذي يدفع في حالة الاستملاك الكامل. وكمثال على ذلك هو انه اذا اقترب العمران من عقار ما، وأصبحت العقارات المحيطة بالعقار الموضوع البحث كلها أراض مسموح البناء فيها، فبطبيعة الحال ترتفع أقيامها، بينما يبقى العقار موضوع البحث مؤشر للزراعة فقط، لذلك يتضح أن التعويض هو شيء عادل ومعالجة أهون على السلطة تحملها من الاستملاك الكامل للملك الذي لا حاجة لها به. وفي أوائل السبعينات عهد إلى مؤسسة (بول سيرفيس) نفسها بموجب اتفاق آخر بتوسيع عملها الأول واعادة النظر فيه[٤٢]، وكذلك بتهيأة التصميم الانمائي الشامل، وبالمسح المدني ومسح

---

[٤٢] قامت شركة بول سيرفس بإعداد التصميم الإنمائي الشامل لمدينة بغداد سنة=

استعمال الأراضي للمدينة .. الخ. وعسى أن يكونوا موفقين وواقعيين أكثر من المحاولة الأولى.

وهكذا توالت الدراسات، فعهد إلى مؤسسة " كونسورتيوم " اليابانية J.C.C.F بتعديل تصميم (بول سيرفس) واعداد تصاميم أو تصميم الانماء لعملهم المتكامل"[١٤٣]. وفي الوقت ذاته نقلت أعمال مؤسسة (سكوت ولسن كيلياتريك) التي كانت وزارة التخطيط قد استخدمتها أصلا في سنة ١٩٧٩ لتعمل الآن تحت ادارة أمانة العاصمة منذ سنة ١٩٨٢، وهي تقوم بالدراسة الشاملة للنقل في مدينة بغداد. وآثار دراسات هذه المؤسسة بارزة وتستوجب الاعجاب، وقلبت اطوار شبكة الطرق بطرق المرور السريعة والتقاطعات المتنوعة الملحوظة الآن بوضوح في طرق العاصمة . كما إني علمت أن هناك مؤسسة يابانية أخرى J.C.P قد استخدمت لتعنى بتطوير مركز الرصافة التاريخي وهي تعمل الآن لدى أمانة بغداد.

إن بعض من كتب عن تصميم العاصمة قد أورد ايضا اسم مؤسسة (دوكسياديس)، وفي الحقيقة والواقع فإن هذه المؤسسة استخدمت فعلا في سنة ١٩٥٨ للاشتغال في بغداد، ولكن يجب ان لا نخلط بين تخطيط المدينة والتخطيط الموقعي، وإن هذه المؤسسة بقدر علمي لم تستخدم للغرض الأول بل للغرض الثاني وذلك لمشاريع الإسكان بالذات، وفعلا قامت باعداد التصاميم في حي اليرموك ومشروع إسكان غربي بغداد لتصميم الدور وما يتخللها من شوارع وساحات. كما أنها قامت باكثر من ذلك، فقد أسست مدارس مهنية حرفية تتعلق بالبناء ومهنته، ونحن بالفعل نحتاج إلى مثل هذه المهارات، وكان لديها منهاج طموح إلا أن

=١٩٧٣.

[١٤٣] أعدت هذه الشركة دراسة للتخطيط الإنمائي المتكامل لمدينة سنة ١٩٨٤، وأقرها مجلس الوزراء في عام ١٩٩٣.

خدماتها قد أنهيت بعد فترة قصيرة، ولا أعلم تفصيل ذلك وأسبابه. وعندما أقول ان هذه المؤسسة لم يعهد اليها موضوع تخطيط المدينة ولا قامت به لا أعني انها غير مؤهلة لهذا العمل إن كلفت به، ولكنها لم تستخدم لذلك، ولم يعهد إليها به، ولم تطل مدة اشتغالها كما بينت ذلك آنفا، إذ لو طال أمد اشتغالها لاستطاعت أن تحمل السلطات على أن تكلفها به، ومع ذلك فإنها ساهمت في إعمار المدينة بإعمار منطقة منها، وليس في تخطيط المدينة كلها، وإذا ما وجد أي تصميم للمدينة من عمل (دوكسيادس) فلربما يكون ذلك من مقترحا بهدف تقديمه للمسؤولين يحملهم على استخدامه في المستقبل لهذا الغرض أو ربما يكون هكذا تصميم قد اعد لاغراضها ليكون مفتاحا او اماما لمشاريعها الاسكانية أو قل دليلا"[144] .

هذه جملة المؤسسات الاختصاصية التي ساهمت في تخطيط العاصمة لحد تاريخه أي منتصف سنة ١٩٨٥، ولا يشمل ذلك بالطبع المعماريين والمدنيين الذين وضعوا التصاميم التفصيلية لمختلف المرافق والمنشآت والمباني والجسور والطرق والتقاطعات ... الخ، التي شملتها تخطيطاتهم، والتي أوضحت نوعيتها. ولما كان كل هذه المؤسسات مشهود لها بطول الباع في لختصاصاتها فلا يضر العاصمة مدى نجاح السلطات في تطبيق أي من التصميم كلا او جزءا، لأن ما تعجز عن تطبيقه السلطات من تصميم مؤسسة ما لأي سبب، فإن كل ما يعني ذلك هو البقاء

---

[144] لقد أهمل المخطط الذي أعدته شركة دوكسيادس اليونانية في عام ١٩٥٩ عملية التوقعات حول نمو سكان بغداد وتجاهل خصائص المدينة التاريخية والبيئة= وحاجات السكان ومتطلباتهم، مما أدى إلى عدم تنفيذ هذا المخطط على الرغم من تنفيذ القنوات المائية المقترحة بموجبه، مثل قناة الجيش وقناة الخر. ينظر مهند مانوئيل يوسف: بدائل نمو مدينة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة إلى مركز التخطيط الحضري والإقليمي بجامعة بغداد سنة ١٩٩٩.

على تصميم ومعالجة المؤسسة التي سبقتها. ولما كانت تلك أيضا مؤسسة كفوءة وذات اختصاص عال فلا بد أن تكون المعالجة على وفقها مرضية وموضوعية وموافقة لقواعد التخطيط أيضا.

ويتضح مما تقدم أن بغداد كانت منذ سنة ١٩٣٦ ولحد الآن موضع عناية مؤسسات اختصاصية في قواعد تخطيط المدن، وإن كانت أول محاولة جدية مطولة وشاملة قد حدثت بعد سنة ١٩٥٤، عندما عهدت أنا إلى مؤسسة (مينو بريو) البريطانية بدراسة احتياجات العاصمة، فوضعت تصميمها الأساس سنة ١٩٥٦، ثم أعقب ذلك وضع تصاميم تفصيلية وتقارير عديدة، إلا أن الدراسة الأولية التي قيم بها في سنة ١٩٣٦ كانت جد مفيدة ومساعدة للمسؤولين في السير وفق قواعد التخطيط، ولا سيما في مجال تخطيط شبكة الطرق والساحات، ولذلك فلا يصح القول أبدا أن بغداد نمت اعتباطيا وعشوائيا، وإذا حصل من هذا شيء فهو من قبيل ما يحصل في مدن اخرى مماثلة عند نموها من مدينة صغيرة إلى مدينة جد كبيرة، ومن مدينة ذات سكان قليلون ومساحات شاسعة حولها، إلى مدينة زاخرة بالسكان الذين اخذوا يتهافتون على السكن فيها بشكل أشبه بانفجارات سكانية غير متوقعة، وأخذت الفجوات من المساحات الخالية تمتلىء وفق قواعد تخطيط المدن شيئا فشيئا. ومما يجدر ذكره أنه في غضون المدة التي خلت العاصمة من ضوابط تخطيطية كتحديد وتخطيط حزام أخضر أو تصاميم مرحلية لضبط نمو المدينة بشكل تدريجي غير بعيد عن مركز أو مراكز المدينة ، وهو اكثر ما يخشى منه عند خلو المدينة من تصاميم أساسة فتتوسع بشكل متناثر بحيث يشكل هذا النمو عبئا كبيرا على الدولة والسلطات المحلية في تقديم الخدمات البلدية وسواها الضرورية كمد الطرق وخطوط التليفون والكهرباء وأنابيب الماء والمجاري وخدمات التنظيف وما إلى ذلك، فإنه ازاء هذا المحذور كانت

السلطات المحلية المسؤولة كانت تلجأ إلى وسائل أخرى لتلافي ذلك، فقد كانت هنالك تعليمات ادارية وضعتها السلطات المحلية احتاطت فيها لكل ذلك مما أوقف هذا النمو على الشكل المتناثر. وعلى سبيل المثال اذكر انه في حالة انشاء دار بعيدة عن آخر قطعة عمرانية، وطلب صاحب هذا الدار أو الدور مد أنابيب الماء، كانت التعليمات المعمول بها آنئذ تقضي بأن يضمن إطفاء ٣/٥ من كلفة تأسيس الأنبوب خلال ثلاث سنوات من بدلات أجور الماء المستهلكة. وإذا وجد أن أجور الماء بلغت أقل من ١/ ٥ من الكلفة في كل سنة فإن عليه أن يدفع الباقي من جيبه إلى ادارة الماء، وإن زادت على ذلك عليه أن يدفع أجرة ما زاد على الخمس باعتبار أن الـ ١/٥ او الـ ٣/٥ قد دفع سلفا، وبالطبع ففي حالة كون الأجور بلغت ١/٥ أو أقل من ١/٥ فلا يعاد له شيء مما دفعه سلفا كما قلت. وهذا مبني على افتراض إنه في خلال مدة الثلاث سنوات يكون النموالعمراني والسكاني قد تكامل بحيث أن أجور الإشتراك أو قيمة الماء المستهلك بعد ذلك تسد الخمس وتزيد وهذا ما ثبت بالفعل . مثل هذا التدبير الاداري كان اتبع من قبل سلطات الكهرباء والتليفون وسواهما من المؤسسات والخدمات .

ومن المعلوم أن تنفيذ أي تصميم تنفيذا صحيحا يتطلب بقاء التصميم متصفا بالجدة ومواكبا للعصر وواقعيا، وإن عملية التخطيط تبقى مستمرة ومتواصلة. ويسعنا أن نقول أن عملية التخطيط قد تواصلت – بحمد الله– ولم تنقطع منذ أن وضعت أول تصميم أساسي للمدينة سنة ١٩٥٦ ولحد الآن، وإن المؤسسات التي استخدمت لتحقيق هذا الغرض كانت كلها كفوءة لذلك فإني مطمئن إلى مستقبل هذه المدينة التي كان لي شرف المساهمة في اعمارها، هذا ولما كانت جودة التصميم تقاس بامكانية تنفيذه ونسبة ما ينفذ منه بالفعل، كان علي أن أكمل ما بدأت به هذا البحث

من شرح ما نفذ من تصميم سنة ١٩٥٦ وما احتواه، أما التصاميم التي تلته فليس من حقي أن أبحث فيما نفذ منها لعدم احـــاطتي الاحاطـــة الكافيــة بتفاصيلها[٤٥]، لكن ذلك لا يمنعني من أن أقول بأنها كثيرة وجبارة ومفيــدة ومن أبرزها مشاريع طرق المرور السريع وما اشتملت عليه من جســـور وتقاطعات تستحق الاعجاب والتقدير، وكذلك مختلف الجسور على نـــهر دجلة. ولا تقل هذه المشاريع أهمية عن مشاريع الاسكان في مختلف انحاء العاصمة والتي لم تقتصر أهميتها على توفير مساكن جيدة للغاية فحســب، بل لأنها عملت على إزالة مبان قديمة متهدمة كان منظرهـــا لا يتناســب ومركز العاصمة المتجددة، وأخيرا وليس آخرا المنشآت الحكومية لمختلف المرافق العامـــة، أقول ليس من حقي أن أتناول هذا الموضـــوع بـــالبحث فيوجد الكثير من المسؤولين من يوفون هذا الموضوع حقه أحسن منـــي، ولكن ذلك لا يمنعني من أن أعبر عن اغتباطي بكل ما يحدث في ســـبيل تطوير العاصمة لجعلها في مصاف العواصم العظيمة في العالم بما يتناسب ومركزها من جميع الوجوه السياسية والثقافية والحضارية عامة.

---

[٤٥] يحسن بنا هنا أن نشير إلى بعض الأطروحات والرسائل الجامعية الحديثة، التـــي تمت مناقشتها، بعد تاريخ كتابة المؤلف لملاحظاته هذه، سنة ١٩٨٥، وتنـــاولت= =مسائل التصاميم الأساسية وعلاقاتها بمشاكل التوسع السكاني للمدن،ومنها مدينـــة بغداد، أو أنها اختصت بدراسة مشاكل التوسع السكاني لمدينة بغداد نفسها، منـــها: صفاء عبد الكريم الأسدي، المشاكل العمرانية للنمو الحضري، رسالة ماجســـتير غير منشورة، مركز التخطيط الحضري والإقليمي بجامعة بغداد ١٩٨٥، وخلدون علي عبد الرحمن: أثر بعض المشاريع الجديدة في تغيير معـــالم مدينـــة بغـداد العمرانية، رسالة ماجسير غير منشورة، المركز نفسه، ١٩٨٦. وســعدي عبيــد، تكجيم المدن الكبرى، رسالة ماجستير غير منشورة، المركز المذكـــور، ١٩٩٠، ومهند مانوئيل يوسف، بدائل نمو مدينة بغداد، أطروحة دكتوراه غـــير منشـــورة، سنة ١٩٩٩ أشير إليها سابقا.

شارع الملكة عالية(شارع الخلفاء)

بقي أن أتناول، بين موضوعات تنفيذ التصميم الأساسي لسنة ١٩٥٦، موضوعين آخرين، وهما فتح شارع الملكة عالية (سابقا) والمسمى الآن بشارع الخلفاء، وقصة الحزام الأخضر. وسأبدأ بشارع الخلفاء .

إن الحاجة لهذا الشارع كان يحس بضرورتها كل سكان العاصمة لأن شارع الرشيد أصبح ضيقا، ولا يتسع لوسائط النقل المتزايدة، وشارع الكفاح (غازي)[١٤٦] مثله وهو بعيد عن شارع الرشيد. وإذن لا بد من فتح شارع بين الاثنين، وتردد ذلك على ألسن السكان كافة، وبينهم مهندسون وغيرهم. وكذلك أشار إلى ذلك من قدم إلى بغداد من مخططي المدن كالبروفيسور بريكس، ولذلك فإني شغلت ومهندسي، عند عودتي إلى الأمانة أمينا للعاصمة، بتحديد استقامته وتعيينها، بل أعددت التصاميم لذلك. ولما إختيرت مؤسسة "مينو بريو" لإعداد التصميم الاساسي عرضت عليهم فكرة فتح هذا الشارع فأيدوا الفكرة واستحسنوا الاستقامة التي كنت قد عينتها، ولذلك فقد تبنوه وضمنوه تصميمهم الأساسي تماما كما عينت استقامته هو وفرعه الذي يصل ساحة الطيران بساحة الخلاني الكائنة على شارع الخلفاء الرئيسي .

لقد قررت أن يكون عرض هذا الشارع ٤٠ مترا، ومدخله في الباب الشرقي بعرض ٥٠ مترا، ولأجل أن تكون للمباني على جانبيه حديقة فقد قررت استملاك الأملاك الباقية على جانبيه بعمق عشرين مترا من كل جانب، على أن تباع الأراضي بعد هدم المباني المستملكة

---

[١٤٦] أعيد اسم شارع الملك غازي إلى شارع الكفاح مجددا باقتراح من كاتب هذه السطور.

بمساحات متناسبة لتبنى عليها فيما بعد عمارات حديثة، فيضمن بذلك انتظام منظر الجانبين بعمارات عصرية، وكذلك لتطفأ مصاريف استملاك المباني لفتح الشارع مما تربحه أمانة العاصمة من بيع الفضلات والمساحات الناتجة.

إن إقرار عرض عشرين مترا على كل جانب للاستملاك هو حدث لم يسبق لأمانة العاصمة أو غيرها من البلديات أن اقدمت عليه، وكان يعد خروجا عن المألوف، إذ أن العادة هي أن تستملك فقط بقية العقار أو الملك الذي يتقطع منه جزء لاستقامة الشارع، ونتجت عن ذلك قطع أو عرصات غير منتظمة من حيث الشكل والمساحة، فبعضها مثلث، والبعض الآخر شبه منحرف، ومنها ما لا تزيد مساحته عن بضعة أمتار مربعة، وكل ذلك لم يكن يضمن إيجاد مساحات منتظمة لبناء عمارات لائقة. كما أني قررت شيئا آخر وطبقته بالفعل، فقد قررت فتح شارع بعرض ستة امتار بظهر العرصات والقطع المطلة على الشارع المفتوح (شارع الخلفاء)، وذلك بإن يؤخذ نصف العرض من قطع أمانة العاصمة، والبعض الآخر من الأملاك الخلفية التي لم تستملك، أو من الأزقة القديمة إن وجدت، لتسلك السيارات التي تحمل البضاعة من العمارات المستخدمة على الشارع وإليها. وقد أوصلت هذين الشارعين بالشارع الرئيسي، أعني شارع الخلفاء في أماكن مناسبة من طوله. وقد قسمت المساحات على جانبي الشارع المعده للبيع إلى قطع تتراوح مساحتها بين الـ (١٥٠) و(٢٠٠) متر مربع، وقد قام مهندسو مؤسسة " مينو بريو " بعمل موديل للمباني التي ستقام على هذه القطع بعد بيعها، وبالفعل فقد أنشئت المباني فيما بعد تبعا لهذا الموديل. ومن جملة ما أدخلناه بالنسبة لهذا الشارع ومبانيه واعتبر ذلك خروجا عن المألوف، أننا جعلنا سقف الرصيف أمام هذه القطع لا يرتكز على ركائز، بل كان على شكل بروز بخلاف شوارع

العاصمة التي كان يرتكز سقف رصيفها على ركائز مقامة على الرصيف بشكل أعمدة. كما أنني جعلت سقف الرصيف غير ممتد على طول الشارع، كما هو الحال في بقية الشوارع، بل جعلناه متقطعا دفعا للملل من المنظر الرتيب الذي ألفه سكنة بغداد وبقية المدن في الشوارع التي استغل فيها سقف الرصيف في البناء . وقد جعل هذا التقطيع مقررا سلفا وفق الموديل الذي عمل لأبنية الشواع . وبهذه المناسبة فأن مؤسسة (مينو بريو) قد عملت وأعدت موديلا آخر لمباني المركز المدني الذي يطل على هذا الشارع أيضا.

لقد قدرت تكاليف فتح هذا الشارع بنحو ثمانية ملايين دينارا، ولم تكن الأمانة تملك مثل هذا المبلغ من مواردها الإعتيادية، ولذلك فقد التجأت إلى الاقتراض من مجلس الإعمار كما سبق أن قلت مؤملا وفاء هذا المبلغ وسواه تدريجيا وبأقساط، وبالفعل لم أتأخر عن الوفاء بالأقساط في أوقاتها المحددة، وذلك من بيع المساحات التي تكونت بعد فتح الشارع وعرضت للبيع. وكان الإقبال على الشراء جيدا للغاية، فتهافت الراغبون على الشراء حال عرض هذه القطع للبيع، ودفعت أثمان غالية في شراء هذه القطع تكاد تكون خيالية في وقتها ، بالطبع فإن مجلس الاعمار كان سخيا ومتساهلا في جعل الفائدة على القرض غير عالية لتقديره للفوائد التي تجنى من المشاريع التي قمت بها . كما أن وزارة المالية كانت هي الأخرى مشجعة بكفالة القروض الأهلية التي أقدمت عليها الأمانة.

ومما يجدر ذكره أن هذا المشروع- شأنه شأن أمثاله من المشاريع العامة - لم يسلم من المعارضة رغم اعتراف الجميع واقتناعهم بضرورته، وذلك لسببين، أولهما حرمان البعض من مكاسب خيالية لا حق لهم بها تنتهي عند تنفيذه، وثانيهما انسياق بريئي النوايا وراءهم، مغشوشين بدعاياتهم الباطلة والتي قامت على أساس أن الاستملاك الحكومي لا يؤمن

أخذ صاحب الملك التعويض العادل ، والاستملاك كما هو معلـــوم نـــزع الملكية بالقسر، ولذلك فأن مثل هذه الدعايات الباطلة قد تجد لـــها طريقــا خصبا بين الأكثرية الجاهلة ما لم تعالج القضية بحكمة وتروي، ولذلك فقد أوصيت لجان التقدير ليس بمراعاة العدالة في التقدير فحسب، بل باتبـــاع سبيل السخاء بالتقدير واعطاء صاحب العقار عشرة بالمائـــة أكـــثر ممـــا يستحقه عقاره، فهذا يبهجه ويعيد ثقته بالسلطة ويرحب بمشاريعها، وهذا لا يضر السلطة أبدا، إذ بعد مدة جد قصيرة تصبح قيمة هذا العقـــار الـــذي دفعت به عشرة بالمائة زائدة في أول الأمر ضعف قيمته، ويزداد يومـــا بعد يوم.

إن اتباع هذه الطريق الحكيمة واستعادة ثقة الجمهور بالسلطة، قد جعل أصحاب العقارات يرسلون لي العرائض، الواحـــدة تلـــو الأخـــرى يطلبون فيها الإستعجال باستملاك أملاكهم، ويشكون من تـــأخير وصـــول لجان الإستملاك إليهم بعد ان كانوا يقاومون المشروع . ونصيحتي لمـــن يقوم بمشروع عام أن لا يجعل الجمهور يحس بأنه مصدر نقمة وضـــرر له، لأن المقاومة قد تكون في بعض الحالات شديدة، وهذا ما حدث بـــالفعل في بداية العمل بالمشروع، حيث سخر المستفيدون من عـــدم تنفيـــذه، أو بالأحرى: المحرومون من استفادات لا حق لهم بها، وسخروا كل قواهـــم للقضاء على المشروع وايقافه بأي ثمن فقد اعدوا مقالات مطولة عـــددوا فيها -حسبما صورت افكارهم - مساوئه وعدم ضرورته، وما يتسبب فيه من أزمة للسكن ، وبعثوا هذه المقالات إلى بعض الصحف على أن تنشـــر عدة مرات فيها.

وبالنظر لما أحدثته المعارضة من لغط في البلد، فقد طلبني رئيـــس الوزراء آنئذ نوري باشا السعيد للحضور أمامه لبيان ما أقوم به. وقبل ان يعلموا ما دار بيننا نشروا في الصحف أن رئيس الوزراء قد أمرني بأيقاف

العمل، بينما ما وقع بالفعل هو أنه سألني عن عدد العقارات التي ستهدم لتنفيذ المشروع، فقدرتها بحوالي الألفين، فقال: قدم لي قائمة بعدد العقارات المملوكة منها بشاغليها، وعدد المستأجرة منها من قبل شاغليها، مع تبيان نوعيتها من دار أو دكان أو غير ذلك، فأتيته بالمعلومات بعد أيام. فقال: إذن أخبر السلطات القائمة بانشاء الدور، وكانت آنئذ وزارة الشؤون الاجتماعية، أن تنشيء بدلا منها وأكثر. وقلت: سأفعل! وعندها اغتنمت الفرصة في أن أقدم له عرضا او فكرة ،واستأذنته بالسماح لي بالشرح، فقال: افعل، فقلت: إن استملاك الشوارع أو غيرها من المشاريع العامة هو إزالة شيوع جبرية، وكثير من هذه الدور المتهدمة تملكها عائلة ربما توفي معيلها الأصلي وبقيت الأم ومعها اولادها، والعادات الاجتماعية لا تسمح لهم بتركها، وبعد الاستملاك سيحصل كل وارث على مبلغ ما فيجد عذرا لديه للتفرق والاعتزال وبناء دار جديدة يستقل بها، وربما تعيش الأم مع واحد منهم، وبدلا من دار واحدة تنشأ ثلاث إلى خمس دور جديدة وذلك بالبدل الذي يقبضه كل واحد منهم من مبلغ الاستملاك بعد اضافة ما يكون قد ادخره، وربما استعان على الأمر بالاستقراض من المصرف العقاري، وهكذا يكون الاستملاك سببا للعمران والتجديد بدلا من أن يكون تهديما.

ثم أني توسعت بالحديث مع رئيس الوزراء، فقلت أن البنك العقاري يستطيع أن يؤدي دورا مهما في هذا الشأن بمساعدة الذين يحتاجون لمعاونته بإضافة مبلغ إلى المبلغ الذي قبضوه من السلطة المستملكة على شرط أن يتساهل أكثر مما هو فاعل الآن، فاستحسن الفكرة وأمرني أن اتصل بسلطات البنك العقاري، وكان نتيجة هذا الاتصال إطالة مدة دفع الأقساط وتخفيض الفائدة المئوية المستوفاة عن القرض، وزيادة رأس مال

البنك العقاري، وزيادة المبلغ المسموح باقتراضه. وهكذا اندفع المشـــروع بسرعة بدلا من ان يتوقف .

ولأضرب مثلا على المقاومة التي تتأتي عن الأشـــخاص الذيـن يحرمون من الاستفادة من أرباح مرتقبة لا يستحقونها، فأقول: أنـــه كـان هنالك الكثير من العقارات أو الأراضي الوقفية استأجرها انـــاس بطريقـة الإجارة الطويلة وببدلات سنوية زهيدة تكاد تكون رمزية، فأقاموا عليـــها مبان بكلفة رخيصة تضمن بقاءها مدة الاجارة، ولكنها لموقعها أخذت تـدر أرباحا طائلة . وعلى سبيل المثال دور السينما، كسينما غازي، ولا يستفيد الوقف من هذه الأرباح، وحتى عند استملاكها لا يذهب إلا جزء قليل من بدل الاستملاك إلى المستأجرين، أو بالأحرى يذهب الى الوقف بأجمعـــه، ويعاد إلى المستأجرين شيئ عما بقي من مدة الايجار عن البناء. ومـــهما تكن الطريقة او القسمة بين الوقف والمستأجر فان الاستفادة الكبرى مـــن بدل الاستملاك يذهب إلى الوقف، فهو صاحب الأرض الأصلي، وطبيعـي أنه ليس من مصلحة المستأجر أن يستملك هذا الملك فيحرم مـــن اســتفادة مرتقبة، ولذلك أخذ هؤلاء المستأجرين بمقاومة أمانة العاصمة بشتى السبل في الاستحواذ على الملك وهدمه وإلحـــاق أرضـــه بالمشـــروع فدخلـــوا بمحاكمات طويلة مع أمانة العاصمة ولكن بالنتيجة فإن الأمانـــة ربحـت الدعوى، وهدمت الملك وألحقت أرضه بالمشروع. ومثل هذه المقاومـــات والاعاقات كثيرة، وكان يجب استعمال الحكمة وكافة الوسائل للتغلب عليها لئلا يتوقف المشروع. وهدم دور العبادة كالجوامع والمساجد أمـــر آخـر يجب استعمال الحكمة في تدبير أمره، هذا بالاضافة إلى مراعاة الانصـاف والسخاء في استملاك عقارات الأفراد كلها.

على كل حال، أنشئ الشارع، ونفذ، وتم فتحه بصورة رسمية من قبل المغفور له الملك فيصل الثاني في يوم الاربعاء الثاني من شهر تشرين الأول من سنة ١٩٥٧.

لقد انشيء فيما بعد نفق في ساحة التحرير، أي في مدخل شارع الخلفاء من جهة الباب الشرقي، حيث كنت قد اتخذت الاحتياط لذلك بجعل مدخل الشارع هنا أوسع، أي ٥٠ مترا بدلا من ٤٠ مترا، وهو عرض الشارع من حيث العموم لملافاة أي تقاطع.

اما العرصات المتكونة فقد حصل تهافت على شرائها، وقد سدت هذه نفقات فتح الشارع، وكما كان متوقعا فقد بيعت القطع المتكونة من باب الشرقي إلى الشورجة، وإلى مسافة ما شمال الشورجة، بسرعة فائقة. أما بعد ذلك فقد حصل تباطؤ في شراء ما هو شمال الشورجة بقليل، في نهاية الشارع الشمالية، وكان ذلك متوقعا، إلا أن الجهات الرسمية قامت مؤخرا ببناء ما بقي من قطع غير مبنية في هذا الجزء، فتكامل بناء الشارع تقريبا كله والباقي قيد البناء، وهذا ما يدعو إلى الفرح والسرور. كما أن العمران امتد وشمل ساحة الميدان على الجانب الغربي من الشارع، حيث أقيمت مبان حكومية لائقة[١٤٧].

---

[١٤٧] من الإنجازات التي ترافقت مع إنشاء شارع الملكة عالية (الخلفاء اليوم) إنشاء شارع القبلة في قصبة الكاظمية، وكان واحدا من أكثر المشاريع التي استلفتت اهتمام الفخري، وإن فاتته الإشارة إليه في هذه المذكرات، وقد أشار إليه في خطابه الذي ألقاه عند افتتاح شارع الملكة عالية بقوله" أما شارع باب القبلة في الكاظمية فقد فتح بدافع الضرورات العمرانية أمام باب القبلة في الصحن الشريف حيث مرقد الإمامين الجوادين عليهما أطيب السلام، فأزال ما كان يحيط هذا الصحن الشريف من أبنية متداعية وأزقة ضيقة لا تتناسب ومنزلة مقامهما الطاهر، كما يسر لأفواج الناس القادمين من كل مكان سبيلهم إليه لأجل الزيارة والتبرك" (جريدة الشعب، العدد ٣٩٥٨، ٣ تشرين الأول سنة ١٩٥٧). وقد

الحزام الأخضر

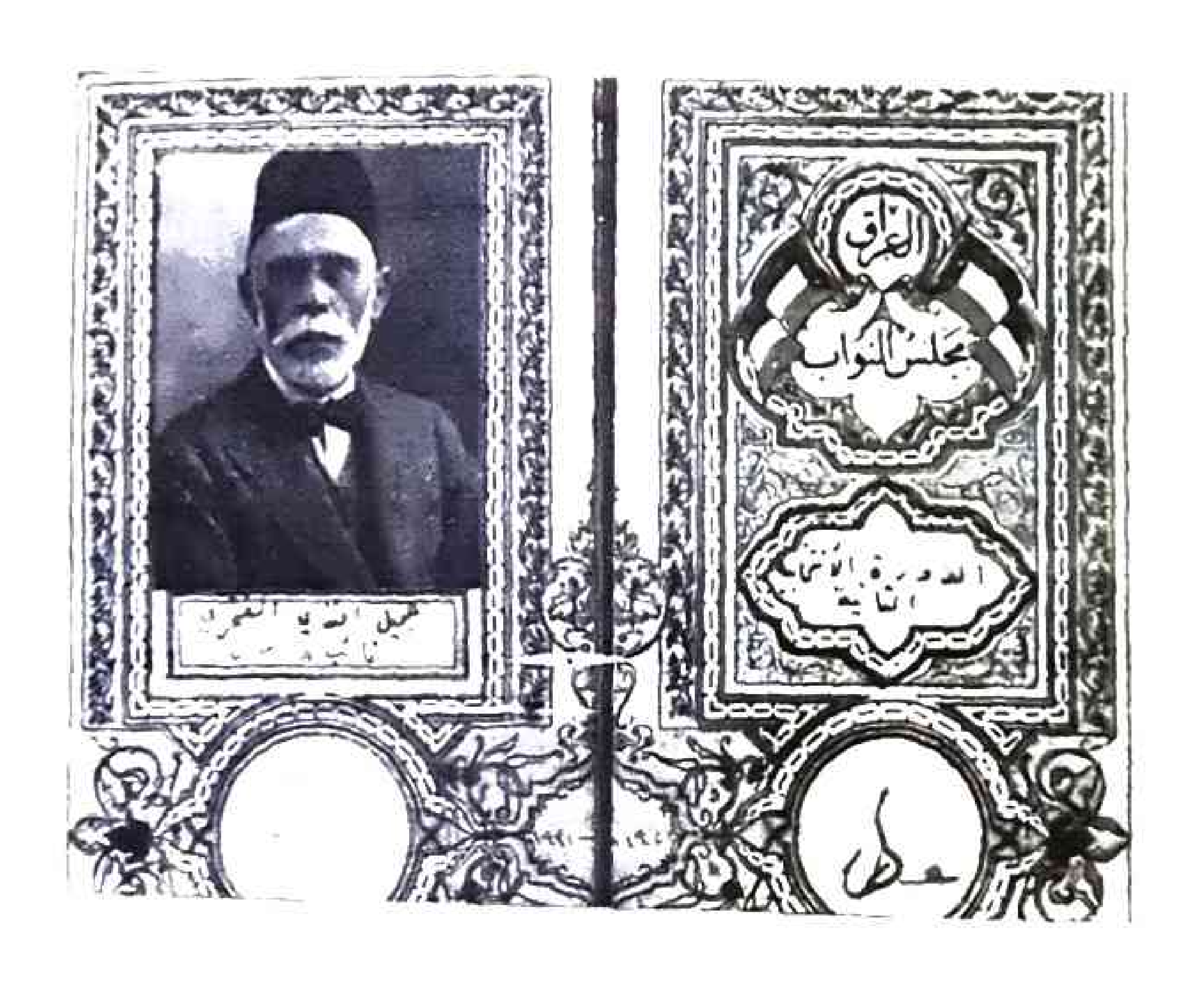
والآن، وبعد الفراغ من موضوع شارع الخلفاء (شـــارع الملكـة عالية بالأصل) الذي أسهبت في وصف مراحل انجازه وتفصيل ميزاتـــه، يجدر بي أن أتناول بالحديث موضوع الحزام الأخضر، وأحكي قصته كما وعدت فيما تقدم .

إن الأهداف التي توختها قواعد تخطيط المدن، من اقامـــة الحـزام الاخضر او النطاق الاخضر، كما يفضل أن يدعوه البعض عند إعداد كـل تصميم أساسي لمدينة ما، تتمثل في جملة من الأمور، منها الحد من نمـــو وانتشار العمران في المناطق المبنية بصورة عشوائية وغير متصلـــة، أو منع اندماج المدن المتجاورة بعضها ببعض، أو الحرص علـى المحافظـة على الطابع الخاص لمدينة ما، وأخيرا وليس آخرا ما يتوخـى منـه مـن تحقيق فوائد اقتصادية أو بيئية او ترفيهية، وبالطبع فإنه ليس فـي نيتـي الاسترسال بتعداد الاغراض والاستعمالات والأهداف المتوخاة من اقامـــة الأحزمة الخضراء ، فذلك من وظائف مخططي المدن، ومعلومات كـــهذه مكانها كتب تخطيط المدن إذ يضيق المجال عن ذكرها هنا، وأقول مـــهما كانت الغايات المرجوة من اقامة الأحزمة الخضراء فإن تصميمنا لم يغفـل عن هذه الامور، وقد تضمن هذا التصميم حزاما أخضر أقمناه على بعـــد أربعة كيلومترات تقريبا من السدة الشرقية (قد سبق أن أزيلت هذه الســدة الآن [٤٤٨])، وعلى مثل هذا البعد تقريبا أقيم الحزام الأخضر حول الجوانـب الأخرى من المدينة .

افتتح الملك فيصل الثاني هذا الشارع، في نفس اليوم الذي افتتح فيه شارع الملكـة عالية.

[٤٤٨] يشغل أرضها اليوم شارع محمد بن القاسم.

لقد كانت متطلبات الحزام الأخضر الذي أقمناه متواضعة، ومن شروطها أن لا يبنى داخل حدوده إلا المباني التي تتطلبها الأغراض الزراعية والريفية ، وان لا تفرز قطعة منه بأقل من مساحة عشرة الاف متر مربع (مقارنة بمائة ألف متر مربع كحد أدنى في مدينة الدار البيضاء). ومع ذلك فقد اصطدمت هذه الشروط بمصلحة أصحاب الأملاك مما استوجب في حينه استدعائي، أنا والمهندسين الاستشاريين إلى مجلس الوزراء للمناقشة بشأنه، وبعد نقاش طويل أدركنا أننا سنلاقي حتما مجابهة قوية مع المراجع العليا قد تؤول بالتالي الى وأد التصميم الأساسي برمته فيما اذا أصررنا على هذه الشروط فارتأينا أنه من المصلحة ممارسة بعض المرونة والتضحية ببعض الشروط للحفاظ على قبول التصميم ككل، فخفضنا الحد الأدنى، أعني العشرة آلاف متر مربع لمساحة القطع المسموح بفرزها إلى ٢٥٠٠ متر مربع، سيما وقد لاحظنا ان المدينة كانت تنمو بسرعة قياسية، ولا بد لنا قبل فوات وقت طويل أن نضطر إلى إبعاد حدود الحزام الأخضر مسافة أخرى عن مركز المدينة، ولذلك فلا مصلحة في الإصرار. وهكذا كان الأمر، فما أن مضت مدة حتى اقتضى تغيير مكان الحزام الأخضر الذي كنا قد وضعناه فيه، وأصبحت المساحات الواقعة داخل حدوده مشمولة بتصميم جديد كما نوهنا عن ذلك آنفا. وفي الواقع فإنه لم يحصل ضرر من جراء قبول الحلول الوسطية التي اتفقنا عليها مع السلطات العليا حفاظا على التصميم الأساسي الاصلي من أن يواجه بالرفض.



هوية مجلس النواب العراقي
للسيد جميل الفخري والد صاحب هذه المذكرات



السيد فخري الفخري في زي ضباط الأحتياط



السيد فخري الفخري سـنة ١٩٣٢



جسر الموصل الحديدي وقد تم تركيب بعض الألواح
على دعامته ، بينما يظهر في مقدمة الصورة زوج من الدعامات
قد كملت قبل أن يركب عليها هيكلها العلوي



جسر الموصل وقد تم تركيب الهيكل العلوي ، ويجري تركيب الأرضية
المكونة من الصفيح المضلع ، ويظهر في الصورة المهندس فخري الفخري
وهو يتحدث الى أحد رؤساء العمال



حينما غرقت ديالى ١٩٤٥



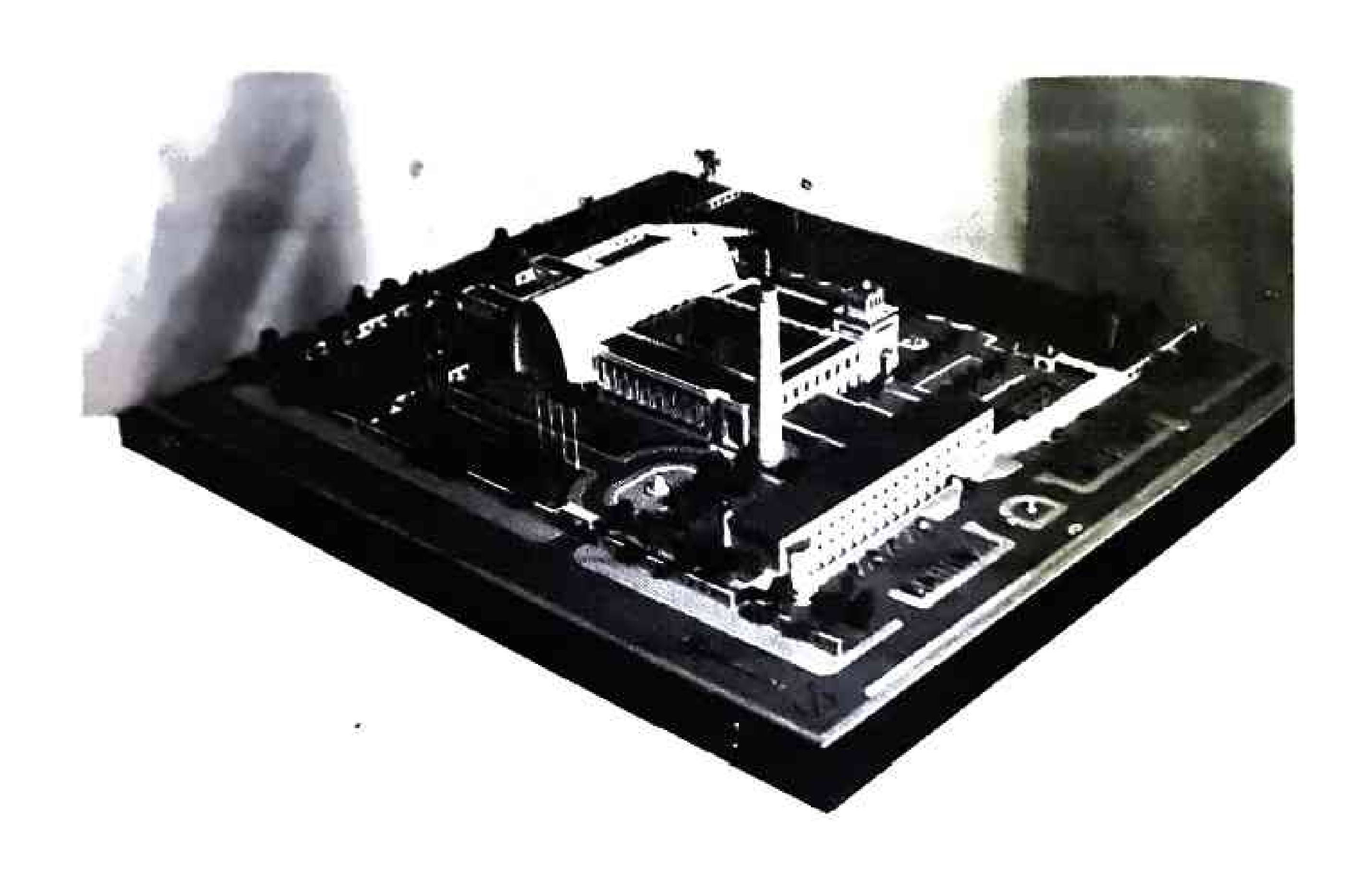
المدرجة الرافعة التي استعملها السيد فخري الفخري
في انشاء السدة الصغيرة فوق السدة الأصلية في اثناء فيضان سنة ١٩٤٥



حينما غرقت بغداد الجديدة في فيضان سنة ١٩٤٥



**السدة الشرقية لبغداد وقد أحاطت بها مياه الفيضان سنة ١٩٤٥
وتظهر في وسط الصورة السدة الصغيرة التي قام السيد فخري الفخري
بأنشائها لحفظ بغداد من الغرق**



انموذج للمركز المدني الذي اقترح الفخري إنشاءه
على الجانب الأيسر لشارع الملكة عالية (شارع الخلفاء حاليا)
وتشغل أرضه اليوم مباني أمانة بغداد والدوائر التابعة لها ·



صـــور تخيلية لجانب آخر من المركز المدني



صورة متخيلة لجانب من المركز المدني الذي كان مقررا إنشاؤه
في الأرض التي شغلتها فيما بعد أمانة بغداد والدوائر التابعة لها



الملك فيصل الثاني وهو يقص الشريط في افتتاح شارع الملكة عالية
ويظهر عن يمينه خاله الأمير عبد الأله وعن شماله السيد فخري الفخري
أمين العـــاصمـــــة

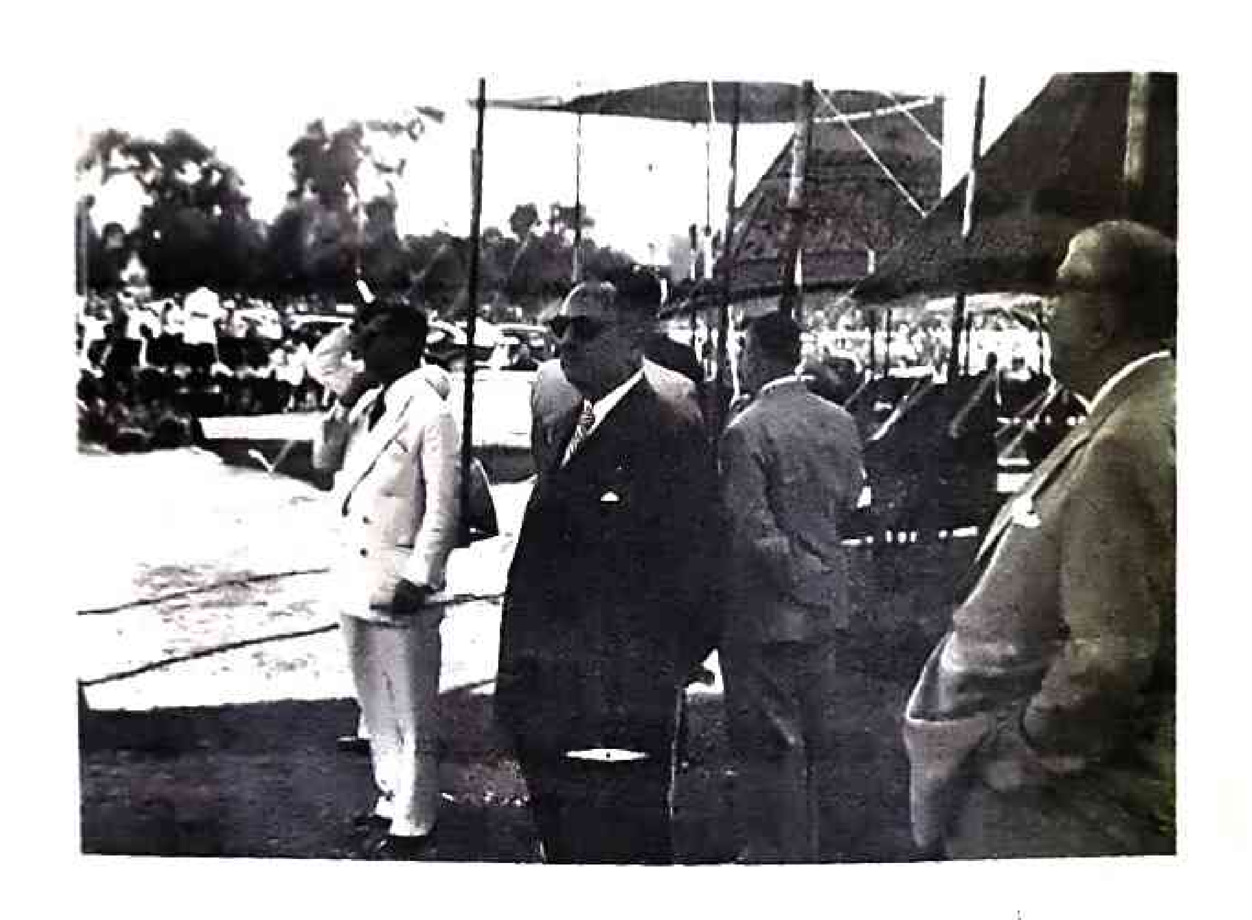




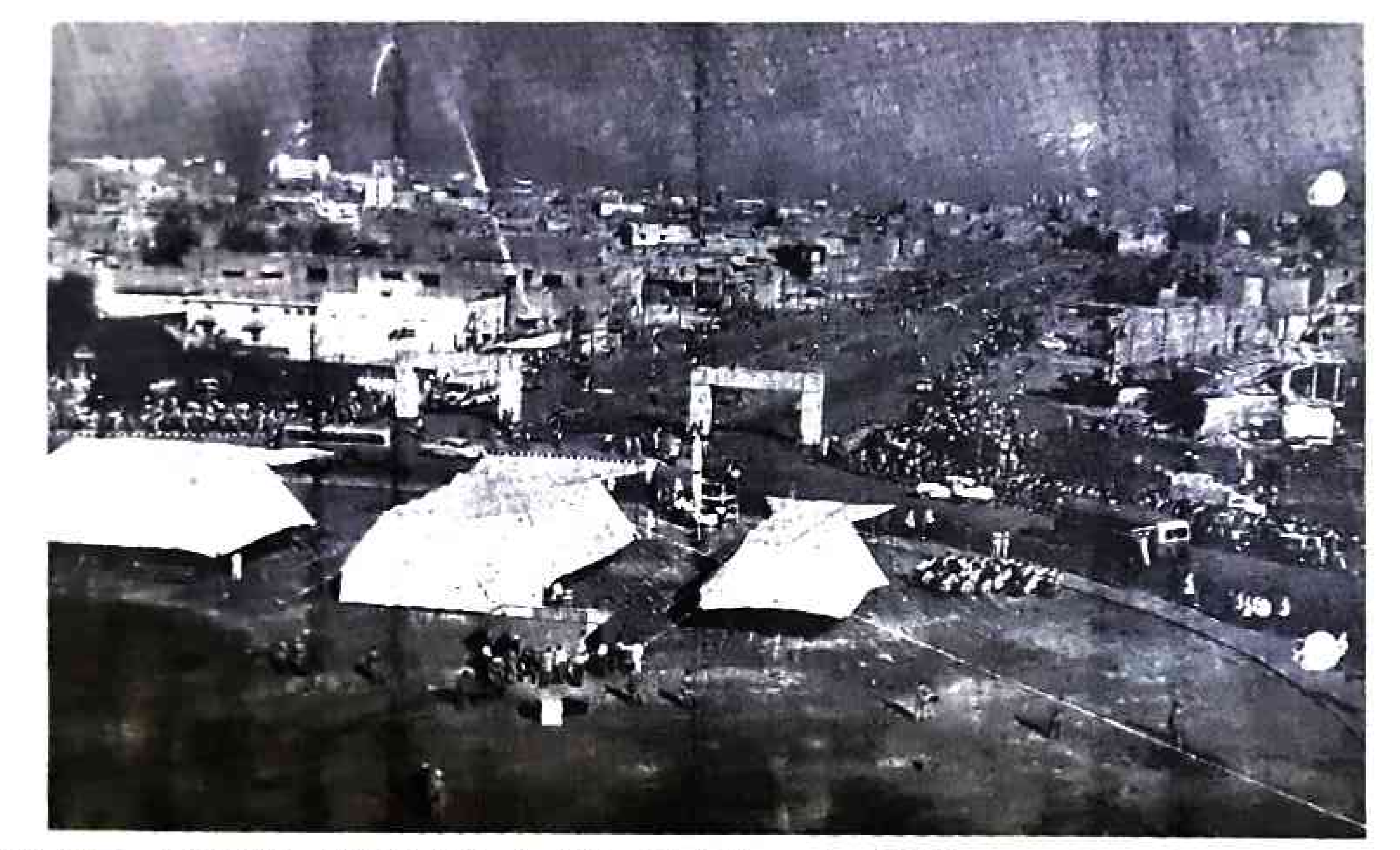
الملك فيصل الثاني في افتتاح شارع الملكة عالية (شارع الخلفاء حالياً)
في ٢ تشرين الأول سـنـة ١٩٥٧ ويظهر على يمينه خاله الأمير عبد الأله



السرادق المخصص للضيوف والأستعدادات لأستقبال الملك فيصل الثاني في إفتتاحه شارع الملكة عالية (شارع الخلفاء فيما بعد)



بانتظار وصول موكب الملك فيصل الثاني في افتتاح شارع الملكة عالية
اقيم هذا السرادق في وسط ساحة الملكة عالية (ساحة التحرير حالياً)
ويظهر السد فخري الفخري وهو يرتدي بدلة بيضاء على يسار الوقوف ٢ تشرين الأول ١٩٥٧



ساحة الملكة عالية (ساحة التحرير حالياً) في صباح يوم افتتاح شارع الملكة عالية (شارع الخلفاء حالياً) في ٢ تشرين الأول ١٩٥٧
يظهر في الصورة مدخل الشارع وعن يساره مبنى مجلس الأعمار ووزارة الأعمار (بنيت على أرضه عمارة شركة التأمين الوطنية حالياً)

٩٢٣ / ٢٥٦٧
ع ٨٢٤ عماد عبد السلام رؤوف
مذكرات فخري الفخري ١٩٠٨ - ١٩٩٥ :
الوزير وأمين العاصمة في العهد الملكي / أعدها
عماد عبد السلام رؤوف - بغداد : دار المثنى
للطباعة والنشر، ٢٠٠١
ص ، ٢٤ سم .
١ - فخري الفخري ١٩٠٨ - ١٩٩٥ :
م.و (وزير) أ . العنوان
٢٠٠١ / ٦٠٠

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)

رقم الأيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٦٠٠ لسنة ٢٠٠١

دار المثنى للطباعة والنشر ببغداد

هذا الكتاب

كان السيد فخري الفخري طليعة حقيقية لفئة من (التكنوقراط) الذين عنوا بتحديث العراق في النصف الأول من القرن العشرين ، ولقد مكنته المواقع التي شغلها ، مديرا عاماً للأشغال ، ووزيرا للمواصلات والأشغال ، وأميناً للعاصمة ، من أن يضطلع بتصميم وتنفيذ عدد من المشاريع المهمة التي إنتفع بها الناس لأجيال عدة ، وهو هنا ، في هذه المذكرات يتحدث عن ذكرياته عن جوانب من الحياة الأجتماعية والثقافية في العراق في أخريات العهد العثماني ، ثم يتناول ، من بعد ذلك ، جوانب أخرى من تاريخ العراق المعاصر ، من خلال عرضه للمشاريع الهندسية والحضارية التي قام بها ، أو من خلال الأحداث الجسيمة التي كان شاهدا عليها.

توزيع مكتبة عدنان
شارع المتنبي - هاتف ٤١٥٤٠٦١

التصميم

٤١٦٨٤٣٩